

من هؤلاء تعلمت

سيرة ذاتية

د. إبراهيم أبو طالب

الطبعة الأولى

2021 م - 1442 هـ

ديوان العرب

للنشر والتوزيع



عنوان الكتاب: من هؤلاء تعلمت

اسم المؤلف: د. إبراهيم أبو طالب

التصنيف الأدبي: سيرة ذاتية

رقم الإيداع: 2021 / 1904

الترقيم الدولي: 3 - 60 - 6749 - 977 - 978

تصميم الغلاف: د. محمد وجيه

التدقيق اللغوي: د. إبراهيم أبو طالب

التنسيق الداخلي: د. محمد وجيه

رقم الطبعة: الطبعة الأولى

المدير العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.



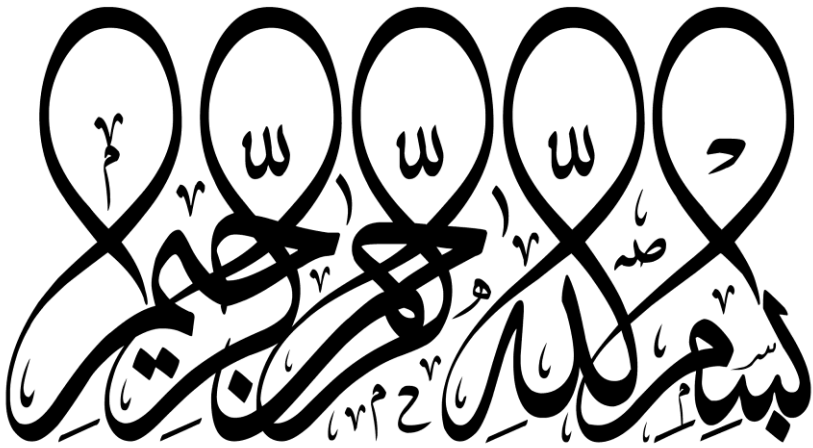
٩

مِنْ هَؤُلَاءِ تَعَلَّمْتَ

سيرة ذاتية

د. إبراهيم أبو طالب





إِهْدَاء

إلى أستاذتي:
محبةً ودعواتٍ ووفاء.

إلى طلابي:
برُّوا أستاذتكم يبرُّكم طلابُكم!

إليك أيها القارئ العزيز..

د. إبراهيم أبو طالب



نُشِرَت بصيغتها الأولى في مجلة (أقلام عربية)
من العدد (23) سبتمبر 2018م حتى العدد (47) سبتمبر 2020م
وعلى المدونة:

[/https://ibraheemabotalib.blogspot.com](https://ibraheemabotalib.blogspot.com)

المقدمة

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، وهو القائل في محكم التنزيل رافعاً شأن الإيمان والعلم: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، ومؤكداً على الذكر الجميل، بعد الحياة، بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾.

والصلاة والسلام على النبي الأعظم، والمعلم الأكرم ﷺ، القائل: "مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ". رواه مسلم. والقائل فيما رواه الترمذي: "إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ، وَأَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ، حَتَّى الثَّمَلَةِ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الْحَوْتُ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ"، وهو الذي علَّمنا الشُّكر، والوفاء بقوله: ﷺ "مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ"، وعَرَّفنا كيف نُؤدِّي الواجب، وكيف نقوم بالحق، بقوله ﷺ: "مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافَيْتُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِيُوهُ، فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنْكُمْ قَدْ كَفَأْتُمُوهُ".

أَمَّا بعد:

فقد بدأت فكرة هذا المشروع في نشر ثلاث حلقات منه على صفحتي في الفيسبوك، وأعلنت فيها أنني سأكتب عن أساتذتي، ونشرت أولى الحلقات في شهر نوفمبر من عام 2017م، وشرحتُ الفكرة بهذه الكلمات: "الأصدقاء الأجلاء، السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته، هذا مشروع أشتغل عليه منذ فترة تحت عنوان:

(#من هؤلاء تعلمت...#سيرة ذاتغيرية)، وفكرته تقوم على رصد بعض مما تعلمته من أساتذتي الأجلاء في جوانب الدّرس العلمي أو الخلق الإنساني أو التعامل الحيّاتي بمختلف آفاقه كشهادة أقدمها في قراءة سريعة، وعبارات موجزة، ووقفات نابضة، تطمح إلى بيان بعض صورهم في مرآة الذات.. وإليكم أولى الحلقات مع أستاذنا، وأستاذ الأجيال، ورائد التنوير في اليمن الأستاذ الدكتور عبد العزيز المقالح...".

وتوقفتُ عند الحلقة الثالثة -في النشر على الفيسبوك- لمدة عام تقريباً، ثم نشرتُ دراسةً قصيرةً في مجلة (أقلام عربية) عن مجموعة القصّة لارا الضراسي (زرقاء عدن)، وبعدها تواصلتُ معي رئيسة تحرير المجلة: الشاعرة سمر عبد القوي الرّميّة، وكذلك مدير التحرير: الشّاعر مختار محرم -وهو بالمناسبة أحد طلابي الذين درّستُ لهم في مدرسة ثانوية عمار بن ياسر، بصنعاء- وطلبا إليّ استمرار الكتابة في المجلة بشكلٍ شهريّ، وبأني موضوع أقترحه، فعنّ لي أن أطرح فكرة هذا المشروع، وأن أشرع فيه، فرحّباً بالفكرة كثيراً، وبدأتُ أسلسلُ الحلقات بانتظام ابتداءً من

العدد (23) شهر سبتمبر 2018م، واستمر لحوالين كاملين حتى العدد (47) شهر سبتمبر 2020م.

ولا شكَّ أنَّ هذا المشروع الطامح قد ألزمني الكتابة بعد ذلك كُلِّ شهرٍ إلزامًا، والتزامًا للمجلة، وللقرءاء الأجلاء، وقد فعلتُ؛ على الرغم من مشاغلٍ عدَّةٍ كانت ربما تحول دون الاستمرار، لولا ذلك الالتزام الأدبي، والدافع المعنوي والإنساني، فمضيتُ - بحمد الله وتوفيقه - أقدِّم في كُلِّ عددٍ أستاذًا ممن تلقَّيتُ التعليم على أيديهم في قاعة الدرس بشكل مباشر في مراحل دراستي الجامعية الأولى، والعليا حتى الدكتوراه، وكنتُ محظوظًا بأن أتيج لي التَّلمذ على يدِ أعلامٍ كبارٍ من أساتذة الجامعات في الوطن العربي من اليمن، ومصر، والعراق، وسوريا، والجزائر، وغيرها؛ حيثُ حظيتُ بالتَّلقي والتعلُّم على يدِ عددٍ كبيرٍ من الأساتذة والأعلام الكبار في دراستي في اليمن السَّعيد، ثم في مصر المحروسة. وكانت الفترة التي تلقَّيتُ فيها ذلك التعليم تمتدُّ من عام 1989 حتى 2008م، أي خلال عقدين من الزمان تقريبًا، وكانت هذه المرحلة قد شَهِدَتْ فيها اليمنُ استقرارًا نسبيًا، ولكنَّها في الوقت ذاته قد مرَّت بأهمِّ مراحلها ومنعطقاتها التاريخية والسياسية المعاصرة، وهي مرحلة (تحقيق الوحدة اليمنية)، وما تلاها من أحداث عام 1994م، ثم ما تبعها من استقرار وتطوُّر في مجالات الحياة، ومنها مجال التعليم العالي، والمنح الدراسية، فكان لي - كما كان لغيري من طلاب العلم -

فرصة السّفر، والدراسة في جمهورية مصر العربية مُبتعثًا من جامعة صنعاء بوصفي أحد منسوبيها، والمعידين فيها.

في تلك الفترة الزمنية الدراسية التقيتُ بعددٍ كبيرٍ من الأساتذة والأعلام الذين كانَ لهم -بعد الله عزَّ وجلَّ- الفضل في تشكيلي المعرفي، وتكويني العلمي، وتوجهاتي النقدية والأكاديمية على اختلاف مدارسهم الفكرية، ومشاربهم المعرفية، ومكانتهم العلميّة، وقدراتهم الأكاديمية، فأردتُ الكتابة عنهم ردًّا لبعض فضلهم، وإزجاءً للشكر لهم، وبيانًا لما احتفظتُ به الذاكرةُ عنهم من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى لتسجيل التاريخ المعرفي والمستوى التعليمي الذي كان يُقدَّم خلال تلك الفترة الزمنية من العقد الأخير من القرن العشرين والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين الميلادي.

وبذلك أقوم بالحديث عن تجربتي معهم من خلال ما يسمّى بأدب السيرة الذاتية، ولكن بما أنّ هذا الأدب يعرفه النقاد بأنّه على نوعين: (سيرة ذاتية، وسيرة غيرية)، وكلا المصطلحين معروفٌ الدلالة، مستقرٌّ المعنى إلى حدٍّ كبير، فالأوّل: سيرة عن الذات بكل ما في ذلك من حديث، وسرد، ومعلومات لا تخرج عن حدّها التاريخي والواقعي، ومنطقها المتركّز والمتمركز حول الذات. والآخر: هو ما يكتبه شخصٌ ما عن شخص آخر بقصد وضع سيرته موضع التركيز، والبيان، والتوضيح، وفق وجهة نظره الخاصة، وطريقة تعبيره، وغايته من الكتابة.

ولكن مشروعى هذا قد يلتقي مع تلك الكتابات في جوانب معينة، ولكنه يسعى من جوانب أخرى إلى أن يختلف عنها اختلافاً مقصوداً لذاته؛ أردت فيه أولاً أن أجتزح مصطلحاً جديداً، حاولت تكريسَه على مستوى العنوان، وعلى مستوى البناء، والمضمون، وهو مصطلح: (سيرة ذاتغيرية) بأن أجمع بين سيري الشخصية من خلال سيرة الغير، وهم -هنا تحديداً- أساتذتي الذين تعلمتُ على أيديهم، وفي الوقت ذاته أعرض أبرز ما في حياتهم العلمية والإنسانية من جوانب معرفية ودلالات مختلفة، كما انعكست في مرآة الذات، واستقرت في وعيها من خلال المشاهدة والمعايشة، وذلك بالربط بين الذات والغير في آن واحد.

وقد حرصتُ على مستوى كتابة المصطلح أيضاً أن يكون مترابطاً في المفردتين (ذات + غير) وكأنهما كلمة واحدة (ذاتغيرية) وصفاً لسيرة، فصارت (سيرة ذاتغيرية)، وحين ناقشني فيها بعض الزملاء ممن تابعوا المشروع، واهتموا به مقترحين فصل الكلمتين أو أن تكون (غيرية ذاتية) أو (ذاتية وغيرية) أو غيرهما من المقترحات، ولكني أوضحتُ لهم القصد بأنَّ هدفي هو الربط بينهما من خلال رؤية الغير في مرايا الذات، وحضور الذات في عالم الغير، والتعبير عن (الذات والغير) بامتزاج لا يعني تجاهل أحدهما أو طغيانه على الآخر إلا بقدر بيان أثر الأستاذ في الطالب، وتوضيح أثره -أيضاً- في الميدان المعرفي والعلمي الذي يشكّل مشروع الأستاذ،

وخلاصة تجاربه وأعماله بقدر المستطاع في البيان من زاوية نظر الطالب المتابع، والقارئ المهتم.

ومن هنا جاءت عبارة (تعلمتُ من أستاذي) بوصفها "التيمة" الحاضرة، أو (الموتيف) المستمر والمتكرر في جميع المقالات التي شكَّلت هذا (المشروع/الكتاب)، وفي الوقت ذاته فإنَّ هذا المصطلح، وإن لم يكن شائعاً من قبل - بحسب معرفتي وعلمي - ولا أظنني أخذته عن أحد، أو قرأته في كتاب، فقد حاولت صكّه، واجترأته ابتداءً حتى يكون مبتدأ خبره هذه المقالات متفرقةً (في المجلة)، ثم مجموعةً (في هذا الكتاب)، وبوصفه مشروعاً سيرياً في هذا الفنّ من أدب السيرة الذاتية، الذي أصبح حاضراً على مستوى السرد الحديث، وتنويعاته الكثيرة والمختلفة، وليكن من تنويعاته التي تأخذ من السرد روحه، ومن المقال جسده، أو بعبارة أخرى، هو سرْدٌ على طريقة الرسائل الأدبية التي كان قد اختطّها أدباءُ العرب القُدامى، ومارسها روادُ الأدب المعاصرين أو قريبةٌ منها، لعلنا بذلك نتشبه بالكرام؛ حيثُ التَّشَبُّه بالكرام فلاحُ.

ثم اتخذتُ لها من البداية هذا العنوان (من هؤلاء تعلمتُ) مع وجود بدائل متعاقبة به مثل: تعلمتُ من هؤلاء، وهؤلاء علموني، وهؤلاء تعلمتُ منهم... وغيرها، إلا أنني فضلتُ استخدام التقديم للجار والمجرور للاهتمام به، وتخصيصه بالتقديم للحصر والقصر كما يراه علماء البلاغة، ويؤكِّدون عليه في دلالة المعنى.

ثم وَضَعْتُ له هذا الـ(هاشاق) -بلغة التقنية المعاصرة- أو الوَسْمَ الخاص به، وهو العنوان الرئيس: (#من_هؤلاء_تعلمت) والآخر العنوان الفرعي: (#سيرة_ذاتغيرية)، ليسهل على القارئ أو الباحث الوصول إليه عبر صفحات الفيسبوك، ويسهل جمع تلك المقالات بعضها إلى بعض لمن يرغب في الاطلاع عليها مجتمعة بعد ذلك، هذا فضلاً عن نشرها نشرًا إلكترونيًا على مدونتي الشخصية مصحوبة بالكثير من الصور للأساتذة، والكتب، واللقاءات، وغيرها، مما تُعزِّز فيه الصورة من ذلك الحضور، وتوضِّح المعنى ما أمكن إلى ذلك سبيلًا.

وأرجو أن أكون قد وفَّقت في هذا المشروع، أو حسبي الاجتهاد في المحاولة، وتكريس المصطلح، وإن لم أوفق في جعله مصطلحًا شائعًا الآن، فلعلَّه يتحقق ولو بعد حين، وربما يكون في المستقبل مصطلحًا شائعًا، يشير إليه الباحثون، ويستخدمه الدارسون، وهذه المحاولة تمضي وفق مبدأ (على المرء أن يسعى إلى الخير جهده...)، وليكن لي فيه فضلُ سبق إلى إنشائه، وإعلانه، وتكريسه من خلال هذا المشروع.

وقد يقول قائل: لمَ كلُّ هذا التكلُّف في الاهتمام بمصطلح (سيرة ذاتغيرية)، والحديث عنه، وعرضه هنا؟

فأقول: إن المصطلحَ مفتاحَ المشروع وهدفه من ناحية، وهو يقربُ الفكرة، ويحوط الدلالة، ويسيجها بسياج علمي من ناحية أخرى، فيضعها

في مجالها المعرفي، ويختصر الكثير من القضايا في هذا المصطلح المقصود، وذلك شأن المصطلحات عموماً.

يحتوي هذا الكتاب على عدد: أربعة وعشرين أستاذاً وعَلَمًا وعَالَمًا من أعلام الأدب والنقد واللغة والفكر، من أساتذة الجامعات في اليمن، والوطن العربي الذين أقدمُ شهادتي المتواضعة عنهم، وأقدمُ علاقتي العلمية المباشرة بهم؛ دون تكلف أو مبالغة، ودون إغفال لمنجزهم أو تجاوز لأهمِّ ما يميّز جهودهم العلمية من الكتب والبحوث والدراسات، والمناصب الإدارية، والقضايا العلمية، والمواقف الإنسانية، والمكانة الاجتماعية والمعرفية في أوطانهم وخارجها، وفي مسيرتهم العلمية، وسيرتهم الذاتية، وقد وقفتُ على ما رأيتهُ منهم بوصفي شاهدَ عيانٍ، يرصد بعين الطالب المحبِّ، وروح المرید التابع، وأفق المستفيد المهتم كما سبقت الإشارة.

وختمتُ كُلَّ مقالٍ بما أسميتهُ (فصل الخطاب)، وهو مقتطف من حديث الأستاذ نفسه، أو من عباراته أو من شعره المأخوذ من أحد كتبه أو أبحاثه أو مقابلاته الصحفية أو غيرها. ووضعتُ في نهاية كل مقال (تحيةً) صُغْتُها شعراً لأضع فيها رسالة الأستاذ، أو أبرز ما يميّزه، أو يضيء بعضاً من ملامح شخصيته، وجهده في قالب شعري، لعلّها تحمل المشاعر نحوه، وتلخّص الغاية من الخطاب.

وقد حرصتُ في شهادتي هذه على أن تكون شهادةً صادقةً، رأيْتُ من واجبي أن أقولها، ومن الوفاء لأساتذتي أن أكتبها، بما يليق بمقامهم،

وبأسمائهم الكبيرة ذات المكانة والتقدير، لأني أرى أَنَّ من أعظم البرِّ أنْ نَبَرَّ
أساتذتنا، ومن الحقِّ لهم علينا أنْ نحَقِّقَ ذكْرهم، ونرفع قدرهم في كل وقت
وحين، فلا يشكرُ الله من لا يشكرُ النَّاسَ، فما بالكم إذا كان هؤلاء النَّاسَ
ليسوا أيَّ أناس، بل ليسوا كالنَّاسِ العاديين، ممن قد يمرُّ بحياتنا مرورًا عابرًا،
إذ الأستاذُ قيمةٌ غاليةٌ، وقامةٌ عاليةٌ، وخلقٌ رفيعٌ، وقدرٌ بديعٌ؛ بل هو جزءٌ
من تكويننا، فإذا كان للأب فضل الإنجاب والتربية الأولى، فإنَّ للأستاذ
فضل التهذيب والتعليم والتربية الأخرى، جاء في كتابِ محاضرات الأدباء
للراغب الأصفهاني: "قيل للإسكندر: إنك تعظُمُ معلِّمَكَ أكثر من تعظيمك
لأبيك. فقال: لأنَّ أبي سبَّبَ حياتي الفانية، ومؤدِّي سبَّبَ الحياةَ الباقية".
وقيل: "لا يستخف أحدٌ بمن تعلَّم منه علمًا إلا وضيعَ خاملٌ أو
رفيعٌ جاهلٌ".

والأستاذُ صانعُ العقولِ وفتاحها، وهو من يمدُّها بأهمَّ غذاءٍ، وبأجلِّ
أثرٍ، وأنفع ثراء.

وكما يقول شوقي:

أرأيتَ أفضلَ أو أجلَّ من الذي ... يَبني وَيُنشئُ أنفُسًا وعُقولا
وأقول:

إنَّ المعلِّمَ ليسَ شخصًا عابرًا ... في عيشِنَا حتى يُقالَ له: لمه؟
هو روحنا هو بيننا مُتجدِّدٌ ... نَفْسٌ بِآلافِ التُّفوسِ مُقسَّمة

وهذا شيء بسيط من الذكر الحسن، والكلمة الطيبة، وردّ الجميل - الذي لا يمكن رده تماماً- ولكنّه -على الأقل- طرف من الذكرى، وبعض من قول: (شكراً لكم) أو (جزاكم الله خيراً). فالذكرى لأساتذتنا نوع من البر؛ لأنّك على قدر ما تُعطي ستأخذ، وكما تدين تُدان:

(#برؤا أساتذتكم يبرّكم طلابكم). فالأمر محسوم، والقصد معلوم، والجزء من جنس العمل، وتلك سنة من سنن الكون، وقاعدة من قواعد الحياة التي لا يمكن الاختلاف عليها بأيّ حال من الأحوال.

وقد وجدت هذه الحلقات خلال نشرها الكثير من ردود الأفعال الطيبة، والأقوال الكريمة من زملاء، وأصدقاء، ومن أساتذة أجلاء، ومن قراء، ومتابعين أعزاء؛ مما كان يزيدني إصراراً على المواصلة، والمثابرة على تقديم المفيد والنافع، وعدم الوقوع في التكرار أو الاجترار، أو ما قد يحسّ معه القارئ بالملل أو بأنّه صار يعرف ما سأقوله قبل أن أقوله، وتلك لعمرى آفة من آفات الكتابة.

ولعلّ من أفضل ردود الفعل التي تلقيتها بعد نشر المقالات في المجلة، وكذلك على مدونتي الشخصية، وعلى صفحتي في الفيسبوك، أو على وسائل التواصل الاجتماعي الأخرى مثل تويتر، والواتساب، -وسأعرض لبعضها في ختام هذا الكتاب- وذلك لكمال الفائدة، ولبیان الأثر أو ما يسميه علماء التربية والنفس بـ(التغذية الراجعة) من ردود فعل القراء وأقوالهم مشكورين مقدّرين، وكلّ بمكانته العالية، ومقامه المحفوظ.

أقول لعلّ من أفضلها - وكلها فاضله - هي ردود فعل أساتذتي - أمدّ الله في أعمارهم، ونفع بهم، وبعلمهم، وبحياتهم، ورحمَ الله من غادرنا منهم، وغفر لهم أجمعين - حيثُ تلقيتُ كلماتهم الدافعة المشجّعة، وعباراتهم الودودة الغامرة، بكلّ اعتزاز ومحبة.

ويا لهم من عظماء! تعلمتُ منهم الفضل والخير، والدوق، والصدق، والجمال كما تعلمتُ منهم - من قبلُ ومن بعدُ - العلمَ والمعرفةَ والدّرسَ، ومن كُتِبَ مُعلّقاً أو مراسلاً على الخاص، بل وإنّ البعض منهم قد اتصل بي هاتفياً، وهم أساتذتي العظماء: د. كمال أبو ديب، د. خيرى دومة، د. عبد الله المقالح، د. السيّد إبراهيم محمد، د. عبد الله البار، د. عبد الوهاب راوح، د. أحمد علي مرسي. ومما قاله الدكتور أحمد علي مرسي - حفظه الله - فأبكاني برسالته الصوتية عبر (الماسنجر)، حين وصله المقال، فأرسل إليّ رسالةً بليغة الأثر عظمة القدر، وهو في أحد المشافي في (إسبانيا) يتلقى العلاج من مرض السرطان - شفاه الله وعافاه - فقال: "أنا دمّعت، وأنا أقرأ ما كتبته، والشكر يا ابني لا يوفيك حقك يا أصيل! أشكرك على وفائك، وليس هذا تواضعاً، فأنا لا أستحقّ كلّ هذا الذي كتبته عني، ولكنك كتبتَ بعين المحبّ... وأنا أتعالج من مرض السرطان، ولكني بحمد الله بخير، وقد أخذتُ خمسَ جرعات، والروح المعنوية مهمة جداً لمقاومة هذا المرض وتقوية المناعة، وهذا الذي كتبته - يا إبراهيم - يساوي لديّ طناً من العلاج لتقوية المناعة، فقد أثرت فيّ، وهي دافعٌ للحياة التي تستحق أن نعيشها لأنّ فيها

أوفياء من أمثالك، وبأن عُمر الأستاذ لم يذهب هدرًا... الخ رسالته المؤثرة الصادقة، هذه العبارة جعلتني أبكي أنا أيضًا، وأشكرُ الله أن ألهمني أن أقدم لأساتذتي في حياتهم ما يستحقون من الشكر والذكر، وما فعلتُ شيئًا يُذكر سوى أني شَهِدْتُ بما عَلِمْتُ، وكتبتُ شهادتي عنهم بصدقٍ، ومحبةٍ، ووفاءٍ، وذلك جهدُ المقلِّ، وحيلةُ المقصّر، ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾.

وختامًا أرجو أن تكون هذه الشَّهادات قد بَلَغَتْ غَايَتَهَا، وأدَّت رسالتها، وما أحوج الأستاذ إلى كلمةٍ شُكرٍ من طلابه في حياته، وإلى تكريم يسمعه بأذنيه، ويراه بعينه أو يشعر به فيلمسه ويعيشه بنفسه، وإن كان الأستاذ -أيُّ أستاذٍ- لا يريد منَّا جزاءً ولا شكورًا، فاللهُ يجزيه، ويثيبه، ويرضيه، ويتولاه بفضلِه، ويغنيه. ولكن لم؟ لا؟ لم لا نتلمس هذه الجوانب الإنسانية، ونخرج قليلًا عن ذواتنا، وعن تقصيرنا وانشغالنا بالحياة وبما فيها، بل وأحيانًا نقصّر حتى في ذِكْرِهِم أو تَذَكُّرِهِم بدعوة صادقة في ظهر الغيب أو في صلواتنا وأدكارنا. وتلك سنةٌ متَّبَعَةٌ توارثناها عن نبيِّنا المعلّم الأكرم، والنموذج الأعظم ﷺ، وقد سمعناها من آبائنا ومشايخنا، وهم يدعون لمن علّمهم الدينَ والقرآنَ العظيمَ، وكانوا يجعلونها ورْدًا في صلواتهم، وركنًا في دعواتهم.

فرحَمَ اللهُ الجميع، وجعلنا بهم مقتدين، وبسنتهم لاحقين، ونفعنا
الله وإياكم بما عَلِمْنَا، وغَفَرَ لَنَا ما جَهِلْنَا، وتجاوزَ عَنَّا فيما قَصَّرْنَا! إنه وليُّ
ذلك والقادرُ عليه، والحمدُ لله أولاً وآخراً.

د. إبراهيم أبو طالب
24 ربيع الآخر 1442هـ
9 من ديسمبر 2020م





(1) الأستاذ الدكتور عبد العزيز المقالح
(شاعرٌ بامتدادِ الجمال، وأديبٌ بحجمِ الوطن)

كان التَّلمذُ على يديه بالنسبة إليَّ حُلماً انتظرته حتَّى تحقَّق في مقررين اثنين، هما: "الأدب الشعبي"، و"الأدب الحديث"، وكان حضوره إلى قاعة الدرس في بداية كلِّ مقرر مع أداء عدد من محاضراته أمراً نتطلَّعُ إليه نحن طلاب كليتي التربية والآداب.

وكانت محاضراته موجزة مركَّزة يُملِيها علينا في القاعة إملاءً، ثمَّ يحيلُ إلى مراجع للقراءة والاستزادة، وما تزال تلك المحاضرات في دفتري الذي أحتفظ به من سنوات الدراسة الجامعية.

كان أسلوبه مميزاً يقوم على تركيز محاضراته في موضوعات محدَّدة ضمن مفردات المقرر؛ كل محاضرة تعالج موضوعاً واحداً دون تشتيت، ولذلك كان يعطينا ملخصاً عن إحدى السِّير الشعبية مثلاً في المحاضرة، ثمَّ يحثنا على القراءة حولها، وبفضل توجيهاته رجعنا إلى المكتبة المركزية ومكتبة كلية الآداب للاطلاع على سيرة الأميرة ذات الهمة بمجلداتها الكبيرة وسيرة سيف بن ذي يزن، والوزير سالم، والسيرة الهلالية وغيرها من السِّير، ومن كتب الأدب الشعبي، ومثلها في المقرر الآخر من خلال موضوعات الأدب الحديث وقضاياها، وبالنسبة لدفعتنا كان يكملُ بعض محاضراته عند انشغاله الدكتور علي جعفر العلق.

كان ذلك بالنسبة لي ممتعاً، وفيه الكثير من اللذة في القراءة أولاً، ثمَّ في الاطلاع مباشرة على الكتب والإمساك بها، وشمُّها والتعرف عليها تعرفاً ملموساً، ولإشباع نهم الاستزادة المعرفية من ناحية، ولكي أثبتَ لأستاذي

المثقف الكبير، وشاعر اليمن القدير أنني قادرٌ على تلبية طلبه، ومحَبٌّ لما دَلَّنَا عليه، ومتابعٌ لما يفتح آفاق التَّميِّز من قراءات جيدة، وتكوين حصيلة لا بأس بها عند الإجابة في نهاية الفصل من ناحية أخرى.

كنتُ حريصًا على زيارة مجلسه (مقيل المقالح) كل يوم أحد في مركز الدراسات والبحوث اليمني، ذلك المركز الذي يزوره فيه المثقفون والأكاديميون والأدباء على اختلاف مشاربهم وجنسياتهم، ويمثِّل منتدى ثقافيًّا مكتملًا.

وكان عنوانًا لمن أراد أن يلتقي بالدكتور المقالح أو يجلس إليه من زوَّار اليمن أو من أبنائها، كما كان له مجلس آخر كل ثلاثاء يُعقد في منزله لم نكن نجرؤ على الذهاب إليه، ونحن طلاب على الرغم من توقنا إلى ذلك كونه يضمُّ الخاصَّة من جلسائه ومن أساتذة الجامعات حتى تحقِّق لي ذلك بعد حين، عندما أصبحتُ أكثرَ قربًا من أستاذي وإحساسًا بأنَّه ربما يحقُّ لي الحضور والزيارة والجلوس في ديوانه العامر يوم الثلاثاء، وما كان ممنوعًا عني حضوره قبل ذلك، وأتَّى للمقالح بأخلاقه أن يمنع زائرًا، ولكن مهابته رغم تواضعه الجَمِّ واسمه الكبير هي من كان يحول نفسيًّا دونَ ذلك، وما عُرِفَ عنه من أخلاق عالية في الاستماع إلى الناس والجلوس إلى الأدباء، والباحثين، ورجال الثقافة والسياسة، واستيعاب كل المواهب من الشباب والطاقات الإبداعية من مختلف أبناء اليمن، ومن غيرهم والمتابعة والرعاية لكل جديد ومتميز.

كان كل ذلك يزيدني حُبًّا وإجلالا ومهابة:

(يغضى حياءً ويغضى من مهابته ... فما يكلم إلا حين يبتسم)

ظلّ أستاذي المقالِحُ حاضراً معي؛ كما هو حاضرٌ مع كلِّ يمني كونه
رمزاً معرفياً وشاعراً كبيراً له حضوره العربي، نَشَرُفُ بالحديث عنه،
وتقديم أنفسنا باعتبارنا طلابه، ومحبيه ومقرّبين منه، ومتحدثين عنه في
كلِّ محفلٍ أو مناسبة.

وظلّ أستاذي حاضراً في روحي، كلّما نجحتُ أحسستُ أنّي ألبّي
رغبة عميقة في تحدّد مع النَّفس أثبتُّ له ولها بأنّي جديرٌ بالتلمذِ عليك؛
أيها المعلّم الكبير، وكلّما ألفتُ كتاباً نقديّاً أو شعريّاً أهديته إياه إلى مكتبته
العامة ليتابع نشاطي، ويرى طالبه المُحبَّ ينمو، وهو بروحه الحانية وأبوته
الموجّهة يشجعني كما يشجّع كلّ الشباب والكتّاب والمثقفين ويتابعهم
كعاداته، إنه عنوانٌ مفتوح لكلِّ الناس، فهذا مكتبته - ومن قبله قلبه الطيب
الهادئ - صار مزاراً لكلِّ مثقفٍ يمينياً كان أم عريباً في شموخ الشمس
وتواضع الأرض، يهرعُ الجميع إلى ضوئه، ويتلمسون دفء محبته وسحر
جاذبيته، و"كاريزما" شخصيته.

نزوره كما تنبغي الزيارة لمثله؛ حيثُ تحوّل مكتبته ومنزله (مجلس
الثلاثاء) بالنسبة لي إلى طقس أسبوعي لا بدّ منه، وبخاصّة بعد رجوعي من
القاهرة بين عامي 2009-2013م، وكنتُ إذا غبتُ عنه لظرفٍ ما من سفر

أو انشغال سرعان ما أعاد الزيارة والاستزادة من ضوء ألقه، وروعة مجلسه المقالجي المميز.

لأستاذنا طريقة في فتح آفاق المعرفة لجلاسه من الأدباء والشُعراء الشباب حيث تجري على الجميع فرصة الإلقاء لما لديهم من قصائد أو نصوص سرديّة، كلّ بحسب جديده، ورغبته في الإلقاء، ويمرّ عليهم الدور في الإلقاء أو الحديث والمشاركة بما لديهم أو الاكتفاء بالاستماع والجلوس، وهو يستمع إلى الجميع بكلّ إنصات وتشجيع واهتمام، ثم ربما تدار في المجلس قضية يتحدث عنها الجميع أو قد يقرأ من كتاب أو يشير إلى ديوان لشاعر أو رواية أو مجموعة قصصية جديدة، أو مقال أدبي في مجلة عربية أو محلية، وقد تحوّل المجلس في منتصف عقد التسعينيات من القرن الماضي - وبخاصة مقيم يوم الأحد في مركز البحوث - إلى (مسرح للمقيم)، وهي فكرة تجريبية متميزة كان قد أتى بها، وجربها الأديب المسرحي العراقي "كريم جثير"، هدفها أن يقدم نصّاً مسرحياً تمثيلاً في مجلس المقيم عند المقالج، وأمام الجالسين والحاضرين لديه بما يمثل فكرة ذات مغازٍ كثيرة ضمن تجربة "جثير" المنفردة في ولّعه بالمسرح، وبمسرح الغرفة تحديداً، وباقتحام المقيم ذي الخصوصية السيسولوجية والثقافية اليمينية الخاصّة، ولعلّ من أهم أهداف تلك التجربة أنها تقدّم رسالة للاهتمام بالمسرح لعزوف اليمينيين - وبخاصّة النخبة - عن الذهاب إلى المسرح بسبب مجلس القات وما يأخذه من وقتهم، وما قد يحدث فيه من مظاهر مسرحية ربما تُغني عن

المسرح من خلال طبيعة المجلس اليميني الذي يكون أوله للنكتة والدعابة، ونشوة اللقاء والحديث، وأوسطه للسياسة والقضايا العامة، وآخره للتأمل والصمت، فكانت الفكرة لدى المسرحي العراقي "كريم جثير" - وبتشجيع من الدكتور المقالح - أنه لِمَ لا يأتي المسرح إلى المجلس، بل لم لا يغزوه، ويحوّل المقيّل إلى مسرح بإمكانات ديكورية بسيطة ومتاحة في المجلس نفسه؟، فكانت تجربة ناجحة - إلى حدّ ما - مارسها، وطبّقها لأكثر من أسبوع بنصوص إبداعية مسرحية مع طلاب من ثانوية الكويت؛ حيث كان يُدرّس فيها الأستاذ كريم جثير رحمه الله.

تُجّبي إلى المقالح ثمار المطابع العربية، وتأتيه من أصحابها الكتب والدراسات والإبداعات، وهو يشارك جلساءه الحديث فيها أو عنها، ويطلعهم على الجديد الذي وصله أو عن الاحتفاء والاحتفال الذي يريد أن يقيمه في الجامعة أو في مركز الدراسات والبحوث اليميني الذي يمثّل المقالح، والمقالح فيه هو صوت الثقافة اليمينية، وعنوانها، وانعكاس مراهاها.

ويمرّ الزمان وفي مناسبة الاحتفال بيوم اللغة العربية أقمنا ندوات في مركز الدراسات والبحوث بإشراف أستاذنا وحضوره ورعايته، كان يدعمنا بذلك التشجيع والحضور، ومن قسم اللغة العربية بكلية التربية - أرحب الذي كنت رئيساً له من العام 2009 حتى 2013م أقمنا أكثر من ندوة بالمناسبة الاحتفائية، وفي أحدها كرّم القسم الأستاذ المقالح بلقب

اللسان العربي الفصيح للعام 2012م، فكان -وهو الغني عن تكريرنا له- قمةً في التواضع والخلق الرفيع.

ذلك هو المقالح الذي عرفه الأدب والشعر عبر المنابر العربية والعالمية، يدهشك بسمو همته الإبداعية، وعلو قامته الأدبية، وتواضعه الجم، إنه إنسان بمعنى الكلمة، كلما زاد ارتفاعاً زاد تواضعاً وجلالاً.

تعلمت منه -كما تعلم غيري- الجدّة في العمل، والمثابرة على الكتابة، وتقديم مشروعه ورعايته، بل وإدارته لموهبته وإبداعه بنفسه والإخلاص لذلك الإبداع والإنتاج، فهو حاضر في كل المناسبات، وإن لم يسافر إليها، ولم يغادر محبوبته صنعاء التي اتخذها محرّاباً وبيتاً كبيراً، فيها يؤتى الحكم، ومنازةً منها يُرسل إشعاع النور والمعرفة والإبداع والنقد إلى كل مكان دون أن يغادرها أو تغادره.

تعلمت منه كيف يكون الإخلاص للفن الذي يؤمن به، والمثابرة على تقديمه دون كلل أو ملل، ورعايته دون تفريط أو تقصير.

قدّمني في ديواني الأول (ملهمتي والحروف الأولى)، 1999م، فكان ذلك التقديم مدعاة اعتزاز ومسؤولية بالنسبة لتجربتي الشعرية الناشئة، وحين كتبت ديواني الخامس (حين يهب نسيمها) 2012م، وكان احتفال توقيعيه في مركز الدراسات والبحوث اليمني برعايته وحضوره قرأه قراءة متابع لتجربتي مُهتم بتطوّرها.

ذلك هو الدكتور عبد العزيز المقالح الكبير أثرًا وتأثيرًا في مَنْ حوله الذي يَنيِّرُ كالشمس، ويعطي ضوءه للجميع، فيحسُّ كلُّ شخصٍ بأنَّه مقربٌ منه، وأنه يَخْصُه باهتمامه ورعايته الخاصَّة دون غيره، وما أكثر محبيه، إنَّهم العدد الذي لا ينتهي، ولكنَّه يتجدَّد ويتكاثر مع كلِّ الأجيال والتجارب الوليدة، وحين يكون الأستاذُ بهذه الروح والأريحية، وبذلك العطاء المستمر لا بدَّ أن يكون متجدِّدًا كبيرًا، وعلى طلابه ألا تَقْصُرَ همُّهم أو تتقاعسَ أرواحهم عن اللحاق بقبسٍ من ضوئه، بل عليهم ألا يَحْيَبُوا ظَنَّهُ فيهم حتى وإن لم يُراهن عليهم في الظاهر المباشر، لكنَّهم هم من يراهنون عليه وعلى أنفسهم المبدعة لتحلِّق في مداره، وتتجاوز العاديَّ المألوف إلى المختلف المميز في الكائن والممكن على المستوى الإبداعي، فتحاوِّره، أو تخاطبه، أو تقاومه أحيانًا إن استطاعت إلى ذلك سبيلًا، وهو ما يريده لها في وعيه التجديدي وفي أحداثه المتجددة، تلك رسالة المقالح، وذلك حضوره كظاهرةٍ ربما لن تتكرر، فهو نسيجٌ وحده، وناسجٌ حادثة وتحديث متفرِّد.

تعلمتُ من أستاذي المقالح كيف تكون أستاذًا جامعياً بيدك مقاليد الإدارة والوظيفة، ولكن لا تنسَ موهبتك الخاصَّة، وأبحاثك، وإبداعك الذي هو مشروعك الثابت في مقابل المتحوِّل الزائل مما دونه. تعلمتُ منه أن الديمومة، والمثابرة، وعدم التوقُّف عن فعلِ الكتابة بكلِّ فنونها هو السبيلُ إلى الحضورِ الإبداعي، والاتساع المعرفي.

سأله أحد الصحفيين - ذات مرة، وقد نُشِرَ اللقاء في مجلة دبي الثقافية - كيف تجد وقتًا لكلّ تلك الكتابات في الصحف والمجلات المحلية والعربية؟، وفي متابعة الجديد من الكتابات شعرًا وسردًا وأدبًا وتاريخًا وثقافة، بل وتقدّم لمعظمها مقدمات خاصّة، أو تلحقها بقراءات نقدية، وكلّ من يقصدك منهم لا تردّه، إضافة إلى كتبك النقدية والإبداعية المتنوعة؟!، فأجابه: بأن ما بين الساعة الخامسة فجرًا حتى التاسعة صباحًا هي ساعات كتابة يومية، وعادة مستمرة، يملأُ بها كلّ ذلك البهاء، وما بقي من يومه يستثمره لما بقي من الأعمال والأدوار المختلفة في حياته.

لأستاذنا المقالح أكثر من أربعين إصدارًا منها خمسة عشر ديواناً

شعرياً هي:

- لا بد من صنعاء 1971م
- مأرب يتكلم بالاشتراك مع السفير عبده عثمان 1972م
- رسالة إلى سيف بن ذي يزن 1973م
- هوامش يمانية على تغريبة ابن زريق البغدادي 1974م
- عودة وضاح اليمن 1976م
- الكتابة بسيف الشاعر علي بن الفضل 1978م
- الخروج من دوائر الساعة السليمانية 1981م
- أوراق الجسد العائد من الموت 1986م
- أبجدية الروح 1998م

- كتاب صنعاء 1999م
- كتاب القرية 2000م
- كتاب الأصدقاء 2002م
- كتاب بلقيس وقصائد لمياه الأحزان 2004م
- كتاب المدن 2005م.
- كتاب الأم 2009م.

تمثّل جميعها تجربته الشعرية الكبيرة، وحضوره الإبداعي الحدائي المختلف. كما أن له أكثر من خمسة وعشرين مؤلفاً أدبياً ونقدياً، هي: (الأبعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر في اليمن، وشعر العامية في اليمن، وقراءة في أدب اليمن المعاصر، والشعر بين الرؤيا والتشكيل، وأصوات من الزمن الجديد، ومن البيت إلى القصيدة، وقراءة في فكر الزيدية والمعتزلة، وأزمة القصيدة الجديدة، وعلي أحمد باكثير، ويوميات يمنية في الأدب والفن، وشعراء من اليمن، وقراءات في الأدب والفن، والبداية الجنوبية، وقراءة في كتابات الشعراء اليمنيين الشبان، وثرثرات في شتاء الأدب العربي، والخورش الشهيد المري، والزييري ضمير اليمن الثقافي والوطني، وأزمة القصيدة العربية، وعمالقة عند مطلع القرن، وأوليات النقد الأدبي في اليمن (39- 1984)، ومن أغوار الخفاء إلى مشارف التجلي، وصدمة الحجارة "دراسة في قصيدة الانتفاضة"، وزيد الموشكي،

والوجه الضائع "دراسات عن الأدب والطفل العربي"، وتلاقى الأطراف "قراءة أولى في نماذج من أدب المغرب الكبير"، وعبد الناصر واليمن)، وغيرها. وهي تمثل وجوده النقدي ومشاركته على مستوى النقد العربي في حرصه على تقديم المحلّ الإبداعي، والأدبي، والفكري إضافة إلى امتداده إلى القضايا العربية، وعوالم الإبداع العربي الكبير.

تعلمتُ منه الثبات على المبدأ حين يتحوّل الكثيرون أو يضطرب مسعاهم لكنه استطاع أن يجمع بين الشعبي والرسمي -وهذا من النادر فعلة-، كما استطاع المحافظة على ثباته في عصف الرياح، وتقلبات السياسة، واضطراب الموج باعتدالٍ عجيبٍ لا تلمسُ منه سوى اليمن، ولا تعرفُ فيه سوى الوطن بكلّ جماله وجلاله، الكلُّ يحلُّه ويقدره، كأرض اليمن المتجدّد مأوها، وكجبالها المترسّخ الثابت سموها، وكنسيمها العليل المتولّد عطاؤه من روح مبدعة، ونفيس يمنية أصيلة توّاقة إلى التميّز، والخير، والجمال.

* (فصلُ الخطاب) *

"الصَّمْتُ عَار
الْخَوْفُ عَار
من نحنُ

عشّاق النهار

نحيا

نحب

نخاصم الأشباح

نحيا في انتظار

سنظل نحفر في الجدار

إمّا فتحنّا ثغرة للنور

أو متنا على وجه الجدار..."

@ عبد العزيز المقالح.

تحيّة

(هو الضوء نور المحبة عنوانه

وماء الصداقات

عين التواضع

معزوفة الأمنيات

كبير مضي في طريق الكبار

وفي عاليات البهاء

(المقالحُ)

عنوانُ شعريٍّ، ونثرٍ، ونقدٍ، وحُبِّ

وصوتُ الحداثةِ

في كلِّ عاصمةٍ اسمهُ

وفي كلِّ يومٍ ترى صوتَهُ في الدُّروبِ

ترى رسمَهُ

تتابعُهُ أنفُسٌ ضمَّها بالحنانِ

وأفسَحَ مجلسَهُ للقاءِ

تواضعُهُ قِمَّةً في العلوِّ

وفي كلِّ قلبٍ له فسحةٌ

من سموِّ

وعنوانه واضح..

ليس مثلُ المقالحِ إلا المقالحُ

ليس يشبههُ غيرهٌ...).





(2) البروفيسور كمال أبو ديب

(أستاذ الخفاء والتَّجَلِّي)

يدخل إلى القاعة التدريسية في الفصل الدراسي الأول من العام الجامعي (1989/ 1990)، أستاذاً مهيب ذو سحنة بيضاء شاميّة، له شعرٌ كثيفٌ يمشطه إلى الأعلى شابهُ البياض، وخالطه الوقار، يقفُ وسط صفوفٍ مزدحمة من الطلبة يبلغ عددهم أكثر من (مائتي) طالبٍ وطالبة في قاعة كبيرة تستوعبُ طلابَ قسم اللغة العربية الجُدد من كليتي الآداب والتربية معاً، وبخاصّة في مواد التخصص الأكاديمي في الأدب والنقد وغيرهما، يدرسون معه مقرر (الأدب الجاهلي)، وتنطلقُ أولى كلماته بطريقة جديدة، ومصطلحات مختلفة لم يألّفها مستواهم من قبل، يخبرهم بأنّ ما درسوه في تعليمهم الأساسي والثانوي من دراسة الأدب كان خطأ لا يمكن أن يستمروا عليه في دراستهم الجامعية، فمناسبة القصيدة، ومن القائل؟، ومتى قيلت؟، ومعاني المفردات، والمعنى الإجمالي للبيت، وغيرها في نظره طريقة دَمَرَتْ ذائِقَةَ التَّعليم، وبَلَدَتْ المُتعلِّم في تعامله مع التَّصوُّص الأدبية.

وشيّئاً فشيئاً يعرض لهم طريقته الجديدة، وأسلوبه المختلف في تعليمهم للأدب الجاهلي، ومعلقاته، وقراءة نصوصه من خلال كتابٍ ضخّم سيرشدهم إليه، فيهرعون لتصويره -لأنه غير متاح للشراء حينها- إنه كتاب (الرؤى المقنّعة؛ نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي، 1986، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب)، وبعرض الأستاذ المدهش، وشرحه المتميز بصوته الذي له بَحَّةٌ خاصّة، يمضي في شرح منهجه بقصائد جاهلية

نسمعُها، ونتعامل معها لأول مرة، فلا نكادُ نفهمُ لغتها الفصحى الحوشية الغريبة، فضلاً عن شرحها بمنهج البنيوي.

يمضي أستاذنا بلغةٍ عالية وجديدة تماماً برموزها، ومفرداتها التي لا نكادُ نفكُّ طلاسمها ومستواها المتعالي بالنسبة لمن هم في مستوانا؛ حيثُ بدت لنا أشبه بالرموز، والألغاز، مضى يقرأ النصوص بطريقة نطقه المستحبة يصاحبها نطقٌ خاصٌ لحرف الراء الذي يبدو بين الخفاء والتجلي، وهو يروي قضية الموت والحياة، وثنائية البقاء والفناء في الشعر الجاهلي، وما تزال كلماته وطريقة روايته لهذه الأبيات في ذهني وذاكرتي حتى اليوم، وهو يروي قول دويد بن زيد بن نهد حين حضره الموت:

اليوم يُبنى لدويد بيته
يا رَبَّ نَهَبَ صَالِحَ حَوِيَّتهُ
وَرُبَّ قِرْنٍ بَطَلَ أَرْدِيتهُ
وَرُبَّ غَيْلٍ حَسَنٍ لَوِيَّتهُ
ومعصمٍ مَخْضَبٍ ثَنِيَّتهُ
لو كان للذهر بلى أَلْبِيَّتهُ
أو كان قِرْنِي واحداً كَقِيَّتهُ

....

ثم يبدأ تحليل قصائد المعلقات من خلال الثنائيات الضدية، وربطها بوحدة موضوعية واحدة في تقابلات جزئية مُبيناً طريقة الشاعر الجاهلي في بناء قصيدته ذات الموضوع الواحد من وجهة نظر أستاذنا

الدكتور كمال أبو ديب أستاذ التطبيق المتميز للمنهج النبوي على هذه القصائد الطوال، وليس كما صوّرها لنا النقد الجزئي بأن الشعر الجاهلي هو شعر البيت الواحد الذي لا روابط فيه، فيمضي أستاذنا ليعرّفنا على القصائد والمقطّعات، كما يقف بنا على القصائد الطوال (المعلقات) مبتدئاً بالقصيدة المفتاح-معلقة لبيد، ثم الرؤية الشّبقية - معلقة امرئ القيس، فعينية أبي ذؤيب الهذلي -رعب اليقين، وهذه العناوين الموجزة الدالّة هي ما يميّز تحليل أستاذنا بما يصاحبها من ثنائيات ضدية، وعلامات، ورسوم توضيحية غاية في الدقّة، والتجسيد العلمي للمنهج النبوي، ثم لا أنسى طريقته في الربط بين قضايا العصر الجاهلي، وبين الشعر الذي يحسّدها، ومن أبرزها قضية (الموت والحياة) التي وقف لديها طويلاً وأوقفنا معه؛ لا وقوف أطلال وبكاء فحسب، بل وقوف تأمل في خيال الجاهلي وفكره وحياته اليومية والوجودية، مبيّناً الفكرة الرئيسة لدى الشاعر الجاهلي، وأهم ما كان يؤرّقه، فينعكس ذلك كثيراً في شعره، ألا وهو قضية الوجود؛ لذا كان يربطها في تحليلها بأفقها الإنساني عموماً من خلال حديثه عن الموت - مثلاً - مقسماً إياه إلى استجابات: كالاستجابة السيدورية (يعني بها موقف صاحبة الحانة سيدوري في ملحمة جلجامش)، والاستجابة الدويديّة (التي أشرنا إليها في أبيات دويد الوجودية: "اليوم يبنى لدويد بيته...)، ثم يتحدّث عن (كونيّة التجربة) بأسلوب تحليلي بديع ومدهش، متطرّقاً إلى طواف امرئ القيس من خلال أبياته التي مطلعها:

أَرَانَا مُوَضَّعِينَ لِأَمْرِ غَيْبٍ .. وَنُسَحَّرُ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ
عَصَافِيرَ وَذَبَابَ وَدُودَ .. وَأَجْرًا مِنْ مَجْلَحَةِ الذَّنَابِ

وَيَسْمُهَا بِقَوْلِهِ: (عبثية الفعل، ونعمة الإياب)، ثم يُدرِّسنا معلقة طَرْفَةَ التي يُوجِزُ وصفها بعد شرح أبياتها وتفصيلها بمنهج البنيوي بأنها (السَّهْمُ في لحظة النزع)، وغيرها من الوقفات التي تُجَيِّلُ لدينا الفهمَ لَعَالَمِ الجاهلي من خلال شعره، وتكشفُ قناع الرؤى في الرؤى المقنَّعة، ولَذَّةِ التحليل، ورغبة الاكتشاف.

إنها دروسٌ مختلفةٌ قدَّمها لنا أستاذنا القدير، فيها من إثارة العقول الصَّغيرة القادمة بحُبِّها، واندھاشها من مناهج تاريخية تقليديةٍ مدرسيَّةٍ إلى منهج بنيويٍّ مباشرةً دونَ سابق تمهيد، ومع أهمَّ أساتذة هذا المنهج الكبار على مستوى الوطن العربي، وها هم يقفون بعقولهم وتطلعاتهم دفعةً واحدةً أمام "كمال أبو ديب"، ومع منهجه البنيوي الذي كان شائعاً في الثمانينيات من القرن العشرين في الوطن العربي بعد أن سبقَ حضوره في النقد الغربي في ستينيات القرن ذاته؛ إذاً هي دراسةٌ وفق أحدث المناهج النقدية المعاصرة، وتحليل خطاب النصوص الجاهلية.

كان في الطلابِ من يتَّخذُ من ارتباطه باتحاد طلاب اليمن - كمؤسسة طلابية حين ذاك - ذريعةً تسلُّطيةً، وسلطةً طلابيةً ليقف معترضاً، أو موحِّهاً للطلاب -بزعمه- متلمِّساً من كلام الأستاذ ما يبرهن عن عدم فهمٍ أولاً، ثم يرفض لمجرد الرفض، وتحت شعار مقاومة الحداثة أو

باسم الدين من خلال ما يجوز، وما لا يجوز في غير موضعه أصلاً، وقد يقفُّ أحدُهم مجادلاً بلا علم، لكنَّ الأستاذ يمضي رغم محاولات تعطيل المحاضرات، وإيقاف تداعيات منهجها الذي لم يلتفت إلى تعطيلات أولئك الطلاب البسطاء، والمعدورين في فهمهم القاصر، والموجَّه أحياناً، وتربيتهم المدرسية، وحرصهم على التشبُّث بالمألوف من طرائق التدريس، ووضوح المقرر وتقليديته، لكن الأستاذ المختلف يمضي فاتحاً شارحاً مطبّقاً لمنهجه دون تردُّدٍ، ويريد أن يتفاعل معه في ذلك كلُّ الطلاب، لكن لو أنهم لم يفعلوا جميعاً ما يريد، وفهمه عنه آحادٌ منهم ربما لكفاه.

وتكونُ متابعاته في شرح القصائد الطوال من الأدب الجاهلي بمحمولاتها الدلالية، وبطريقتها التي لن يفكَّ شفرتها، ويحلل روابطها سوى منهجه الذي ارتضاه، وطبَّقه، وراهن عليه في تدريسه؛ إنه المنهج البنيوي كما أشرنا.

يمضي الفصل الدراسي مُدهشاً بكلِّ تفاصيله، فارقاً في تعلُّمنا، جديداً في فتح آفاق معارفنا وعقولنا، وبالنسبة لي كان فيه الكثير من التحدي لإثبات المعرفة، والتمسك بعواملها من خلال جديدٍ لم يؤلف، وطريق في التحليل لم يُعرف، وبما فيه من مصطلحات كثيرة تتداخل بين العربية والأجنبية لم يكن لي بها عهدٌ - ولا لغيري من الزملاء - وأتَّى يكون لنا ذلك؟!

ثم يزداد التحدي، والقراءة، والاستغراق في الاطلاع، ومن خلال العودة إلى المكتبة لفهم كثيرٍ من ألغاز المنهج، وفكّ شفراته، وفهمه مع تلذُّذٍ غريب بهذا الأسلوب الجديد المدهش الصعب المكتنز، ولكلّ جديدٍ لذّةٍ - كما يقال - ولأستاذنا هذا المختلف الذي أدهشني بثقته بنفسه، وبعلو مكانته العربية، واسمه الذي بدا يتضح لي مكاناً ومكانةً شيئاً فشيئاً بعد القراءة، والعودة إلى المكتبة التي كانت النافذة الوحيدة حينئذٍ للمعرفة والاطلاع على كتبه.

ثم تأتي طريقة قياس التحصيل في نهاية الفصل الدراسي لهذا المقرر، فيكون أكثر إدهاشاً وغرابة من طريقة تدريسه، إنها مختلفة تماماً؛ حيث يقفُ صاحبُ المنهج محاولاً اختبار منهجه، وقياسه بمقدار فهمنا له وتطبيقه؛ لا بمقدار ما نحفظ منه أو نستظهر من مصطلحاته ونصوصه، هو لا يريد ذلك الاستظهار، ولا يقيس ذلك الحفظ لدينا، ولا يعنيه، فهو يعرف أننا عهدنا هذا النمط، وهو نمط تقليدي مألوف بامتياز، إنه يريد اختبارنا في طريقة فهمنا، وتطبيقنا لمنهجه، وما فهمناه منه وعنه، ومقدار استيعابنا لخطواته الإجرائية، فطلب منا أن ندخل إلى قاعة الاختبار بكتبنا، ومراجعنا، وملخصاتنا (أوبن تست Open Test) ولأول مرة نعرف هذا المصطلح، وندخل إلى قاعة الاختبار، ونجيب عن سؤالين فقط بطريقة بدت لنا مربكةً ومفاجئةً، كيف سنفعل، وكل شيء أمامنا؟، إنه سؤال قراءة، وتطبيق منهج وفق ما أراد لنا أستاذنا أن نتعلمه، ونتشبع

بطريقته لكي نحلّل نصًّا ما بطريقةً بنويّة، وبين أيدينا الدواوين، والكتاب المنهجي، والمراجع الأخرى، ولكن كيف سنفعل بكل ذلك خلال ساعتين؟، يجب علينا فيها أن نثبت مدى فهمنا، ومهارتنا في تطبيق ما أخذناه عنه، وتحليل نصوصنا وفق ما تعلمناه منه خلال ثلاثة أشهر مضت بكلّ جديدتها المتميز في الدراسة، والمختلفة في المنهج، والأستاذ؟! إننا أمام تحدٍّ حقيقي لإثبات ما فهمناه، وكيف فهمناه؟

وكانت تلك غاية الأستاذ، ومقياس تقويمه لنا، فهل نجح في وضع عقولنا أمام أول خطوات البنيوية وأدواتها المنهجية، وإجراءاتها التطبيقية، وهل فهمنا جزءًا منها؟، ذلك ما كان يعنيه، وهو ما أدركناه فيما بعد حين أكملنا مشوار الحياة العلمية، والبحث الأكاديمي، وعرفنا مقام الأستاذ في خارطة الدّرس النقدي العربي، فحمدنا لجامعتنا، ولمديرها في ذلك الوقت أستاذنا الدكتور عبد العزيز المقالح جهده، وبُعدَ نظره في التّعاقّد، واستقطاب كبار النقاد العرب، والأكاديميين من الأعلام الكبار في الوطن العربي.

وكان "كمال أبو ديب" أحد أولئك الأعلام، وكان لجهوده في غرس بذور السؤال المعرفي، والمنهج العلمي، وعدم الاستسلام للفرضيات الجاهزة والقوالب الثابتة الأثر البالغ في نفوسنا وفي عقولنا المتشكّلة في طريق البحث.

وقد كان ذلك التحدي وإثبات القدرة على فهم المنهج. وبدأت -
ومعي عددٌ من زملائي من غير المتبرّمين من منهجه- بحرص كبير في
التفاعل مع هذا الأستاذ المختلف، وأردت على المستوى الشخصي أن أثبت
أولاً- بفهمي الآتي في تلك المرحلة، واستنتاجي، وقراءتي لكتبه المتاحة في
مكتبة كلية الآداب- أنني تعرّفتُ على رجلٍ غيرٍ عاديٍّ قادمٍ إلينا من جامعة
اليرموك، ويدرس الأدب العربي في جامعات أمريكية؛ حيث عملَ باحثًا
وأستاذًا في جامعات أكسفورد، وبنسلفانيا، وكاليفورنيا (بيركلي)، وكولومبيا
(نيويورك)، وله سيرةٌ علميةٌ زاهرةٌ، وكتبَ كثيرةً حافلةً، اطلعتُ حينها على
عددٍ منها -وفيما بعد اكتملت معرفتي به-: ووقفت على عدد من أهم
إنجازاته المتنوعة التي منها: «نظرية الصورة الشعرية عند الجرجاني»،
و«حيرة من يعرف كل شيء»، و«احتفاء بالاختلاف»، و«الثقافة بين التشظي
والتعدد»، و«مدخل بنيوي للنص القرآني». باللغة الإنجليزية، ومن أشهر
كتبه باللغة العربية «في البنية الإيقاعية للشعر العربي؛ نحو بديل جذري
لعروض الخليل...»، و«جدلية الخفاء والتجلي؛ دراسات بنيوية في الشعر»،
و«الرؤى المقنّعة»، و«في الشّعريّة»، و«البنى المولدة في الشعر الجاهلي»،
و«الأدب العجائبي والعالم الغرائبي»، و«جماليات التجاوز»، و«كتاب الحرية»،
وغيرها.

كما أنّه قد ترجمَ عددًا من الكتب إلى اللغة العربية من أشهرها
كتابه: «الاستشراق»، و«الثقافة والامبريالية» للناقد ادوارد سعيد. وأصدر

عددًا من الكتب الإبداعية بين الرواية، والشعر منها: «سما بلا نجوم»، و«بكائيات من مرثي ارميا»، و«معلقة الأضداد» و«عذابات المتنبى»، وقد ساهم في كتابة عددٍ من الموسوعات العالمية، وتحريرها، ومنها: «الموسوعة الإسلامية»، و«الموسوعة الإيرانية»، و«تاريخ كامبردج للأدب العربي»، و«معجم أوكسفورد الإنجليزي - العربي»، و«موسوعة ذا كوليج»، و«موسوعة الأدب العربي»، وغيرها عبر رحلته العلمية العميقة والثرية.

ومما كان يلفت النظر إليه فيشُدُّنا ونحن طلاب عند التعامل معه تحليله بكلّ صفات الأستاذ الجامعي القدير، والنموذج المكتمل والباحث العلّامة؛ هذا فضلاً عن ثقته بنفسه الثقة الملفتة المدهشة المهيبة، ومكانته وقربه من رئيس الجامعة الدكتور المقالح الذي يُعدُّ رائد التحديث والحداثة في اليمن، والشخصية الثقافية الأولى في الجامعة وفي اليمن بعمومه، وما كلُّ أساتذة الجامعة الآخرين يحظونَ منه بالاهتمام والمكانة نفسها، ومن هنا أدركتُ - حينها - أنّه علَمٌ كبيرٌ في آفاق الدرس النقدي المنهجي الحديث عربياً، وعالمياً.

وثانياً: كان عليّ أن أثبتَ أنني قادر على فهم منهجه، وتحصيله التحصيل المتميز للحصول على تقدير كبير، وبالفعل كان الجهد وتحقّقت الغاية، وكان تقدير (جيد جداً) لدى أستاذ البنيوية ورائدها - بالنسبة لي - يمثلُ فرحةً لا تساويها امتيازات المقررات الأخرى، وما يزال الرقم (128) من (150) في سجلي الأكاديمي؛ موقّعاً بيد البورفيسور كمال أبو ديب

شامةً أعتزُّ بها، على قِلَّةٍ مَنْ أَخَذَ هذا الرقم أو قريباً منه، لأنَّه شهادةٌ من عالم كبير، وأستاذ قدير له مكانته العلمية، والنقدية، والأدبية.

وتمضي الأيام ويترك الأستاذ الزائر جامعةً صنعاء إلى أفق آخر من عوالمه المليئة بالحياة والحضور والترحال، وبعد عَقْدٍ من الزمان، وبالتحديد في عام 2000م التقيتُ أستاذاً الكريم "كمال أبو ديب" في المؤتمر الدولي الثاني للنقد الأدبي الذي نظَّمته كلية الآداب في جامعة عين شمس بالتعاون مع الجمعية المصرية للنقد الأدبي، وجامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا تحت عنوان «النقد الأدبي على مشارف القرن» في الفترة من 20 - 24 نوفمبر من ذلك العام، كنتُ حينها طالباً في بداية مرحلة الماجستير، وحين رأيته هَرَعْتُ إليه مُسَلِّماً مُبْتَهِجاً فَرَحاً بِلِقائه، وأخبرته أَنِّي من طلابه في جامعة صنعاء، فبَشَّ بي وَرَحَّبَ، وسألني عن صحة أستاذنا وصديقه المقالَح، وعن طبيعة وجودي هنا في القاهرة، فأخبرته عَمَّا استفهم، وأضفتُ - دون قَوْلٍ وعلى عِجالَةٍ، بلسان الحال - بأنَّ طالِبَكَ الذي وضعتُ في عقله بذرة السؤال، والبحث عن فهم القراءة والمنهج، وَقَلَقَ المعرفة قد تأثَّر بك، وتعلَّم منك شيئاً ما من حب العلم، وروح القراءة، وفق ما غرسته فيه، وفي جيله ذات عام، وذات مُقَرَّرٍ، وفي موطن العلم اليمن، وفي جامعة صنعاء، فأثمر ذلك الغرسُ في سعيه لإثبات الذات، وتحقيق المعرفة في طريقٍ ما يزال طويلاً، ومنكَ تَعَلَّمْتُ.

تواضع الكبار:

حين نشرتُ هذا المقال في صيغته الأولى عَبَرَ صفحتي على الفيسبوك رَدَّ عليَّ أستاذي الكبير مُعلِّقًا على المنشور بقوله: "فكرةٌ فريدةٌ تُفصِّحُ عن نُبلٍ في التَّفَسُّ والفكر، وَوَلَعَ بالبناء المعرفي جيلًا بعد جيل، وباحثًا في إثر باحث. مع أنني أعتزُّ بخطوتك هذه؛ فإنني أشعرُ بالحرَج لِإغداقك عليَّ ما لا أستحقُّه من مكانة.. مع مودتي وتقديري".. ما أجمل أن يردَّ عليك أستاذك بعد أن تباعدت المسافات إلا مسافة الودِّ والذكرى التي لا يفصلُها عنَّا شيء، ولا يقطعنا عنها بُعْدُ الزمن وطولُ السَّفر في مرافئ الحياة، فما أقرب من يتركون أثرهم في وجداننا، وما أعزَّهم في حياتنا! وما أكثرنا بهم! "بلى أستاذي الكريم.. تستحقُّ لأنك أنتَ أنتَ مَنْ قَدَحَ فينا شَرَّارة المعرفة المختلفة، وجمال السؤال، وعمق الوفاء لتراثنا، ولذواتنا، ولحضارتنا.. دُم فاتح آفاقٍ، ومحرك أفئدة نابضةً بالعلم، والحب، والجمال، أيها الكمال... ولك محبةٌ غيرُ مُنقطعة"..

(فصلُ الخطاب)

"بدأ المنهجُ الذي يطوِّره هذا البحث باتخاذ صيغة أولية له في النصف الثاني من الستينيات في سياق التطوير الطبيعي لمجموعة من المبادئ والتصورات النقدية التي تبلورت أثناء عملي الطويل في جامعة

"أكسفورد" على نظريتي الصورة الشعرية، والنظم عند عبد القاهر الجرجاني، وكانت دراستي للجرجاني قد اتخذت مساراً محدداً لها، هو موضعة تحليله للنظم، وللصورة الشعرية في سياق النظريات الحديثة المطروحة في النقد الغربي، وقد قادني هذا المنهج إلى التعمق في دراسات التيارات السائدة في اللسانيات (بفروعها المختلفة)، وفلسفة اللغة، والرمز، والشكل، والصورة الشعرية في جوانبها المتعددة وبين أهمها الجانب النابع من دراسة اللغة المجازية في الفكر الديني، والفكر "البديهي"، والأسطورة...@د. كمال أبو ديب (من مقدمة كتاب الرؤى المقنعة)

تَحِيَّة

(يا سيّد المنهج المنضبط
برُوحِكَ أدركتُ معنى الضياءِ
وأشرقتِ النَّفْسُ مِنْ ظُلْمَةِ الْأَمْسِ
مِنْ حَيْرَةِ الْحَرْفِ
مِنْ وَهْدَةِ الرَّمِيسِ
مِنْ هُدْنَةِ الْجَهْلِ
أَضَحْتُ تُثِيرُ السُّؤَالَ،
وَتَهْوَى السُّؤَالَ

وَتَصْنَعُ مِنْ سَيْنِهَا أَلْفَ سَيْنٍ!
وَتَبْحَثُ فِي كُلِّ شَيْءٍ
تُسَائِلُهُ تَارَةً
تَخْتَفِي / تَسْتَبِينُ
وَلَكِنَّهَا فِي خُطَاهَا تُحَاوِلُ أَنْ تَقْتَنِي
زَهْرَةَ الثُّورِ
أَوْ وَرْدَةَ الْمُسْتَحِيلِ...).



(3) الأستاذ الدكتور أحمد الجرْمُوزي

(المتحدثُ حِكْمَةً وشِعْراً.. أستاذٌ مثاليٌّ في زَمَنِ مُراوِغ)

من أوّل لقاءٍ في محاضرةٍ مقرر "شخصيات وقدرات عقلية" كان متميزاً بفصاحته وبلاغته، لم يكن مثل بقية أساتذة علم النفس ثقيلًا أو متكلفًا، بل كان شخصيةً مختلفةً ومتميزةً إنه يحفظ من غُرر الشعر العربي ومن الحكمة والبيان الكثير، وربما أكثر مما يحفظه بعض أساتذة قسم اللغة العربية وآدابها ممن تخصص في الأدب أو النقد أو البلاغة، وليس التخصص مقياسًا لحبّ الأدب والشعر وطريقة إلقاءه، والاستشهاد به، وروايته، فتلك موهبةٌ لا يملكها إلا العارفون بجمال العربية وجلال أثرها في النفوس.

لا تجد للأستاذ موقفًا أو حديثًا إلا وهو يحفظ من الشعر فيه ما يسعفه عند التعبير أو البيان، ويمدُّ حديثه بجمال مضاعف، ورونقٍ أصيل. ذلك هو الأستاذ الدكتور أحمد بن علي الجرُمُوزي (1952-

2013م) -رحمه الله- كان له أسلوبه الخاص في التعليم، وطريقته المتميزة في التدريس التي تؤثر في طلابه، فتدفعهم إلى تقليده والاقتداء به بشكلٍ أو بآخر، البسمة لا تفارقه إن استقبل طالبًا مُجدًّا مع شيء من الاعتداد بالنفس، وعزّة العالم القدير، وسموّه، وأسلوب المتحدث المهيب ورسالته، منصبّط إلى حدٍّ كبير يظهر أثر ذلك الانضباط في محاضراته وفي إدارته، وفي جميع شؤون حياته، ولعلّ لتكوينه العلمي -في بداية حياته والتحاقه بالتعليم العسكري- أثرًا واضحًا في ذلك الانضباط؛ حيث تخرّج في الكلية الحربية عام 1974م.

ثم استقال عن السلك العسكري حين التحق بالعمل الأكاديمي، وحصل على بكالوريوس إعلام من جامعة القاهرة 1980م، ثم عاد لدراسة الماجستير في كلية التربية - تخصص (صحة نفسية) من كلية التربية، جامعة عين شمس عام 1989م، ثم كانت الدكتوراه في التخصص نفسه من جامعة القاهرة 1992م، هذا التنوع في التكوين العلمي والمعرفي صحبه تنوع في العمل في حقول معرفية مختلفة، شكّلت منه مزيجاً فريداً من التعامل مع الناس، والانفتاح على مدارات الحياة، فظهرت ملامح انضباطه - أيضاً- في محافظته الدقيقة على الوقت، وحرصه الشديد على مواعيده، ومنها أنه لا يسمح لأحد أن يدخل بعده إلى قاعة المحاضرة، حيث يغلق الباب تماماً بعد دخوله، وعلى رأس الساعة، ولا أحد يغادرها قبل انتهاء زمن المحاضرة الذي كان (ساعتين إلا ربعاً) بالضبط، فيها من العطاء العلمي والأكاديمي ما يخفف من جفاف المادة العلمية في علم النفس بما كان يرويه من الشعر، والحكمة، والقصاص المفيدة، والأمثلة الذكية، والنماذج الإنسانية.

حبَّب إلينا علم النفس، وقربَه من نفوسنا بعد أن شَطَّ به بعض أساتذته الجادِّين في تكلف المتكلمين أو في الإغراق في مصطلحات ربما كان أحدهم يردِّدها دون أن يفهم تماماً مدلولاتها، أو في العقد النفسية التي كان لبعضهم منها نصيبٌ غير قليل -سأحهم الله، وسأحني-.

كان أستاذنا الجرموزي يشرحُ مقرّره، ويلقي محاضراته باللغة العربية الفصحى، ويتقن الإعراب، فلا يكادُ يلحن، وكانت مخارجُ كلماته واضحةً ذات نبرة مميزة حين يضغط على بعض الجمل، والكلمات، والمصطلحات لتوضيح شيءٍ ما أو بيان قضية نفسية أو علمية معينة، له طريقة تربوية لم أرها عند غيره، أتذكرُ من ذلك أنه حين كان يشرح من على منصة القاعة، وهي مُدرّج كبير في مباني كلية التربية بجامعة صنعاء، وكُنّا في السنة الرابعة من العام الجامعي 1992/1993م، والقاعة مكتظة بالطلبة كان يستطيع أن يحافظ على هدوئها التام، ويشدُّ انتباه الطلبة جميعًا خلال (105) دقائق (ساعتين إلا ربعًا) بكلّ اهتمام، وتركيز، ويقظة بما تحلّى به من قدرة تدريسية عالية، كان يوزّع اهتمامه على الجميع، وينقلُ بصره بين طلابه في زوايا القاعة المختلفة، وإذا رأى طالبًا انشغل بشيءٍ ما أو أخذه التّعاس بميزانه - كما قد يحدث للمُجهدين عادةً - نبّههُ وشدَّ انتباهه، وأعادَه إلى يقظته وتركيزه.

أذكرُ أنه ذات مرة رأى طالبًا يقلّبُ في جريدة، ويقرأ فيها، والأستاذُ يشرح، فنزلَ من منصة القاعة، وهو يتحدّث في موضوع المحاضرة دون أن يقطع حديثه أو يغيّره، ومضى وسط الصفوف ونظرًا تتابعه حتى وصل إلى ذلك الطالب الذي أوجس في نفسه خيفةً واضطرابًا من عقوبة أو إهانة ما توقعها، ولكنه لم يفعل، بل ظلَّ في حديثه وشرحه مستمرًا، وحين وصل إلى ذلك الزميل أخذ الصحيفة منه، وطواها بكلّ هدوء، ووضعها تحت كُتبه،

وعاد في هدوئه، وتأنيبه اللذين نزلَ بهما دون أن يغير موضوعه أو يقول كلمةً لذلك الطالب، ولكنّه في الحقيقة قد قال كل شيء، وعدّلنا نحن أيضًا بهذه الطريقة والتصرف أسلوبًا تربويًا زاجرًا وكافيًا ومؤدبًا في معالجة أخطاء الطلاب البسيطة داخل الفصل/القاعة.

تعلمتُ منه الكثير من أساليب التدريس وطرائقه التطبيقية أكثر مما درّسْتُه من مقررات تربوية في هذا المجال، أسلوبه تطبيقي نموذجي مدهش فيه خلاصة ما في المؤلفات، وثمره ما في كتب التربية مجسّدًا في سلوك تطبيقي راقٍ.

تقربتُ من أستاذاي أحببته لحبّه الشعر والأدب، كنتُ أذهب إلى مكتبه وأُسمِعُهُ أو أُعطيه آخر ما كتبته من الشعر، فكان يشجعني، ويرفع من معنوياتي الأدبية، بل زاد على ذلك أن حَفِظَ قصيدي (الواسطة)، وكان يرويها لمن يُصادِفُ وجوده في مكتبه من الأساتذة أو الطلاب منوّهاً بأن القصيدة لهذا الشاعر، ويشير إليّ بكل اعتزاز، وقد رواها كثيرًا حين كان يجد فيها لسان حالي، وأنا أراجع مكتبه، وأزوره خلال أربع سنوات في انتظار أن أُعيّن معيدًا في جامعة صنعاء.

وكنْتُ كلّما يئسْتُ أو أثقلتني خطواتُ المعاملة والمراجعة للجامعة، وآنسْتُ من نفسي ضعفًا أو تهاونًا أزوره في مكتبه، وهو رئيس قسم علم النفس في كلية التربية - آنذاك - وكان له مكتب خاص، ومميز بلمسات ذوقية خاصة به من الورد، والتأثيث الجميل، وكنْتُ أجد في حديثي إليه

أجمل سلوان، وأرقى مواسة، وأخرج من عنده قوياً محملاً بأمل كبير، ودفعه نفسية كافية لعدة شهور قادمة.

(ولا بد من شكوى على ذي مروءة.. يواسيك أو يسليك أو يتوجع)

كان يتعاطف معي، ويسألني عن سبب تأخر تعييني، ويتابع ذلك باهتمام، وكان يأسف كيف وجد غيري فرصة ولم أجد؟ ويتابع أخبار تدريسي في مدرسة ثانوية (عمار بن ياسر) لمدة أربع سنوات، وكنت خلالها أواصل دراستي في الجامعة، وما انقطعت عنها، حيث درستُ عامًا (مقاصّة) في كلية الآداب، ثم التحقتُ بتمهيدي الماجستير فيها.

كلّما زرته خرجت من لديه كمن تظهر من غبار علق بنفسه فآلمها، فإذا بحديثه يشفيها، وإذا بجواره يزيل كلّ ما علق بالهمة من شوائب الإحباط، وعلامات الانكسار، يملؤني رغبة في الحياة، ويزيدني همّة في طلب العلم والنضال من أجل ذلك، لأنه كان عصاميًا مكافحًا، ولديه من نماذج الحياة الكثير الكثير ممن لا يملّ من الحديث عنهم، ولا يني في سرد قصصهم، والتمثيل بنجاحاتهم، وكفاحهم، وتجاربهم.

لا أستطيع أن أنسى له مواقفهُ معي، ودعمه النفسي لي، حيث كان يقدّم لي خدمة نفسية جليّة وعلاجًا تطوعيًا مجانيًا من حيث أدري ولا أدري، ولكنّه كان يدري.

تعلمتُ منه كيف يُراعي الأستاذُ طلابه، وكيف يهتمُ بمن يَعتقدُ فيهم خيرًا أو يتوسّمُ فيهم نجاحًا وتَفوّقًا ومستقبلًا ما.

استمرت لقاءاتي بأستاذي في مكتبه أو حين أصادفه في مناسبة اجتماعية ما، وكان يحضرها بزيه اليمني الأنيق والأصيل، ولكن دون لبس الجنينية (الخنجر اليمني) يرتدي كوفيةً وشالاً طويلاً مُدلىً على كتفيه، ولا يلبس ذلك الزي إلا خارج الدوام الرسمي وفي غير المحاضرات، يرتديه يوم الجمعة أو في زيارته الاجتماعية، كان يملأ المكان بهاءً بحضوره البهي، ومحدثه الشهي.

كنت أزوره حين عودتي من مصر -وأنا طالب في مرحلتي الماجستير والدكتوراه- وكانت زيارته هدفاً مهماً وواجباً من أهداف زيارتي لصنعا، وللأهل فيها، أزوره وفي يدي مجلة "علم النفس" الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

وقد كان حريصاً عليها لتخصّصه في هذا المجال، ومتابعة الجديد فيه، أو قد أحمل إليه في زيارتي بعض أعدادٍ من (مجلة المثقف العربي) التي كانت تصدر عن "منتدى المثقف العربي" بإشراف السفير الشاعر المثقف الدكتور عبد الولي الشميري.

وكان أستاذنا الجرموزي متابعاً جيداً للنشاط الثقافي والأدبي في مصر، وقد أحمل إليه كتاباً يلفت انتباهي عنوانه في مجال تخصصه، ومدار اهتمامه، وكان يفرح بذلك، وقد كتب إلي ذات مرّة رسالة عظيمة، فيها من التوجيه والإرشاد، والنصائح السامية المحببة ما فيها، وكتبها بخطه الجميل - وهو صاحبُ خطٍّ جميلٍ - وأرسلها مع أحد الدارسين في القاهرة، وحملني

فيها السؤال عن أحد أساتذته في علم النفس، والتحية له، وبالفعل ذهبت للسؤال عنه في كليته، فقبل لي بأنه قد توفي رحمه الله، وكم كان وفيًا لأساتذته، ومحبا لهم، ومتحدثًا عنهم.

ما كِدْتُ أنتهي من الدكتوراه، وأُنهي ابتعائي حتَّى رَفَعَ لي ترشيحًا بالعمل لديه في مركز الإرشاد التربوي والنفسي، وعيَّنني رئيسًا لقسم رعاية المبدعين، ورفع طلبًا بذلك إلى رئيس جامعة صنعاء في حينها الأستاذ الدكتور خالد طميم، وذلك المركز هو الوحيد الذي قَبِلَ الجرموزي إدارته، وأن يكون عميدًا له في حين كان زاهدًا عن كُلِّ المناصب التي عُرضت عليه؛ حيث رفض عمادة الكلية، ورغب عن كُلِّ عمل إداري آخر أسند إليه سوى هذا العمل، وهذا المركز الذي بناه منذ أن كان فكرةً في الجامعة في العام 2005م، ورعاه بكلِّ ما استطاع حتى صار مركزًا متفردًا مشعًا وسط جامعة صنعاء كأنه شامَّةٌ، أو قل: كأنه بنظامه، وانضباطه، وترتيبه في فضاء آخر أكثر تحضُّرًا ونظامًا، مركزٌ نظيفٌ جدًّا ومنظمٌ لا تجد العاملين فيه يغادرون مكاتبهم إلا لعمل إداري، ولا يخرجون منه إلا مع مديرهم الذي لا يغادره إلا مع نهاية الدوام الرسمي عند الثانية ظهرًا من كل يوم، وكان يحضر إليه قبلَ موظفيه عند الثامنة صباحًا في نظام شديد وانضباط مثالي، ربما كان يضايق بعض موظفيه هذا الالتزام الصارم؛ لكنهم مع الوقت تعودوا عليه، وكذلك فَعَلَ كُلُّ من عمل معه.

عملتُ معه في ذلك المركز ثلاث سنوات من عام 2009 حتى 2011م، قُمنَا خلالها بعمل الكثير من النشاطات، والندوات، وورش العمل، وكان يَعْهَدُ إِيَّيَّ في أشهر الصيف بإدارة المركز لعامين متتاليين، حيثُ كان لا يأخذ إجازة صيفية أبدًا من قبل، ولعلَّه لمسَ فيَّ ما شَرَّفني به في ذلك التكليف، وهو يقول لي: "إنَّكَ أنا" سعدتُ بهذه الثقة من أستاذي الجليل، وهو أنموذج للحرص، والتفاني في العمل.

كان محبًّا جدًّا لهذا المركز كأنَّه منزله، فلربما وجد فيه نفسه، من خلال عمله، وتخصُّصه، ولقاءاته الاجتماعية والعلمية؛ حيثُ كان يزوره فيه عددٌ من أصدقائه القُدامى والجُدُد، والكثير من الشخصيات الوطنية، والعلمية، والاجتماعية، وكانت من عاداته أن يُنهي زيارة من يزوره بطواف على مكاتب المركز، ومكتبته، وصيدليته، وعياداته، وهو يشرح للزائر دور المركز وأهميته، ونشاطاته، وأعماله، وغيرها بكل فخر واعتزاز مبينًا كيفُ كَوَّن المكتبة بجهود شخصية وب تبرعات أصحابها من المؤلفين والأساتذة والجهات الثقافية، وكيفُ أسَّس قاعدة بيانات بلغت أكثر من 200 رسالة علمية أكاديمية، وما يزيد عن ثلاثة آلاف وخمسمائة عنوان، ودورية حتى عام 2010م، إضافة إلى أجهزة الكمبيوتر الحديثة التي حصل عليها المركز من جهة حكومية بعد طلب ومتابعة.

وأما صيدلية المركز فكان حريصًا عليها جدًّا، ويصرفُ للناس منها العلاج النفسي مجانًا، وذلك من خلال سعيه الدائم، ورسائله إلى الشركات

للتبرع بالدواء، وكذلك ممن يلتَمَسُ فيهم الخير في توفيره حتى يصل للحالات النفسية التي كان معظمها من الطلاب أو من أولياء أمورهم البسطاء، أو من بعض منسوبي جامعة صنعاء من الموظفين، كما أن عيادات العلاج والصحة النفسية كان يعمل فيها أكبر أساتذة الطبّ ضمن ساعات نصابهم التدريسي والأكاديمي، ووفق جدولٍ محدّد أسبوعياً. نذكر منهم: د. محمد الطشي، ود. بلقيس الأديمي (أطباء نفسيين)، ود. عبد الخالق حنّدة، ود. صلاح الجماعي، ود. أروى النجار، ود. أمة الرزاق الوشلي، ود. علي وهبان، ود. بلقيس جبّاري (مرشدين نفسيين) وغيرهم.

قبل أصوات عام 2011م، وخروج المتظاهرين، كان هناك احتفالٌ وفاءً كبيرٍ، سلّم الدكتور الجرموزي فيه برغبته إدارة المركز إلى د/ بلقيس جبّاري نائب مدير المركز، وقد جمع الموظفين، وقرأ عليهم استقالته المبرّرة في خمس صفحات ببلاغته المعهودة في صياغتها، وحديثه المؤثر الجميل، ثمّ سلّم متعلقات إدارته؛ بما في ذلك أنه سلّم التلفون (المحمول)، والشّريحة الخاصّة به؛ لأنّ المركز كان قد اشتراها له بحكم عمله، وكان لا يستخدمه إلا لعمل المركز فقط، في موقفٍ نادرٍ جدّاً، فمن يعيد ما أخذه من وظيفته العامّة -قلّ أو جلّ-؟! يذكّرنا هذا الأمر بزهد من نقرأ عنهم في كتب التراث، وقصص الزهّاد، والأتقياء، فأين هذا النموذج اليوم؟!

وقد بيّن في سبب استقالته "عدم القدرة على المواصلة وسط معوقات إدارية عُليا، وفساد إداري واضح"، ووسط حب موظفيه ودهشتهم التي ظهرت في عباراتهم، وملامح وجوههم كانت الاستقالة، وكان الوداع. ويا لعجائب الأقدار! لم يمض على الاستقالة سوى أسابيع قليلة حتى حَالَتْ دون الوصول إلى الجامعة خيامُ المعتصمين، وما كان له أن يشهدَ مثل ذلك الأمر، ولا يستطيع أن يذهب إلى الدوام، ولا يتأثر به؛ إذ كانت حياته وشريانها هي المركز؛ يستيقظ معه مع إشراقة الصباح، وينتهي منه مع سكون الظهيرة ونهاية دوامه.

ويا للأحداث المتسارعة! حين تداعت صحته، واستسلم جسده للمرض كما استسلمت صنعاء لاضطرابها وتداعياتها، فأصيب بالمرض الخبيث، وانشغلت عنه الجامعة باعتصاماتها وبثورة الربيع العربي المختطفة من أيدي الشباب، وسرعان ما تدبّر أمره في السفر للعلاج إلى القاهرة، ومكث فيها غير بعيد؛ شهوًراً قليلة، ثم عاد إلى صنعاء ليعيش أسابيع قليلة بعد العلاج، ولكن المرض يفتك به من جديد.

زرتُه في منزله، وهو شاحبٌ متعبٌ، لكنّه لم يترك عادته المحبّبة في الترحيب بضيفه، والحفاوة به، وكم كنتُ سعيداً بزيارته في منزله المتواضع، ورغم تعبهِ الواضح وإجهاده كانَ حريصاً على طقوس الضيافة الأصيلية، وقام يريني مكتبته المنزلية العامرة، وصوراً له مع كبار الشخصيات الوطنية والأكاديمية، وأكثر ما توقّف عنده شرحاً وتوضيحاً، وكان يعتزُّ به، هي

شهادة تقدير علّقها على جدار غرفته مع صورة تكريم من رئيس جامعة صنعاء بأنه (الأستاذ المثالي).

وقد كان بالفعل أستاذًا مثاليًا في كلّ شيء في علمه، وخلقه، وأدبه، وعمله الإداري، وحياته العامة.

تعلمتُ منه معنى الوفاء وحبّ العمل والإخلاص فيه والإيمان بأنّ الأستاذَ قيمةً، بل إنه مجموعة من القيم التي يمكن تطبيقها، وتمثّلها تمثلاً عملياً، وسلوكاً متحقّقاً.

رحمَ اللهُ أستاذنا الدكتورَ الجليلَ أحمدَ الجرموزي لقد كان أنموذجاً للمثالِيّة في أرقى صورها، وعنواناً للإخلاص في أحسن معانيه، كم نفتقدُ مثله اليوم! وفي هذه اللحظة الحرجة التي يمرُّ بها اليمن الحبيب.

أيُّها المربي الكبير، والإداري الحصيف، والوطني الغيور، والإنسان الإنسان، اخلد في نعيم لا يزول، وقرّة عين لا تنفد؛ لك منّا الدعاء، ومن الله المغفرة والرضوان.

(فصلُ الخطاب)

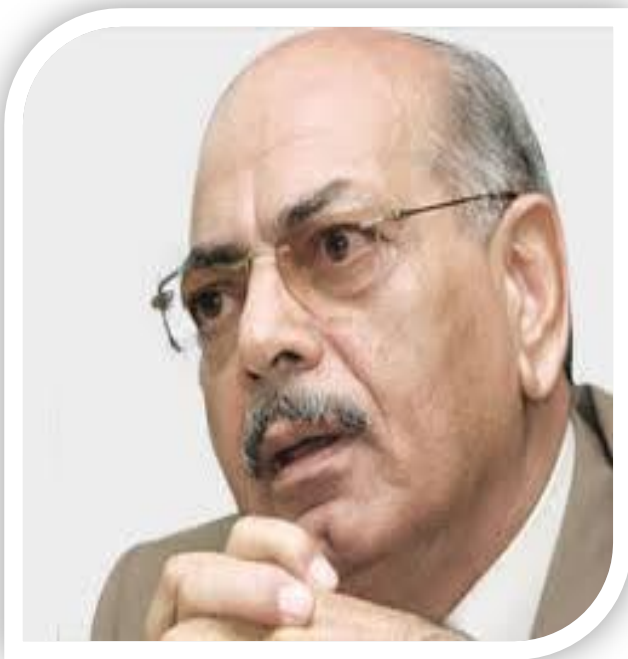
مما كان يرّده كثيراً أستاذنا الجرموزي، ويحفّظه عن ظهر قلب هذه الأبيات من كلمات الشاعر محمد مصطفى حمّام:

"عَلَّمَتْنِي الْحَيَاةُ أَنْ أَتَلَقَّى ... كُلَّ أَلْوَانِهَا رِضًا وَقَبُولًا
وَرَأَيْتُ الرِّضَا يُخَفِّفُ أَثْقَالِي ... وَيُلْقِي عَلَى الْمَآسِي سُدُولًا
وَالَّذِي أُلْهِمَ الرِّضَا لَا تَرَاهُ ... أَبَدَ الدَّهْرِ حَاسِدًا أَوْ عَذُولًا
أَنَا رَاضٍ بِكُلِّ مَا كَتَبَ اللَّهُ ... وَمُزَجَّ إِلَيْهِ حَمْدًا جَزِيلًا
أَنَا رَاضٍ بِكُلِّ صِنْفٍ مِنَ النَّاسِ لثِيْمًا أَلْفِيْتُهُ أَوْ نَبِيلًا
فَسَحَّ اللَّهُ فِي فِؤَادِي فَلَا أَرْضَى مِنَ الْحَبِّ وَالْوَدَادِ بَدِيلًا
فِي فِؤَادِي لِكُلِّ ضَيْفٍ مَكَانٌ ... فَكُنِ الضَّيْفَ مُؤْنَسًا أَوْ ثَقِيلًا
وَرَأَيْتُ الشَّكَاءَ تَشْفِي غَلِيلًا ... لِعَدَوِّي وَمَا شَفَتْ لِي غَلِيلًا...

تَحِيَّةٌ

(لِمِثْلِكَ)
نَرْفَعُ أَيْدِيَنَا بِالدُّعَاءِ
فَأَنْتَ الْوَفَاءُ
وَأَنْتَ النِّقَاءُ
تَجَسَّدَ صَدْقُكَ فِي كُلِّ شَيْءٍ نَرَاهُ
وَحَوْلَكَ
قَدْ أَشْرَقَتْ يَانِيعَاتُ
مِنَ الْحَبِّ

والأمنياتِ الكِبارِ.
بأخلاقِكَ اليانعةِ
وذلكَ شأنُ الكِبارِ
أتيتَ من الحاجةِ الدافعةِ
وعالجتَ نفسَكَ هذَّبتَها
فاستقامتُ على ما يكونُ عليه الكبارِ
هو الشَّعْرُ ينداحُ من شفتيكِ انبهارا
يُعْذِّي المَسامعَ بالحِكمةِ البالِغةِ
وَرُوحَكَ من جانبيه تُشعُّ به
بتصويرِكَ العَذبِ
في همَّةٍ ناصعةِ
سَلامٌ عليكِ
رَحلتَ بنا في فضاءِ البهائمِ
وكنْتَ البهائمِ
وكنْتَ المِثالِ
وكنْتَ الضَّيَّاءِ
وآفاقُهُ الشَّاسِعةِ).



(4) الأستاذ الدكتور علي جعفر العلق
(جَنَامَش.. الباحثُ عن وطنٍ لطيفٍ الماء)

يَروِي شِعْرَ السَّيَابِ بِطَرِيقَةٍ فِيهَا رَوْحُ شَاعِرٍ يُدْرِكُ مَعَانِي الْكَلِمَاتِ
وشفراتها، فيوصل إحساسها العالي إلى المتلقّي بكل براعة وتأثير، يُقسّم
مدارس الشعر الحديث، وفنونه، وأنواعه فيعطي كلّ فنٍّ منه أنموذجاً
واضحاً من غُرر الشعر العربي المعاصر، ومن قلائده الثمينة الفريدة، ومن
أجمل نماذجه وأعلاها بما يحقق تميّزاً في الاختيار وعمقاً في الرؤية والطرح
بحرّص شديد، وخبرة واضحة تدلُّ على معاشية للنصوص المختارة، ومعرفة
بالأدب العربي الحديث؛ ليس مجرد معرفة حفظ روتيني أو تعودٍ تدريسيّ،
ولكنّه تمثّل، ونبض، وتداخلٌ في غواية الشعر وروايته في نصّه، ونبضه،
وجماله.

يقفُ الأستاذُ أَمَامَ طلابه في القاعة (20) في كلية الآداب بجامعة
صنعاء ليعطيهم دروساً في مقرر (الأدب الحديث) فيدهشهم بسعة علمه
ومعرفته، وكثرة حفظه لشعر كبار الشعراء المعاصرين، وبخاصّة أنه يحفظ
عن ظهر قلب نماذج كثيرة من الشعر الحرّ للسياب، والبياتي، وطوقان،
وأدونيس، ونازك، والمقالح، وحسب الشيخ جعفر، وأنسي الحاج،
والفيتوري، وصلاح عبد الصبور، وغيرهم.

يقدم نماذج مختلفة للقصيدة المدوّرة، وقصيدة الومضة، وقصيدة
النثر، ويمضي بطلابه المتعطشين المنبهرين به، ومجدائق الشعر المتميز،
وظلاله البديعة، وعوالمه الثريّة، ولعلّ أكثر ما كان يُدهشنا هو قدرته على
حفظ الشعر الحرّ، وقصيدة النثر -تحديداً- على الرغم من أنّ كثيراً من

دَرَسْنَا كَانَ يُلْجَأُ إِلَى نَصِّ مَكْتُوبٍ، فَيَقْرَأُهُ، أَمَّا هَذَا الْأُسْتَاذُ فَكَانَ مُخْتَلَفًا، كَانَ يَحْفَظُهَا، وَيُرْوِيهَا بِكُلِّ مِشَاعِرَةٍ، وَبِطَرِيقَةٍ تَكَادُ تَلَامِسُ حَرَارَةَ الشَّعْرِ فِي عَمَقِ الْكَلِمَاتِ، وَرُوحِ الشَّاعِرِ نَفْسِهِ الَّذِي يَتِمَثَّلُهُ هَذَا الْأُسْتَاذُ، وَيُرْوِي شَعْرَهُ بِكُلِّ تَأْثِيرٍ وَتَأَثَّرٍ، وَبُوضُوحِ عِبَارَةٍ، وَتَمَكُّنٍ، يَمَيِّزُهُ صَوْتُ جَهْوَرِيٍّ يَخَالِطُ فِيهِ التَّأَمُّلُ نَبْرَاتِ الصَّوْتِ، وَحَسَنُ الْأَدَاءِ، ثُمَّ يَعَزِّزُ ذَلِكَ بِوَقْفَاتٍ نَقْدِيَّةٍ عَمِيقَةٍ.

وَهُوَ يَعْرِفُ مَاذَا يَحْتَاجُ طُلَابُهُ، وَمَا الَّذِي يَرِيدُ إِصَالَهُ إِلَيْهِمْ فِي آنٍ وَاحِدٍ، وَهُمْ مَا يَزَالُونَ فِي بَدَايَةِ مَسَاعِهِمُ الْعِلْمِيَّ، وَلَكِنَّهُ يَلْمَحُ وَيُلَاحِظُ فِيهِمْ رَغْبَةً وَتَعْطُشًا لِتَخْصُصِهِمُ الَّذِي اخْتَارُوهُ عَنْ رَغْبَةٍ، وَيَلْمَحُ فِيهِمُ الْحَاجَةَ لِمَعْرِفَةِ الْمَزِيدِ مِنْ رَوَائِعِ الشَّعْرِ الْمَعَاوِرِ وَمِشَارِبِهِ الْمَخْتَلِفَةِ، وَفَهُمْ مَغَالِيْقُهُ وَمِصْطَلَحَاتِهِ الْمُتَعَدِّدَةِ الَّتِي يَحْتَاجُونَهَا، وَيَحْتَاجُونَ فِيهَا إِلَى مَزِيدٍ تَوْضِيحٍ وَبَيَانٍ وَفَهُمْ لِحُدُودِ الْمَعْنَى، وَدَلَالَاتِ الْمِصْطَلَحَاتِ الْكَثِيرَةِ الْمُتَشَابِكَةِ.

هَكَذَا كَانَ يَعْطِينَا الْأُسْتَاذُ الدُّكْتُورُ عَلِي جَعْفَرُ الْعِلَاقُ (أَبُو وَصَالٍ) دُرُوسًا وَمَحَاضِرَاتٍ فِي الْأَدَبِ الْحَدِيثِ شَعْرَهُ وَنَثْرَهُ، تَعَلَّمْنَا مِنْهُ فِي تِلْكَ الدُّرُوسِ جَمَالَ الشَّعْرِ الْمَعَاوِرِ وَفَنُونِهِ وَرَمُوزِهِ، وَعَوَالِمِ الْإِبْدَاعِ فِيهِ وَنَمَاذِجِهِ، وَطَرَائِقِ الْأَعْلَامِ، وَمَدَارِسِهِمْ، وَفِلَسَفَاتِهِمْ.

حِينَ كَانَ يَشْرَحُ "أَنْشُودَةَ الْمَطَرِ" لِلسِّيَابِ كُنَّا نَرَى السِّيَابَ حَاضِرًا بِرُوحِهِ، وَمَعَانَاتِهِ، وَنَبْضِ الْعِرَاقِ، كَمَا كُنَّا نَسْمَعُ صَرَخَتَهُ فِي الْخَلِيجِ:

"يا خليج

يا واهب المحار والرّدى.."

أكادُ أسمع العراق يذخرُ الرعودُ

ويخزنُ البروقَ في السُّهولِ والجبالِ،

حقّ إذا ما فَضَّ عنها ختمها الرّجالُ

لم تتركِ الرياحُ من ثمودُ

في الوادِ من أثرُ..."

وحينَ كان ينادي بقوله:

"وكلَّ عام - حين يعشبُ الثّرى - نجوعُ

ما مرَّ عامٌ والعراقُ ليس فيه جوعٌ..."

مطر...

مطر...

مطر...

كنا نلمس ما وراء السُّطور في حديث أستاذنا عن هذه الأنشودة
الخالدة التي صارت أنشودة كلِّ عراقي، بل أنشودة كلِّ عربي بعد ذلك في
مواجهة الحال المُزري لصراع الإنسان العربي مع نفسه، ومع قوى الشرِّ،
وعوامل التخلف، وهدم الحضارة.

وحين كان يتحدّث عن "جيكور" ونهرها الممتدّ الذي كاد ينضب،
إنما كان يتحدّث عن شريان الحياة الذي بدأ يجفُّ، وشرع الإنسان يغادرُ

عالمه السحري وبراءته كآدم حين غادرَ جَنَّتَهُ ليشقى في بقاع الأرض، ويقاسي آلام الغربة والتشرد والضياع حالماً بعالمه الأول؛ نادماً على تفريطه فيه، ومتألماً على حاله ومآله.

حين يتحدثُ أستاذنا عن الشعراء الآخرين أمثال: أنسي الحاج، وحسب الشيخ جعفر مبيّناً عمقَ شعرهم، ومعاناة إنسانيتهم التي كانت تنضجُ بها نصوصهم، وكلماتهم، ومعانيهم المجنّحة في عوالم الإبداع والألم معاً، وفي وصف الصورة الصادقة للواقع والمتخيّل، للشعر والفن، والحياة الحاضرة، والمستقبل المتغلّت كان ينضح هو أيضاً برؤاهم، ويلامسُ جوهر سرّهم في حديثه عن تلكم النماذج الإنسانية المحلّقة.

وحين يحدّثنا عن الرمز وعن الأسطورة في الشعر الحديث عن "سيزيف" وصخريته كان يتمثّل معاناة العراقي في جدله الأزلي مع الجهد وبذل القوة في التخلص من صخرة الألم في جدلية البقاء والفناء، وثنائية الإنجاز والخيبة، الروح والجسد، عن صراع الرغبة في بناء حياةٍ حقيقيّة تقوم على الكرامة، وحرية الإنسان، واختيار مصيره، ورفض ما دون ذلك من القهر، والسقوط، والدّم، والألم.

حين يتحدثُ عن "بروميثيوس" وأسطورته والنّار التي هي روح المعرفة، روح البناء، روح المدنيّة، وكيف أنه دفع من أجلها ذلك الثمن الباهض متجسّداً في عقوبات متوالية، وعذاب لا ينتهي كأنّما كان يحدّثنا عن روح شعبه الذي ظلّ هو وأمثاله من مشاعل النور، ومن عقول المعرفة،

وسُرَّاق النَّار المقدسة المنتجة يعانون التشرد، والألم، والغربة، والاعترا ب معاً، ثم ما لبثت أن لحقت بركبهم جموعٌ وجموعٌ من أمثالهم من كل ركن عربي انتهت به الحياة البائسة والمعاناة إلى المصير ذاته، والعقوبة نفسها، وما تزال الحكايةُ مستمرةً، والألم يتنقّل من منطقة إلى أخرى ومن جزء إلى آخر من جسد الوطن العربي المشخن بالضيا ع، والمثقل بالحيا ع.

حين كان يحدّثنا عن الشاعر "محمد الماغوط" وعن عوالمه وصوره التي تنبض بالحزن وبالتشرد وبالحرقه في قصائده النثرية التي كان الماغوط - وما يزال - يمثّل فيها الأنموذج الأرقى لقصيدة النثر العربية الناضجة، وكيف حلّت صورُها وتكثيفُها ودهشتُها وانزياحاتُها وشعريةُ الصورة فيها محلّ ما دونه من الاحتيا ع للوزن، والإيقاع المألوفين، وكيف أن براعة الماغوط حين يصف نفسه وطرفاً من سيرته بالصور المتتابعة المدهشة في بعض قصائده، وكيف كان أبوه قاسياً عليه فيقول:

"كان أبي لا يحبني كثيراً، يضربني على قفائي كالجارية... ويشتمني في السوق".

كانت تُدهش أعيننا المتطلعة تلك الصور الجديدة والمختلفة بما يمثّل تجربة ناضجة وبصمة إبداعية قلّ نظيرها، كيف كان يشرح لنا عوالم الماغوط وتنبؤاته، فدفعنا إلى قراءة الماغوط؛ والغوص في عوالمه، وكيف يأتي بعد عقودٍ من الزمن وحال سوريا، وما تمرُّ به من ظروف سياسية كانت غير متوقّعة، ولم يخطر لذي بالٍ أن تصل إلى ما وصلت إليه من العناء،

والتشرد، والبؤس! فعرفنا بعد عقود بأنّ الماغوط -والشاعر نبئ في قومهِ- لم يكن سوى مُنذرٍ ولكلِّ شعبٍ هادٍ، يعبرُ عن حياته؛ ليس بما هو فيه في الأُمس ولكن بما سيكون عليه في الغد، وقد كان.

يا لهذا الشعر الذي ينبئُ ويتنبأ! ويا لأولئك الشعراء الذين يقولون، ويكتبون كأنَّهم يكتبون بأقلام القُدرة والقَدَر، ويقرؤون عوالم الغيب المجازي والحقيقي، ويرسلون رسائلهم التي قد لا تُفهم اليومَ، ولكنَّها في الغد ستكون حقائق نابضة، وشواهد شاخصة.

تعلّمتُ من أستاذي العلاّق -وهو الشاعر الكبير- أنّ إيمانه برسالة الشعر وبروح البيان هو القوّة التي لا تساويها قوّة، إنه كيانٌ حقيقي لمن يحملها وكيونة وهويّة لمن يخلص لها، فيشكّل أمةً من النَّاس؛ وإن كان فردًا واحدًا.

تعلّمتُ منه أن الشعر عُشبة الخلود، وأنه حياةٌ للشاعر، ووطنٌ لا يستهان به، فإن غاب عن وطنه وحمل الشعر في رحاله وجعله زاده ورشاده حمله الشعر إلى وطنه، بل وحمل وطنه في شعره في كل مكان، وعبر كلّ زمان، فلا حاجة للقيّد الفسيولوجي أو المكان البيولوجي حين يحضر الشعر، فإنه يكون قادرًا على العبور، متخطيًا الحواجز، عابرًا لكل فضاءٍ وزمان، إنه كيونة الحضور وكيان الحاضر.

تعلّمتُ من أستاذي العلاّق -كما تعلّم غيري- المعنى الصّادق لأن تكونَ أنتَ لا أحدًا سواك، أن تكون صوتك الذي لا يشبهه صوتٌ آخر،

وليس بالضرورة أن تتشابه الأصوات، بل الضرورة الحقة أن تختلف أن تتباين، فيكون جمالها، ويظهر نقاؤها، ويتحقق كيائها في ذلك الاختلاف.

تعلمتُ منه كيف يكون الأستاذ قريباً من أبنائه، من طلابه، من مُريديه، ولكنه قُربٌ شفافٌ متنامٍ يُرى على صفحاتِ الماء وهو بعيدٌ -لا بُعدَ تكبرٍ وتعالٍ- ولكن بُعدَ إلهام، وبُعدَ إثارة وتشويق للحاق به؛ للتحليق في سماواته، لمجاراته هناك في عوالمه وفي منابع المعرفة وفضاءات الإبداع في محاورته في عوالم الصدق، وإلهامات المعرفة ونارها في جهد "بروميثيوس" وشفرته.

غَادَرْنَا الأستاذَ العلاق من "صنعاء" بعد سنوات الدراسة الجامعية، وما كنّا - أنا وزملائي - قد شَيعْنَا من عوالمِهِ التي لا تُملُّ، ومعرفته التي لا يحدُّها حدٌّ إلا الانفتاح على الجديد وفيه، غَادَرْنَا، فعاتبناه! كيف له أن يترك ملهمته الجميلة "صنعاء"، بغداده الجديدة الأخرى؟ وكيف له أن يستبدل هذه الروح العميقة العريقة بما دونها؟

لكنّه وهو الصّبور المهاجر الفاتح ردّ مُعلّلاً أنه لم يرغب في ذلك لولا أنه كجده "ابن زريق البغدادي" قد نادته محطات الحياة إلى سفرٍ جديدٍ، ما تزال تتقاذف بمركبه حيناً وحيناً، وتارةً وأخرى.

يَكْفِيهِ مِنْ لَوَعَةِ التَّشْيِيتِ أَنَّ لَهُ ... مِنْ النَّوَى كُلِّ يَوْمٍ مَا يُرَوِّعُهُ
ما آبَ مِنْ سَفَرٍ إِلَّا وَأَزْعَجَهُ ... رَأْيِي إِلَى سَفَرٍ بِالْعَزَمِ يَزْمَعُهُ

وهو على طائرة سفره ذات جمعة من "صنعا" إلى محطته القادمة حرصتُ على أن يقرأ عبر صحيفة الثورة، وبالتحديد ملحقها الثقافي آنذاك، وفي نهاية التسعينيات وتحديدًا يوم 1997/7/28م قصيدي التي أهديتها إليه، وكانت من قلبٍ يقطرُ محبةً ووفاءً من تلميذٍ لأستاذه، (وسأجعلها ختامًا لحديثي هذا).

تعلمتُ منه حرصه الكبير على المتابعة، والقراءة، والاجتهاد في التأليف، وله الكثير من الكتابات الدقيقة والعميقة في نظرية التلقي، وفي قراءات النصوص ومقارباتها، في التنظير والتطبيق على حدٍّ متقارب، وهو قرين العمل البحثي، والكتابات المتجددة منذ بداية مشواره في تحرير مجلة الأقلام العراقية مرورًا بإنجازاته من الكتب المتنوعة، ودواوينه الشعرية المتعددة التي منها أعماله الشعرية:

- طائرٌ يتعثّرُ بالضوء، دار فضاءات للنشر، عمّان، 2018
- وطن يتهجى المطر، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، 2015
- الأعمال الشعرية، مجلدان، دار فضاءات، عمان، 2014
- حتى يفيض الحصى بالكلام، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، 2013
- نداء البدايات، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، 2013.
- الأعمال الشعرية الكاملة، مجلدان، القاهرة، 2013
- ذاهبٌ لاصطياد الندى، عمّان، 2011
- عشبة الوهم: قصائد مختارة، القاهرة، 2010

- هكذا قلت للريح، بيروت، 2008
 - سيد الوحشتين، بيروت، 2006
 - مختارات شعرية، القاهرة، 2005
 - ممالك ضائعة، القاهرة، 1999، ط 2، بيروت، 2004
 - الأعمال الشعرية، بيروت، 1998
 - أيام آدم، بغداد، 1993، دمشق، ط 2، 2008
 - فاكهة الماضي، بغداد، 1985
 - شجر العائلة، بغداد، 1979
 - وطن لطيور الماء، بغداد، 1975
 - لا شيء يحدث.. لا أحد يجيء، بيروت، 1973
- الكتب النثرية:
- في مديح النصوص: قراءات نقدية حميمة، عمان، 2013
 - من نصّ الأسطورة الى أسطورة النصّ، عمّان، 2010
 - قبيلة من الأنهار: الذات، الآخر، النص. عمّان، 2008
 - ها هي الغابة فأين الأشجار؟ عمّان، 2008
 - الدلالة المرئية، قراءات في شعرية القصيدة الحديثة، عمان، 2002، 2013
 - الشعر والتلقي، عمّان، 2002، 2013
 - في حادثة النص الشعري، بغداد، 1990، عمان، 2003، 2013

• دماء القصيدة الحديثة، بغداد، 1988

• مملكة الغجر، بغداد، 1981

كُتِبَ عن تجربته ثماني رسائل جامعية حتى الآن، وكتب أخرى من عدد من النقاد والأكاديميين العرب، منهم: د. محمد جواد البدراني، د. عبد الغفار عبد الجبار العمر، د. محمد صابر عبيد، د. أحمد عفيفي، د. مانويلا كورتيس غارسيا، د. مصطفى الكيلاني، عبد اللطيف الوراري، وغيرهم. تعلمتُ من أستاذنا العَلَّاق كيف يكون أدائكُ العلمي والتدريسي حين تُحِبُّ عملك، وتتفانى في تخصُّصك، وتقوِّي نفسك في مجال إبداعك واهتمامك.

وترى السُّنون، وما بين عام (1997 إلى 2009) اثني عشر عامًا تقريباً التقيتُهُ في المؤتمر الدولي الأول للقصة العربية القصيرة بالقاهرة، لم يزد الزمْنُ إلا وقاراً وإنتاجاً معرفياً وجلالاً، حين سلمتُ عليه تذكُّرني جيداً بروحه الودودة، وحضوره المتميز سائلاً عن أصدقائه في اليمن من الأساتذة والطلاب بكلِّ حنين وشوق ظهرا وضحياً في ملامحه وصوته، سألني عن أستاذنا الدكتور عبد العزيز المقالح، بوابة اليمن الكبرى ومدخلها للتواصل بيننا وبين المثقفين العرب والأدباء والأكاديميين.

وفي زيارتي الثانية للقاهرة عام 2015م لم أجد أستاذي العَلَّاق في ضيوف الملتقى الدولي السادس للإبداع الروائي العربي، لكنني وجدتُ أعماله الكاملة التي طبعها المجلس الأعلى للثقافة، وكم أسعدتني تلك الأعمال،

فحين رأيتهما كأني صافحتُ من خلالها أستاذي بروحه، وعالمه الأبقى والأجمل.

تعلمتُ من أستاذي العلاق قيمة حبّ الوطن وأنت بعيدٌ عنه - وقد صرْتُ مثله بعيداً- لكن الوطن يعيش فيك ومعك، وتعيش به ولأجله، ومن حبّه والوفاء له أن تمثّله أفضل تمثيلٍ تحت أيّ سماء وفوق أيّ أرض؛ لأنك رسوله، وسفيره، بل أنت بضعته وقطعة من فلذاته المنتشرة في بقاع الأرض.

هكذا كان العلاق، وهكذا هو العراقي الشامخ ابن الرافدين وسفيرها المعترّ بمحضارته العربية العريقة، وبأصوله الممتدة في عمق التاريخ وجذوره الضاربة في أطناب الحضارة، وفي مرابع اللغة وشفرتها، وفي ثنايا الحرف وسميائياته، وفي تفاصيل الحياة واستمرارها.

سلامٌ عليك أيّها الأستاذ الجليل، والشاعر المبدع النبيل، والناقد الحصيف، والعراقي الأصيل.

سلامٌ عليك أيّها العليّ! وعشتَ حيثُ حللتَ أو ارتحلتَ رافعاً بالحرفِ هامة، وناشراً للإبداع علامة، ودمتَ نبراساً للبيان وجلال العربية التي لا ينضب مَعينها، ولا يجفُّ رحيقها وبريقها، ولك وافرُ المحبة، وكثير الدعاء من مُحبٍّ لم ينسَ جمالَ حضورك، وعبير نداك، وجلال صوتك، وأثير صدك.

* (فصلُ الخطَابِ) *

(وطني لطُيورِ الماءِ)

...

هذي الليلةَ

أفرشُ ثوبي، أتعابُ

والوطنُ الضيقُ

أدخلُ أيامَ الشعراءِ المكتئبينَ

ويدخلُ أيَّامي الشعراءُ

المكتئبونَ

ونخلطُ وحشتنا

تفصِّلني

عنك ثيابُ العتبِ التَّاحِلِ

مثل الماءِ،

أيضِرُّ الوطنُ المُتَسَامِحُ

أَنْ يَلْهُو بَيْنَ الْفُقَرَاءِ؟

وطن الماءِ

أثرثرُ باسمِكَ ساعةَ يندى

الليلُ الموحشُ

في الساحاتِ
أثرثرُ باسمك
إذ تشجُبُ حصران المقهى
يتسلَّقُ مصطبي
البردُ
وأحلمُ لو تأتيني، الليلة
أبيض كالنجمِ
تخرجُ من كوخ أبيض
يَقطرُ من قدميك الطينُ
نتعائبُ
نشبكُ أيدينا
ونؤالف ما بين الأوطانِ المهمومِ
شجرٌ للأوراقِ المرّة، والأخطاءِ
قمرٌ ملتهبٌ، مهمومٌ، قرب الماءِ
قمصانٌ تُفرشُ
مصطبة
تشحب في أيام البردِ
وأنا الليلة
كم يعجبني أن أُنغنى

بمفاتنَ غير مُحَرَّمَةٍ
وطيور
لم تَهْبِطَ بَعْدُ
آه... لو يأتيني الليلة
أفرشُ ثوبي، نتعابُ
هل يأتي وطنٌ دونَ ضجيج؟
دونَ شَتائم
للأبناء المهمومين؟
- سأشهق حين يجيءُ
الليلة
أفتح قمصاني
للريح
وأهتفُ، منتشراً، كالماء:
- هذا الوطن الواسعُ جاء
أبيض كالفضة مبتلأ
عذباً كطيور الفقراء
يحملُ قمصاناً للجرحى، وأصابير
سيهبطُ منها المنفيون
الأطفال

الريح

الشعراء...

هذا الزمن الواسع جاء

أحلامًا للمكتئبين، وأغصانا

لطيور الماء..@ د. علي جعفر العلاق، ديوان (وطن لطيور الماء).

تَحِيَّة

(هل وجدَ الْبَاحِثُ عَنْ "وَطَنِ لَطِيُورِ الْمَاءِ"

وطناً لشواطئِهِ الْخَضْرَاءِ؟!

"أُولَئِيسُ" الرَّحْلَةُ مَا زَالَتْ صَعْبَةً

وطيورُ الْعُرْبَةِ مَاتَتْ ظَمْأً

سفنُ الْأَخْطَارِ بِهَا تَنْأَى

وَالْوَطَنُ الْقَادِمُ فِي كَفِّ سَرَابٍ

تَسْتَنْشِقُهُ رِئَةٌ تَنْزِفُ

حُبًّا، شَوْقًا، وَعَنَاءً

-2-

الرحلة في الشوط الأول

لكن؛ لا ترحل

لملم أوراقك

لملم أنفاسك

لكن؛ لا ترحل

كيف تغادر كل شرايين الأذهان؟

أنت بكلّ خباياها قبس يتغلغل

فجرت ينابيعك فينا

وطناً، وزهوراً، وضياء

والآن

تعاود فنّ التجديف

وبأعماقك آلاف الأوتار المكسورة

حزُنك علّمنا الحزن

عَلَّمْنَا كَيْفَ نُدَاوِي آهَاتِ الْجُرْحَى
وَنُضَمِّدُ فِينَا آلامًا مُمْتَدَّةً
كَيْفَ نُوَايِسِي الْإِنْسَانَ

-3-

أُنْشَأَتْ هُنَا وَطَنًا
فَأَتَتْكَ طَيُورُ الْمَاءِ الْعَطَشَى
تَبْحَثُ عَنْ رِيٍّ، عَنْ عُشْبٍ أَبْيَضٍ
رِحْلَتُكَ الْأُخْرَى نَعْرِفُهَا
سَتُحِيلُ الْحَقْلَ الْأَسْوَدَ
يَنْبُوغًا أَرْلِيًّا لِعَصَافِيرٍ سَتُولِدُ
مِنْ رَحِمِ الصَّخْرَاءِ

-4-

فوداعاً

يَا مَنْ كُنْتَ قَصِيدَةً شَعْرٍ تَتَشَطَّى

نَبْضَاتِكَ فِي صَنْعَاءَ تَرَاتِيْلُ وَفَاءُ

عَلَّكَ غَادَرْتُ نَوَافِذَهَا

لَكِنَّكَ فِينَا لَمْ تَرْحَلْ..) صَنْعَاء - 28 / 7 / 1997م.





(5) الأستاذ الدكتور كمال بشر

(شيخ اللغويين العرب، صوت معلّم لا يشبهه أحد)

يَنْزِلُ مِنْ عَلَى سيارَةٍ، يَفْتَحُ البابَ سائِقُهُ الخاصَّ، فيهرعُ أحدُ الطلابِ إليه بكلِّ احترامٍ، يأخذ بيده، ذلك الطالب المؤدَّب هو "حسين عبد العظيم" زميلنا في دبلوم اللغة العربية، ثم يمضي الأستاذُ بكلِّ ثباتٍ، وبخطوات هادئة؛ وهو ذلك الثَّمانينيُّ الذي انحنى ظهره لكن الثَّمانين - وبلَّغها- لم تحوجُ سمعه إلى ترجمان، فسمعه ممتاز، إنما بصره هو الذي احتاج إلى ترجمان الحروف، وعدستها المكبَّرة.

يدخلُ إلى قاعة التَّدریس التي اعتاد عليها منذُ فترةٍ ليست بالقصيرة في معهد البحوث والدراسات العربية بشارع القصر العيني، في موقع ذلك المبنى الذي يبدو عليه القَدَم، وتجلُّهُ الفخامة، وارتفاع سقف غرفه، وتنوع مداخلها، وساحته التي أخذت مساحةً لا بأس بها في مكان مُهمٍّ هو شارع الطلبات في حي "جردن سيتي" ذلك الحي الأرسقراطي منذُ زمن البشوات في مصر، وقد تعاقبَ على إدارة ذلك المعهد والتدریس فيه - منذُ إنشائه في 23 / 9 / 1952م- عدَدٌ من الأعلام والأساتذة الكبار منهم: الأستاذ ساطع الحُصري، ومحمد شفيق غربال، ود. طه حسين، وعبد الرحمن البرَّار، وآخرهم د.أحمد يوسف أحمد، أمَّا الأساتذة والأكاديميون فحدَّث عنهم ولا حرج، في مختلف التخصصات التي يتكوَّن منها المعهد، وهي عشرة أقسامٍ على النحو الآتي: (قسم البحوث والدراسات: الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والجغرافية، والتاريخية، والقانونية، والأدبية، والإعلامية، والتربوية، والتراثية).

وأما أساتذتنا في قسم البحوث والدراسات الأدبية الذين درّسوا لنا، وتلقينا على أيديهم مقررات الدبلوم، فقد كانوا من مختلف الجامعات المصرية، وهم: د. عز الدين إسماعيل، د.نبيلة إبراهيم، د.صلاح فضل، د.محمد بريري، د.كمال بشر، د.محمد العبد، د.سعيد بحيري، د.وليد منير، د.أحمد كمال زكي، وغيرهم.

اعتاد ذلك الأستاذ الجليل على هذا المكان لسنواتٍ طويلة؛ كما تعود على العطاء فيه لطلابٍ من كلّ الدول العربية، يأتون للدراسات العليا في معهدٍ من أقدم المعاهد الأكاديمية التابعة لجامعة الدول العربية حين تأسيسه، ثم تبع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم منذ قيامها في 1970م.

ذلك الأستاذ القدير هو الأستاذ الدكتور كمال محمد بشر (1921-2015م) أستاذ اللغويات، والأكاديمي الكبير منذ خمسينيات القرن العشرين حين تخرّج في جامعة لندن، وحصل فيها على درجة الماجستير في علم اللغة المقارن؛ عام 1953م، وعلى درجة الدكتوراه في علم اللغة والأصوات، عام 1956م، وكثيراً ما كان يتحدث لطلابه، ويشيد بأستاذه اللغوي البريطاني الكبير "فيرث: John Rupert Firth" رئيس قسم علم اللغة والأصوات، ويذكر طريقة تعليمه لهم، وأساليب التفكير العلمي التي زرعها فيهم.

وظل أستاذنا بشر يمارس التدريس والبحث والتأليف لأكثر من نصف قرن ويزيد، وبروحه العذبة التي تُعَلِّمُكَ جمالَ الأستاذية، وسموها مع خصوصية عذبة يمتاز بها، وهي أنه يخاطبُ طلابه بلهجته المصرية الريفية كاسراً مهابة اللقاء الأول، فيسألهم عن أسمائهم، ويشير إليهم واحداً واحداً، متخذاً من قوله: "اسمك إيه يا واد؟ وانتِ يا وليه اسمك إيه؟ ومنين؟"، ثم لا تخلو محاضراته من التُّكْتة التي يتبعها بضحكته المجلجلة المميّزة.

كنّا شباباً في مختلف الأعمار من أكثر من قُطرٍ عربي وإسلامي، من مصر، وفلسطين، واليمن، وموريتانيا، وأندونيسيا، وباكستان، أولئك مجموع الدفعة التي تدرس مقررَ (علم اللغة) وبالتحديد (علم اللغة الاجتماعي) في السنة الثانية للعام 2000 / 2001م الفصل الرابع التخصصي.

ومما يميّز به الدكتورُ كمال بشر أنه يدرّس كتابه الذي اعتادَ عليه، وهو من أهم كتب اللغة، وكانَ حينَ يقفُ في نهاية المحاضرة عند نقطةٍ ما من الكتاب، ينطلقُ في المحاضرة القادمة مما يليها دون أن يسأل عن "أين وقفنا؟!" إنه يتمتّع بذاكرة عجيبة، ذاكرة قوية مركّزة.

سألناه ذات يوم عن تلكمُ الذاكرة وقوّتها -لا قوّة إلا بالله- ونحن نحفلُ بعيد ميلاده التاسع والسبعين في عام 2000م، حين بادرتُ إحدى الزميلات المصريات بلفتِ نظرنا إلى هذه المناسبة، فأعدنا لها شيئاً مما يعبرُ عن حبّنا له، وإجلالنا لشيخنا الجليل، وأهداهُ بعضنا - فيما أهديناه -

مُصحفًا فرَحَ به فرحًا كبيرًا، وحينها قال لنا: "كَلَّمَا استمعتُ إلى القرآن أو قرأتُ فيه؛ اكتشفتُ ظواهر صوتية، وفوائد عجيبة، ومع كل استماع أخرجُ بفكرةٍ بحثٍ لغوي أو صوتي أو دلالي مختلف؛ إنه التجدُّد الذي يمتاز به كتاب ربنا"، إنها روح الباحث وذكاؤه وفتح آفاق دراساته التي كان يقوم ببعضها أو يفتح بها على طلابه موضوعاتٍ تصلح للبحث والتحليل.

لاحظنا على أستاذنا أنه يتمتَّع بصحة جيدة، وبذاكرة قوية، وبتركيز علمي شديد على الرغم من أنه يدخِّن بكثرة حتَّى لا تكادُ تغادرُ السيجارةُ إصبَعَه، ويشربُ قهوَتَه التركية الثقيلة التي كان يهرعُ بها إليه ساعي المعهد -كعادةٍ يوميةٍ مع دخوله إلى القاعة- فسألناه ما سرُّ هذه الذاكرة - ما شاء الله تبارك الله- والصحة الطيبة؟ مع نصحه -على استحياء- بأن التدخين قد يضرُّ بصحته الغالية! فأخبرنا عن سرِّ تلك الذاكرة، والتركيز، والصحة -بعد حمد الله- أنه منذ كان في الفلاحين -بحسب عبارته- وهو ينامُ بعد التاسعة ليلاً أو عندها، ويستيقظ قبل الفجر، ثم لا ينام إلا وقت القيلولة -إن كان اليوم -بمشاغله الكثيرة- يسمح له بالعودة إلى البيت وأخذ قسطٍ من الراحة- وإلا فإنه لا يغيِّر عاداته في الحفاظ على نظامه الخاص في النوم المبكر، والاستيقاظ المبكر.

فتعلَّمْتُ منه أن سرَّ الحفاظِ على العقل، وروح غذائه يكمنُ في عادة النوم السليمة، ولكني لا ألزمها للأسف.

ويمضي أستاذنا في شرح قضايا منهجنا بكل اقتدارٍ معهودٍ، نستفيد من تعليقاته العلمية، ونكته المعرفية، يشفعها جلال قدره مع تواضعه المهيب، ومكانته العلمية المعروفة والمشهودة في ميدان التأليف، والتدريس، والإشراف على الرسائل العلمية من ماجستير ودكتوراه بلغت المئات، إشرافاً وإرشاداً ومناقشات.

وأحاول الاقتراب من أستاذاي الجليل لإعجابي الشديد بروحه الودودة، وعلمه الغزير، فيصادف صدورَ ديواني الثاني (أنشودة للبكاء، 2000م) فأهرعُ به إليه زائرًا له في مكتبه بكلية دار العلوم، حيثُ يطلبُ من السَّاعي أن يُحضِرَ لي الشَّاي، وتلك عادة يقدِّمها لضيوفه ولطلابه، فلا يخرج من يزوره إلا بعد أن يشرب شيئًا، يسألني عن اسمي وجنسي -حين أخبرته أيُّ أحد طلابه في المعهد-، ثم يسألني عن اليمن، والحياة فيها، ويأخذ الديوان، وقد بشَّ به ووعد بقراءته، ثم يطلق عليَّ منذ تلك اللحظة لقب "اليمني الشاعر" وكلَّما رأني بعدها عرَّفني بهذا الاسم، وناداني به.

كنتُ أسعدُ برؤيته ولقائه، وبهذا التَّداء، وحين أُتيحتُ له فرصة لقراءة الديوان -على الرغم من مشاغله الكثيرة تدريسيًا وإشرافًا ومناقشاتٍ وعضوية مجمع اللغة العربية، وغيرها- بادرنِي ذاتَ يوم، فقال: "إنك شاعرٌ مثقَّف، في شعرك عوالم كثيرة، وقد لخصتَ في قصيدتك "أنشودة للبكاء" حياة الإنسانية من خلال رموزها، وحياة الأنبياء فيها، وغيرها من الدلالات تلخيصًا بديعًا". إنها شهادة كدتُ أطير بها فرحًا تقالُ لشاب

متطلّع يعجب أستاذٌ بحجم كمال بشر بشعره، ويثني عليه، سواء كان حقيقةً ذلك الإعجاب أو أنّه بروح الأستاذ المشجّع من عالم خلقه خلق العلماء الكبار، فأياً كان فحسبي أنني مررتُ على خاطره، وحظيتُ بقراءته وإقراره بصحة ما جاء في ديواني من اللغة، والصور، والمعاني؛ إذ ما كان له أن يسكت عن خطأ أو يتغاضى عن زلّة، فكان ذلك لديّ شهادة عبور، وجواز انطلاق. ثم تمضي الأيام، وفي ذاتِ نهارٍ يدخلُ أستاذنا إلى قاعة الدّرس، ويبدو عليه الضيق والحزن والأسف من قضية أرقّته، وهي أنّ أحد الأكاديميين قد أثار في إحدى الصّحف أو المنابر العلمية "أن كمال بشر أخذ عنه شيئاً من الأفكار أو المعلومات... لست متأكّداً من التفاصيل..."، ولكن ما لاحظته عليه من حزن قد أثار مشاعري، فأحببتُ أن أشاركه شعراً، مؤكّداً له محبتي ومشاعري نحوه أستاذاً وعالمًا، وقد ردّ هو بدوره على تلك القضية في معارك العلماء وخلافاتهم التي تدور عبر الزمان، ولا حسد إلا في اثنتين - كما هو معروف - ولكيّ كتبتُ قصيدي التي عبّرتُ فيها عن مكانة الرجل، وعلمه، ومما قلت فيها:

... فكمالٌ بعلمه	فاح في الأرض كالشّدا
... إن تكن قد جهلته	سل عن البشر ذا وذا
... يعرف العلم فضله	باجتهادٍ تعوذا
... نصف قرنٍ ويّيف	وهو يُعطي، وكم غدا!
... صار في العلم حُجة	للخلافات نايّدا

أَنَّ فِرْسَانَهُ إِذَا	...	"مَجْمَعُ الْعَرَبِ" شَاهِدٌ
أَصْبَحَ الْكُلُّ أَخَذَا	...	قَالَ بِشْرٌ: مَقُولَةٌ
مَنْ عَلَى نَهْجِهِ حَدَا	...	"ابْنُ جَنِّي" عَصَرَهُ
هَكَذَا الْعِلْمُ هَكَذَا	...	حَارَزَ فِي الْمَجْدِ رُتَبَةً

إِنَّمَا كُلُّ عَالِمٍ.. لَيْسَ يَنْجُو مِنَ الْأَذَى...الخ

سَعَدَ بِهَا أَسْتَاذِي الْكَبِيرِ، وَتَقَبَّلَهَا بِقَبُولٍ حَسَنِ، مَعْلَقًا عَلَى رَوِّيَّهَا، وَهُوَ حَرْفُ (الذَّالِ) الصَّعْبِ الْقَلِقِ، بِقَوْلِهِ: "أَنْتَ شَاعِرٌ قَدِيرٌ لَا يَكْتَبُ بِمِثْلِ هَذِهِ الْقَوَافِي، وَيَجِيدُهَا إِلَّا الْقَلِيلُ، وَهِيَ بِذَلِكَ سَلِسَةٌ طَرِيفَةٌ قَوِيَّةٌ لَفْظًا وَمَعْنَى".

ذَلِكَ هُوَ عَالَمُ اللُّغَةِ الْكَبِيرِ وَأَسْتَاذُهَا الْقَدِيرُ شَيْخُنَا الْأَسْتَاذُ الدَّكْتُورُ كَمَالُ بَشْرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ- الَّذِي تَعَلَّمْتُ مِنْهُ تَوَاضُعَ الْعَالَمِ الْجَلِيلِ، وَقُدْرَتَهُ، وَمَهَابَتَهُ، وَبَسَاطَتَهُ مَعَ طُلَّابِ الْعِلْمِ لِيَحَقِّقَ بِكُلِّ ذَلِكَ أَسْتَاذِيَّتَهُ بِاقْتِدَارٍ دُونَ أَنْ يَنْقُصَ تَوَاضُعُهُ مِنْ مَهَابَتِهِ وَمَكَانَتِهِ شَيْئًا، بَلْ إِنَّهُ يَزِيدُهُ رَفْعَةً وَسُمُوًّا. تَعَلَّمْتُ مِنْهُ حِرْصَهُ عَلَى مَوَاعِيدِهِ الْمُنضَبِطَةِ، وَتَفَانِيهِ فِي تَدْرِيسِهِ بِصَحَّةٍ جَيِّدَةٍ؛ رَغْمَ تَقَدُّمِ الْعُمُرِ لَكِنَّهُ اسْتَطَاعَ الْمَحَافِظَةَ عَلَى ذَاكِرَتِهِ بِعَادَاتِهِ الصَّحِيَّةِ الْجَيِّدَةِ، وَبِمَا يَمْنَحُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْعُلَمَاءِ مِنْ بَرَكَاتٍ فِي الْجُهْدِ، وَالْوَقْتِ، وَالصَّحَّةِ، بِفَضْلِ مَسَاعَاهُمْ، وَنُبْلِ عَطَائِهِمْ.

كَمَا تَعَلَّمْتُ مِنْ كُتُبِهِ الْكَثِيرَةِ جُودَةَ السَّبَبِ، وَمُنَهْجِيَّةَ الْعِلْمِ، وَغَزَاةَ التَّحْلِيلِ، وَفِي كُتُبِهِ الْكَثِيرِ مِنَ الْفَوَائِدِ، وَالْعِلْمِ التَّخْصِصِيِّ الْكَبِيرِ،

ومن تلك الكتب على سبيل المثال لا الحصر: (كتاب قضايا لغوية، 1962م، وعلم الأصوات، ودراسات في علم اللغة، 1996م، ودور الكلمة في اللغة، وهو ترجمة لكتاب: **words and their uses**، وقد نُشر أول مرة سنة 1962م، وأعيد طبعه أكثر من خمس عشرة مرة، وعلم اللغة الاجتماعي، نشر أول مرة سنة 1992م، وأعيد طبعه (منقَّحًا) سنوات 93، 94، 1995م، وخاطرات مؤتلفات في اللغة والثقافة، 1995م، واللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم، نشر سنة 2000م، وفن الكلام، 2003م، وصفحات من كتاب اللغة، 2004م، ومجموعات، 2004م، وإذاعات لغوية، 2005م، والتفكير اللغوي بين القديم والجديد، 2005م) وغيرها.

وقد درَّس لنا واحدًا من تلك المؤلفات، وهو كتاب (علم اللغة الاجتماعي) دراسةً كاملةً، واستظهرناه عن عقلٍ وقلبٍ حاضرين، وتلقيناهُ عنه تلقياً مباشراً، وقد أدركنا من خلال ذلك الكتاب علمه، وتمكَّنه في التأليف، وفي عرض موضوعات اللغة بما شكَّل منهجاً (يُشرِّياً) خاصاً، و(كَمالاً) علمياً متحقِّقاً نافعاً لكلِّ قارئ وطالب علم جادٍّ مثابر.

رحمَ الله أستاذنا القدير وجزاهُ عنَّا وعن طلاب العلم والباحثين، وعن اللغة العربية وعلومها خيرَ الجزاء، وأثابه مغفرةً ورضواناً...

شهادة عالم لعالم:

أجدها مناسبةً جيّدة للتعبير عن استفادة الأجيال العلمية المتعاقبة من خبرات الشيخ الجليل، وأعرض في مقالي هذا ما كتبه الأستاذ الدكتور "عباس السُّوسة" عن شيخه الأستاذ كمال بشر؛ (وكنت قد نشرتُ المقال من قبل مع الصُّور على صفحتي بالفيسبوك، فاستدعى ذلك النشر التذكُّر لدى الدكتور السُّوسة، فكتبَ هذا التعليق بخطّه)، قائلاً: "لم أسمع بالدكتور كمال بشر إلا وأنا في السَّنة الثالثة، قسم اللغة العربية بآداب القاهرة (1979/ 1980)، شاهدته في برنامج (أمسية ثقافية) الذي كان يقدِّمه فاروق شوشة.

كان معه في تلك الحلقة د.السَّعيد محمد بدوي، أستاذ علم اللغة في الجامعة الأمريكية، لم أعد أذكر موضوع الحلقة. لكن اللافت أنَّ الضيفين كانا يتحدَّثان بمستوى الفصحى المعاصرة، دون تلعث، أو تلكؤ، أو تأثر بلغة الأم. فالأصوات الفصيحة: (ث، ذ، ظ، ج) من مخارجها التي ذكرها سيبويه، ثم علماء التجويد من بعده ملتزمة عندهما، ولا يظهر في كلامهما ببطء في النطق، بل كأنَّما يتحدَّثان في المربد أيام عصر الاحتجاج باللغة. أو قل: كأنَّما يتحدَّثان بالمَحكيَّة، وتنغيمهما للكلام لا يظهر فيه طابع محلي.

والتزام الفصحى دون تكلف في المحاضرة لم أجده عند من درَّسوني مباشرة في اللسانس (1977 - 1980) وتمهيدي الماضي (1981- 1982) إلا عند شيخي محمود فهمي حجازي، ومحمود مكي، وكمال بشر،

وسيدة هي د. سَهير القَلَمَاوي. وحتى لا نستطرد إلى ذكر العلماء الأفاضل - رحمهم الله - وهم يستحقون أكثر من هذه السطور، أعود إلى د. كمال بشر، الذي سمعته في السنة نفسها في إذاعة القرآن الكريم في برنامج عن ابن جنيّ.

في السنة الرابعة سافر د. حجازي إلى جامعة قطر، فترك فراغاً في القسم الذي حاول سدّه باستدعاء الدكتورين: د. كمال بشر من دار العلوم، ود. محمد عوفي عبد الرؤوف، لتدريس مقرراته.

أخيراً حلّ علينا - د. بشر - عامّاً جامعياً كاملاً في تدريس "علم اللغة الحديث"، رأيناه كهلاً قصيرَ القامة، حليقَ الشَّاربِ واللحية، موفور شعر الرأس يمشطه إلى الخلف، له شامة كبيرة ناتئة في ذقنه، على الجملة فيه شبه كبير من الأمين العام للاتحاد السوفيتي سابقاً "ليونيد برجنيف" أو قل: هو "برجنيف" مضغوط إلى نحو النصف. يحاضر وهو واقف، ويسير بين صفوف الطلاب، صوته فيه بحةٌ مميزة. محاضراته بالفصحى المعاصرة - كما وصفنا - وبين حين وآخر يتوقّف ليشعلَ سيجارة "مالبورو" تشتعلُ حتى ربعها، وقد يتوقّف ليقول نكتة أو يعلق على طالب أو طالبة، أو على مدير البريد الذي طرق الباب ليسلمه ظرفاً. ثم يضحك ضحكةً مميزة يظل الطلاب في حالة ترقّب، وتثوق لسماعها، وتكاد تسمع بعضهم يستعجلها منه: "قولها يا شيخ" فما إن يجلس بها حتى تسمع الفصل كاملاً يقهقه.

كان لديه مهارة فائقة في إيجاز موضوع المحاضرة في ربع ساعة أو توسيعه في ساعتين إلا ربعاً. وفي السنة التمهيدية كانت كلية دار العلوم قد انتقلت من مقرّها القديم في شارع المبتديان بالسيدة زينب إلى حرم جامعة القاهرة.

كنتُ أحضرُ دروسَ د. كمال بشر في مناهج البحث اللغوي في الصباح مع الطلاب الدَّرَاعِمَة - مع أنني لستُ منهم - أظني حضرتُ أغلبها. كانت في مكتب رئيس "قسم علم اللغة والدراسات الشرقيّة" أي مكتب "بشر" نفسه. ويصرُّ على أن يشرب الطلابُ شيئاً، ولا يقبل عذراً للامتناع عن الشرب، وبالطبع كان لا ينفك عن التدخين، وشرب القهوة المركّزة.

استفدتُ من محاضراته أيّما استفادة، سواء في رسالتي للماجستير، أو فيما بعد، حينما قُدِّرَ لي أن أحاضر طلابي في المناهج... ويستمر د. السوسوة في قوله:

"لم تنقطع استفادتي من د.بشر بعد التمهيدي، بل كنتُ أذهب لزيارته بعد أن سجّلتُ رسالة الماجي في (أبريل 1983) في "لهجة دمار؛ دراسة صوتية وصفية"، كان نهجي إذا تحيّرتُ أمام مشكلة، كيف أتصرف إزاءها، وكنت أجده كريماً بشوشاً دائماً، لا يملُّ، ولا يتضايق من أسئلي. وعندما انتهت صلاحية جواز سفري، وليس لي بطاقة جامعية، استعنتُ به في الدخول إلى الكلية...

وبعد أن سجّلتُ الدكتوراه (أبريل 1985) احتجّتُ إلى معونته في قراءة رسائل جامعية من مكتبة دار العلوم.

ثم صَعَفْتُ الزيارات. وبعد الحصول على الدوكي (1989) لم أزر مصر إلا في أول سبتمبر 1996، -وأنا عميد للآداب في جامعة تعز- في مدّة محدودة، لم أتمكّن من زيارة أحد إلا د.عوني عبد الرؤوف.

وبعدها بعام كنت في زيارةٍ لجامعة أسيوط، فعرّجتُ على شيخنا حجازي، وذهبت معه إلى المَجْمَع، وحضرتُ مستمعًا جلسة في لجنة الألفاظ والأساليب. وكان معه د.شوقي ضيف، ود.كمال بشر الذي كتب لي كلمة طيبة في دفتر التوقيعات.

ثم كنتُ أراه في أعوام: 2003، و2005، و2007، و2009 في مؤتمرات دار العلوم، إذ كان يحضر حفلاتها الافتتاحية. وآخر مرة رأيته في عام 2012م، وقفَ خطيبًا في المؤتمرين مُتَكَنًّا على عصاه، بطريقته المعتادة في المحاضرة. رحمه الله تعالى، وأجزل مثوبته! "...انتهى كلام الدكتور عباس السوسوة.

* (فصلُ الخطب) *

"اللغة تشبه الكائن الحيّ في التطوُّر، فالخيرُ في اللغة انعكاسٌ لخير أصحابِ اللغة، والشرُّ في اللغة انعكاسٌ للشرِّ في أصحابِ اللغة. أصحابُ اللغة

العربية هَجَرُوا هذه اللغة وعزلوها، فوقفت، وتخلّفت، ولم تجارِ العصر"
@د. كمال بشر.

تَحِيَّة

(هو الشَّيْخُ)
أصواته في ثنايا اللسانِ
وفي كلّ قلبٍ جرى بالبديع البيانُ
هو الشَّيْخُ
آفاقه رَحْبَةٌ
وطُلَّابُه في المَدَى يشهدون
وأثارُه في معالي الدُّروسِ
هي الضَّادُ تَنَعَّمُ بالمُعْجِزَاتِ
ويُورِقُ فيها ربيعُ الحَيَاةِ
وقد أشرقت في التُّفُوسِ
وميلادُها
كَلَمَّا عادَ ميلادُ أبنائها
ويولدُ من نبضها عَالَمٌ
يَسِيرُ

على نهج مَنْ قَدْ مَضَى
وَأَخْلَصَ فِي قَوْلِهَا
وَالْفِعَالِ
وخلَّدها في مَرايا الوجود
سَلامٌ على شيخنا
يومَ عاشِ
سَلامٌ على شيخنا
في الخلود...).





(6) الأستاذ الدكتور عبد المنعم تليمة
(الأستاذُ الإنسانُ، وفيلسوفُ النُّقادِ المعاصرين)

يصادفُ نهاية هذا الشَّهر ذكرى مرور عامين على وفاة أستاذي
الجليل، والعالم القدير، والناقد الكبير الأستاذ الدكتور عبد المنعم تَلِيْمَة
(31 أكتوبر 1937 - 27 فبراير 2017م) رحمه الله.

وكان قد بلغ الثَّمانين عامًا إلا قليلًا - وبلَّغتموها أيها القراء - تلك
الثَّمانون التي كانت حافلةً بالعطاء العلمي، والتأمل الفكري، والعمل
التدريسي، والمنجز الإنساني؛ حيث كان الناقد الكبير قد تخرَّج في قسم
اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب، جامعة القاهرة، سنة 1960، وعلى يد
أساتذة كبار ومفكرين وأدباء منهم الدكتور طه حسين، وتلميذته النجبية
سهير القلماوي التي أشرفت على تَلِيْمَة في رسالته، وغيرهم من أساتذة
جامعة القاهرة أمثال أمين الخولي، وأحمد لطفي السيد، وغيرهم من الكبار
الذين أثَّروا بعمق في فكره وحياته، ثم حصل من الجامعة نفسها على درجة
الماجستير في الأدب العربي الحديث، سنة 1963، وعلى درجة الدكتوراه في
النقد الأدبي الحديث سنة 1966. كما حصل على دبلومة عامَّة في التربية
وعلم النفس سنة 1961، ثم ليسانس في الآداب الكلاسيكية اليونانية
واللاتينية سنة 1985، من جامعة عين شمس. حيثُ كان يُدرِّس في كليته،
ويَتَعَدُّ في مقعد الدَّرس طالبًا في جامعة أخرى ليحصل على درجة علمية في
الآداب اليونانية ساعدته على تقديم مشروعه النقدي وأستاذيته المتفرَّدة
فيما بعد. وفي مسيرته الأكاديمية والوظيفية نعرف أنه قد عمل معيَّدًا
بقسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب، جامعة القاهرة، حتى سنة

1967، وتدرّج بالقسم نفسه من مدرس إلى أستاذ مساعد (مشارك) فأستاذ، ثم كان رئيساً للقسم من سنة 1994 حتى سنة 1997، ثم أستاذاً متفرغاً حتى وفاته.

وبوفاته "فقدت الثقافة العربية مثقفاً كبيراً، وناقداً متميزاً، امتلك فإذا الرؤية، وقوة المنطق، وإجادة التدريس، وتعمق النظريات النقدية الحديثة، والتراث النقدي العربي" كما جاء في نعي وزارة الثقافة المصرية له. كنت قد رأيته لأول مرة وأنا في السنة التمهيديّة لدراسة الماجستير من خلال محاضرة ألقاها علينا حين زار جامعة صنعاء في عام 1998م، وقد ألقاها علينا في مكتب قسم اللغة العربية وآدابها، أدهشتني غزارة علمه، وتركيز كلماته، وطريقة أدائه، ووضوح عباراته بظلال من الثقافة العميقة، والاطلاع الواسع، هو صاحب اسم كبير بوصفه ناقداً ومنظراً، كنّا قد اطلعنا على كتابيه الشّهيرين: "مقدمة في نظرية الأدب"، و"مداخل إلى علم الجمال الأدبي". ذاك الكتابان اللذان كان لهما الأثر الواضح في تعريف دارس الأدب بنظرية الأدب، وبأصولها العميقة وبدرسها الفلسفي الذي يربط الأدب بنظرية المعرفة، كما عرّف كتابه الآخر الدارس العربي بمجالات علم الجمال ومداخله، واستمرّ هذان الكتابان في أثرهما وتأثيرهما لعقود تالية لا غنى لدارس الأدب والنقد عنهما في بحثه أو دراساته وقراءاته النقدية، ولا تكاد تخلو رسالة علمية أو أكاديمية من الإشارة إليهما، والاستفادة منهما.

كنتُ وأنا طالبٌ في البكالوريوس قد عرفتُ شيئاً عن هذين الكتابين من خلال إشارات طالبيهِ وأستاذنا الدكتور رياض القرشي الذي رأينا منه احتفاءً كبيراً بأستاذه ومرافقته في زيارته تلك للجامعة صنعاء، وكان ملازماً له في كل خطواته وتحركاته، فوقع في نفسي من هذا الأستاذ الزائر الجليل موقعاً كبيراً لعلَّ الأقدار ستسوقُ إليه، وبالفعل حين بدأتُ دراسة الماجستير في القاهرة ذهبتُ إلى مكتبه في قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب، جامعة القاهرة، وانتظرتُ محيئه، وأنا أتلَمَسُ خطواتي الأولى في البحث عن مُشرفٍ لمرحلة قادمة فيها من الصعوبات والقلق ما تحاول فيه النفس - وسط هذا الخضمِّ المعرفي والزخم الكبير من الأسئلة- أن تبحث عن مُرشِدٍ يدهُما، وينيرُ لها الطريق، وتتكى على يدٍ بصيرةٍ مرشدةٍ. انتظرتُ محيئه الذي أخبرني عنه "عم ربيع" -ساعي القسم- بأنَّ موعدهُ يوم الخميس الساعة الثانية عشرة ظهراً، فانتظرتُ مَقْدَمه، وأنا أفتَحُ مكتبهُ الخشبي في زاوية القسم اليسرى بعد الباب، وأشاهدُ الأساتذة من أعلام القسم يتحدثون، ويتحاورون في أمور العلم، والحياة، والطلاب.

وفي الموعد المحدد وصل الأستاذ المهيب الدكتور عبد المنعم تليمة بقوامه الفارع كأنَّه فارسٌ قديمٌ من حضارة قديمة فيها رشاقة الفرسان، وتؤدَّة العلماء، وجلال الأمراء، يزينه صمْتٌ وقور، ونظرة تأملية تحمل الكثير من القول، والبصيرة، والأمل.

وبعد أن أخذ مجلسه، وتأمل بريدّه، وشرب قهوته هرعتُ إليه مسلّمًا، وعَرَفْتُهُ بنفسِي، أنا فلان من جامعة صنعاء، وكنتُ أحد من جَلَسَ إليك في محاضرة طلاب الدراسات العليا بقسم اللغة العربية قبل عدّة أشهر، فقال مبتسمًا مُرحَّبًا بروحه العذبة الأبوية: "أهلاً يا إبنِي، إزَيْكَ؟ وازيِّ الدكتور المقالح، وازيِّ صنعاء وأهلها؟".

ثمَّ أردف حين عَلمَ رغبتِي في الاتصال به، والتلمذ على يديه، فقال: "أهلاً بأهل اليمن، إنَّ عليَّ دينًا؛ حانَ قضاؤه، فقد درستُ على يد الأديب اليمني الكبير (علي أحمد باكثير) اللغّة الإنجليزيّة، وأنا في التعليم الأساسي، وله عليَّ يدٌ بيضاء، وله فضلُ المعلّم الجليل، ولعليّ بك، وبمن أشرفتُ عليهم من اليمنيين أوفيّ بعضَ ذلك الدّين!".

كانت لكلماته هذه ولروحه الإنسانيّة العالية في نفسي أبلغ الأثر وأعظم الأمل! وبعثت فيّ الاطمئنان، إذًا فقد وجدتُ من سيصحبني في رحلتي الطويلة، ومن سأتبعه ليعلمني مما علّم رُشدًا، وأنعم به من صاحبٍ ومرشدٍ! سيكون لي عونًا ودليلاً.

ذلك اللقاء المثمر في أول جلسة قد فتح لي سبيل العبور وطريق الماجستير، وتَبَعَ ذلك اللقاءَ جلساتٌ ولقاءاتٌ متعدّدةٌ في طريق الرسالة وبناء خطّتها، وكان ذلك مقرونًا بدمائة العالم، وجلال المشرف، وروحه الأبوية القديرة.

أخذتُ رقم تلفونه، وعنوان منزله في (3 مكرر شارع الطوبجي) الذي سيغدو مدرستي المحببة المفيدة لكل خميس، ذلك اليوم الذي اعتاد الأستاذ أن يفتح فيه منزله وقلبه لكل العلماء والأكاديميين والأدباء ورجال الإعلام والطلاب للنقاش والندوات والمحاضرات والحوارات منذ أكثر من أربعين عاماً، وهو لا ينقطع عن الوراد والرواد، ولا عن المحبين لآفاق العلم والمعرفة والجديد المختلف في ما يسمعون ويشاهدون من المعلم وضيوفه الكبار المتميزين من كل المشارب والفنون: من الفلسفة إلى الطب إلى الثقافة إلى الأدب بفنونه المختلفة إلى السياسة إلى جوانب الحياة المتعددة المتنوعة في ندوة مفتوحة، ونظام منضبط لا ينفرط عقده مع حرّيته الواسعة في الطرح والنقاش بروح مصرّية خالصة فيها من آفاق الجمال، والرصانة، والدعابة الذكية، والسمو الشيء الكثير، وقد يختلف فيه من يختلف مع غيره في الحوار أو الطرح أو النقاش، ولكن يظل ذلك في مدار الاحترام والإجلال الذي كان يزينه ويضبط مساره الأستاذ والمعلم الكبير تليمه بحضوره المهيّب، وبعمق ما يجمع فيه من جوامع المعرفة وروح التأمل والذوق المعرفي والإنساني، وأدب الحوار والاختلاف.

كانت ندوة الخميس أو (صالون تليمة الثقافي) في منزله أفقاً ومدرسةً متنوّعة تعرّفتُ فيها على الكثير من أعلام الأدب والفكر والثقافة والفلسفة والفن وغيرهم في مصر والوطن العربي، ومن استمعت إليهم فيها:

(الدكتور صلاح قنصوه) وتأملاته الفلسفية وآرائه الثاقبة، واستمعتُ إلى (فؤاد قنديل) وعوالمه القصصية الجميلة، وإلى (حلمي سالم) وشعره التأملي العميق، وإلى (السيد إبراهيم محمد) وحواراته الأكاديمية وشعره الرصين، وإلى (نصير شمه) وتأليفاته الموسيقية بالعود، وإلى (أحمد فتحي) الموسيقار اليمني، وإلى (أماي فؤاد) وتطلعاتها البحثية، وإلى (كمال حسين) وعوالمه المسرحية والشعبية، وإلى (طه وادي) وحكاياته ونقده، وإلى (أحمد الشيخ)، و(ياسر العدل)، و(محمد المنسي قنديل)، و(عاطف عبد العزيز)، و(نسيم مجلي)، و(نجاة علي)، و(صلاح السروي)، و(وجيه القاضي)، و(عبد المنعم رمضان) وغيرهم، ومن الأدباء العرب (ليلي العثمان) من الكويت، و(محمد برادة) و(محمد مشبال) من المغرب... وآخرين، عوالم كثيرة، وعشرات من الأعلام والأسماء الكبيرة التي التقيتُ بها مباشرةً في مدرسة تليمة الأسبوعية للثقافة والعلوم التي لا رسوم لها سوى الحُبِّ والمعرفة، ولم تغلق أبوابها أمام أحد خلال عقود خمسة -تقريباً- إلا حين يغيبُ صاحبُها في غياهب السَّجن؛ تصرفه إلى حين بسبب مواقفه السياسية اليسارية أو آرائه التنويرية التي كانت تقلقُ الحاكم فيحبسه، أو يغيبُ عنها في شهر أغسطس من كل عام حين يذهب الأستاذ لمصيفه المعتاد أو لسفره إلى اليابان في مهمة علمية، وقد قضى في هذه الأخيرة عشر سنوات تقريباً أستاذاً، وكان أول من ذهب إلى هذا البلد المتحضر كي يفتتح فيه قسماً للغة العربية في مدينة أوساكا، وفي جامعة أوساكا للدراسات الأجنبية باليابان، ثم

تبعه أساتذة آخرون لنشر اللغة العربية والمعرفة العلمية في ذلك البلد الجميل المتحضر، أما حين يكون الأستاذ موجوداً في القاهرة فإنّ مدرسته تكون حافلة بالكثير من العلم، والنقاش، والفوائد في ذلك المجلس العامر.

وتأتي في كلّ قضية تُناقش الكلمة الفصل والتعليق الختامي للمعلّم الذي يُلقى فيها مداخلته بخلاصة مفيدة وعلم غزير ورأي لا يجانب الصواب غالباً مع إدارة جيدة لدفة الحوار، وطرائق التناول، وقد أوتي من القدرة، وفصل الخطاب، وسعة الاطلاع ما أوتي! حين يضع الخلاصات، أو الختام المدهش في كلّ قضية تُطرح أو فكرة تدار بروح الفيلسوف العالم والمطلع الفاهم، فقراءاته واسعة، ومتابعاته مستمرة لكلّ جديد.

كم كان يدهش الكثير حين تجده يفاجئ أديباً أو شاعراً أو قاصّاً أو أكاديمياً بأن يخبره عن قراءته أو مقاله أو نصّه في صحيفة كذا أو مجلة كذا، وقد يحتفظ له بنسخة ادخرها له من تلك الصحيفة أو المجلة، وما أدقّ متابعاته رغم انشغاله الكثير بالإشراف والكتابة هنا أو هناك لكنّه قد اتخذ من منزله - في الفترة الأخيرة - ميدان انطلاق، وصومعة متبتّل متأمل للعلم والثقافة، والاتصال بالآخرين، ويتميّز أستاذاً فيما يتميّز بقدرة في حساب التاريخ وتحديد يوم واليوم والرقم حتى ولو كان بعد أسابيع، فيقول لك مثلاً: "تاريخ 3/5 سيصادف يوم الأربعاء أو يوم الخميس... الخ دون أن يرجع إلى التقويم، وقد لاحظت ذلك عليه أكثر من مرّة.

وتمرُّ السنوات، ويكون سقوط بغداد؛ فيؤثِّر ذلك على روحه العربية القومية، فيسقط صاحبنا صِحِّيًا لفترة كادت تكون هي القاضية، يدخل مشفى القصر العيني، ولكنَّ حبَّ النَّاس له، والتفافهم حوله، وتشجيع الدولة، ومنحه جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام 2004م، واتصال الرئيس المصري -حينها- حُسنِي مبارك به، ودفع فاتورة العلاج وتكاليف المستشفى مع مبلغ من المال أمر به الرئيس، وقد روى لنا بعد أن تَعافى ما قاله الرئيس له: "انت ما خَدَش حاجة، وأعطيت مصر كلَّ عمرك، وحياتك، انت لِسَّه بخير ومصر محتاجة ليك، وبلاش تتشاقى يا مُنْعِم..." مكالمة الرئيس وموقف الدولة والتَّفاف محبيه - بعد إرادة الله سبحانه - بعثت فيه روحًا جديدةً، وعاد طائرُ الفينيق محلَّقًا من جديد بعد أن أوشك على مُشابهة الرماد، والتماهي معه، وبعد أن أوشك على السُّقوط كأحلامه القومية، وكبلدان العرب من حوله التي بدأت تتهاوى، وتسقط واحدةً واحدةً، لكنَّه يقاومُ ويستأنفُ الحياة من جديد، ويعود له بهاؤه، كما يرجع لنا أملنا فيه كطلابٍ عِلْم، فنستمرُّ في مواصلة البحث والاطلاع، وهو يدير دَقَّةَ الإشراف، ومراقبة المسير.

يأتي عيدُ ميلاده السَّبعين في (2007م) فيكون تَظَاهِرَةً ثقافيةً كبيرةً لأدباء مصر ومثقفِيها، ولتلاميذه ممن هم في القاهرة من أبنائها أو من خارجها من العرب، ويكون الاحتفالُ به في مقرِّ حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي في (1 شارع كريم الدولة - ميدان طلعت حرب)،

ويصورُ الجميعُ للأستاذ الجليل عباراتِ الوفاءِ، وكلماتِ التقدير، ومعاني التبجيل، فيكون حفلهم تاجاً يستحقُّه، وإكليلاً يليقُ به. إنه احتفاءً بالقيمة المُسمَّاة (تليمة)، احتفاءً بالوفاء، بعودة الروح، بصدق الموقف، وبالكلمة العالمة، وبالعطاء المستنير.

في إشرافه عليّ -الذي أشرف به- في الماجستير والدكتوراه كان يتيح لي فرصة القولِ والبحثِ، وبناء رسالتي دون تدخلٍ منه في شيءٍ من مباحث الرسالة وفصولها، لكنَّه كان يفتح لي آفاق القراءة، ويمدني بالأطر العامَّة، ويزوِّدني من مكتبته الخاصَّة العامرة بما ينفعني، مع تسهيل الأمور الإدارية، والتواصل مع الأساتذة والمناقشين، إنه حقاً نعم الأب، ونعم المعلِّم، والإنسان، له من الخلق الرفيع، وجمال المنطق، وحفاوة اللقاء، وصدق العلم والنصح ما فيه.

تعلمتُ منه الكثير في ميدان العلم، وجوانب الحياة وآفاقها، وفنون القول وأنواعه، ولا أملك له بعد كلِّ ذلك إلا الحبَّ، والدعاء، والذكرى.

* (فصلُ الخطاب) *

"إنَّ الماهيَّة الاجتماعية لعلاقاتِ البشر بالطبيعة تُنشئ - في بعض الصياغات الفكرية - وهماً يقصُر (الواقع) على (المجتمع) بينما الصَّحيح أن الواقع ينتظم الطبيعي والاجتماعي في آنٍ، كذلك فإنَّ الماهية الجمالية للفنَّ

تنشئ - في بعض الصياغات الفكرية - وهماً يقصر (الجمال) على (الفن)
بينما الصحيح أنَّ الجمال يوجد في الفنّ، وفي غيره من الظواهر والأحياء
والأشياء " @أ.د/عبد المنعم تليمة (كتاب مداخل إلى علم الجمال الأدبي).

تَحِيَّة

(جَمالٌ يَسِيرُ
خُطَاهُ الْعُقُولُ
وَسِيرَتُهُ أَفَقٌ مِنْ وَفَاءٍ
هُنَا الْقَاهِرَةِ!
بِكُلِّ الْفُنُونِ
هُنَا مِصرُ!
أَبْنَاؤُهَا الطَّيِّبُونَ
وَفَيْضُ نِدَائِهَا
وَنَيْلُ هُدَاها
وَأَعْلَامُهَا كَالْجِبَالِ
هُنَا عَوْدَةُ الرُّوحِ فِي كُلِّ فِكْرٍ
وَفِي كُلِّ قَوْلٍ
وَفِي كُلِّ بَابٍ!

هنا شامخُ المجدِ
إنسانُها
و(تَلِيْمَةً) هَرَمٌ آخِرُ
في فَضَاءِ البَهاءِ

وفي نَبِضِ أُنْبَاءِهِ
في جَمِيعِ الفُنُونِ
سَلامٌ عَلَيْهِ
مَتَى مَا أَتَى نَارَهُ قَابِسُ
وما زَارَهُ الرَّائِرُونَ...).



(7) الدكتور طه أحمد أبو زيد
(تَوَاضَعُ الْيَمَنِي، وَمَوْسُوعِيَّةُ الْأُسْتَاذِ الْأَزْهَرِيِّ)

حينَ تجتمعُ في الأستاذِ خصالُ الثُّبُلِ، وآفاقُ المعرفة، وجمالُ المنطق، وموسوعيَّةُ الفكر لا بدَّ أن يكون وراء ذلك كلّ رحلة علمية مليئة بالطموح والتحصيل، مكتنزة بالأمل، متدفقة بالرجولة المبكرة، والعصاميَّة النابهة لتحقيق الذات والعمل على تنميتها، ووضعها في المكان اللائق بها، في مجتمع القرية التي تنتابها شحّة الموارد، وضعف الإمكانيات، لكنها تمتاز في الوقت ذاته بأنها منجمٌ لتصدير الكوادر البشرية، ومخزناً لإنتاج المحبة، وهي المنبع الحقيقي للرجولة والتقاليد الراسخة في ذوات أبنائها الذين يحملون الكثيرَ من معاني الوفاء، والمنافسة، والحضور، والتميز، والقوّة.

وحينَ نتحدّثُ عن هذه المعطيات نريدُ أن نصفَ واحداً من أبناء القرية، ولد في "قرية (ذي ناصر) في بيت الصّايدي من ناحية الشَّعر، لواء إب" تلك المحافظة التي تصدّر الكفاءات عبر تاريخها، وتتوارث الغربة في أبنائها، وحين ينشؤون في بيئةٍ ترى الترحُّل حياةً، والمكوث في القرية ركوداً ومواتاً.

من هنا سيخرج الطفلُ ذو الاثني عشر ربيعاً لطلب العلم والسَّعي وراء تحصيله، فيغترب مبكراً في سنٍ هي الآن لا تجعل من يعيش فيها يذهبُ منفرداً إلى مدرسته التي بجوار المنزل، فما بالك بمن سيترك أهله وقريته، ويسافر إلى مدينة (ذي جبلة) من محافظة إب ليتلقّى تعليمه في علوم الفقه واللغة وحيداً، ومنها إلى مدينة (تعز) ليستزيد من التعليم

النظامي في مدارسها البسيطة حينئذٍ، فيكون أحد الأوائل العشرة المتخرجين من المعاهد العلمية عام 1965م، فيؤهّله ذلك التفوق لينال منحةً إلى الأزهر الشريف، ويأخذ الثانوية فيها عام 1967م من معهد البحوث الإسلامية بالأزهر، ومنها تبدأ حياة علميّة جامعيّة أخرى لا تنتهي إلا بأعلى الدرجات: ليسانس أدب 1972، وماجستير 1983، ودرجة الدكتوراه (العالمية) 1989م في الأدب والنقد، وجميعها في جامعة الأزهر. ومن تكن العليا همة نفسه.. فكلّ الذي يلقاه فيها محبّب.

حديثنا اليوم عن أستاذه القدير الدكتور طه أحمد أبو زيد (1948 - 8 / 3 / 2000م). أستاذٌ يمتازُ بصفات نبيلة، وخُلُق جَمٍّ، وتديّن حقيقي بفطرة المسلم الصادق، وأفق الأزهرى العالم المدقّق، وبموسوعية الجليل المتعدّد المعرفة والتلقّي، والقراءة، والعطاء.

الدكتور طه أبو زيد (رحمه الله) كان من الأساتذة الذين درّست على يديهم في كلية الآداب بجامعة صنعاء، وكان طلابُ كلية التربية حينها -وأنا واحد منهم- يدرسون بعض المقررات الأدبية والنقدية مع زملائهم من طلاب كلية الآداب في قاعة (الإدريسي) تحديداً، كنا نلتقي بأستاذنا الذي يحاضر أكثر من مائتي طالب وطالبة من الكليتين، يحدّثنا عن الأدب الإسلامي والأموي في الفصل الدراسي الأول من العام الجامعي 90/ 1991م، وكان قد عاد قبلها بعامين فقط حاصلاً على الدكتوراه بامتياز؛ وتوصية بالطباعة من جامعة الأزهر عام 1989م تلك الجامعة العربية

والحريصة على ألا تمنح مثل ذلك التقدير إلا للمتميزين من طلابها سواء كانوا مصريين أو كانوا عرباً وافدين.

كان حين يقف محاضراً تتزاحم المعرفة والتفاصيل في كلماته، وتكثر الاستطرادات والقضايا الأدبية والمعرفية في أسلوب طرحه الذي كان ربما يضيق به ذرعاً بعض الزملاء ممن تعودوا على الملزمة المحددة، أو الكتاب المقرر، ولعلي لا أخرج عنهم، وما أنا في تلك المرحلة العمرية والتحصيلية (إلا من غزية إن غوت غويت...) - كما قالها قديماً دريد بن الصمة - وكنا نلاحق ما يقول وندونه، ونحاول أن نقيّد بالقلم تلك الشوارد، وما نستطيع جمع شتاته في المحاضرة لمذاكرته مستقبلاً. لا شك أن قضايا الأدب في العصرين الإسلامي والأموي كثيرة ونتاجهما الأدبي غزير، وأدباء العصرين كثر، وما كان كتاب الدكتور شوقي ضيف الذي أحالنا إليه أستاذنا بعد عددٍ من المحاضرات - وبإلحاح منا في تحديد مرجع - إلا واحداً من المراجع التي سنعتمد عليها في هذا المقرر، ولكن الأستاذ حين كان يحاضرنا ينطلق في آفاق الأدب، وكأنه يحدث علماء مثله تعلموا، وقرأوا من الكتب أضعاف أعمارهم.

ولكنّا حين رأيناه مُحلّقاً لم نطلب منه التراجع أو التحليق بارتفاع قريبٍ منا، بل حاولنا اللحاق به في آفاقه، وذلك شأن الأستاذ الذي قد يُتعب الطالب ليعلمه، أو قد يستثيره ويتحدّاه ليظل في ذاكرته، ويحمد له

صنيعه المعرفي غداة يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرى، وصبيحة يجد المتخرجُ أثر ذلك في تحصيله العلمي والمعرفي، عندما يواجه الميدان.

وبالفعل كان أسلوبه الواسع وإنشائيته الخطابية في محاضراته مختلفًا عن البقية، وذا نسيج خاص يجمع بين أسلوب العلماء الموسوعيّين، وبين المتخصصين العارفين، ولهذا حتّى أنّ أسئلة الاختبار والتقويم اختلفت كثيرًا عن المباشرة، وطلبت في صياغتها الكثير من الإجابة في وقت الاختبار المحدود، وكتبنا في ثلاث ساعات ما يحتاج إلى الإجابة في أكثر، وكان تقدير (جيد جدًّا) من نصيب بعضنا ومنهم محدّثكم وعدد من زملائه، وكان بالإمكان الحصول على أكثر من ذلك لو كان في الوقت مُتَّسِع.

ثم تمرُّ الأيام وألتقي بأستاذي من جديد في العام الدراسي الجامعي 1995/94م في مقررات (المقاصّة) في الآداب، وفي هذا العام يُعَدُّ الأستاذُ بحثًا متميزًا هو حصيلة جهد، وقراءة، ومتابعة عن (الأدب الجاهلي في اليمن، الموضوعات والسّمات الفنية) وهو مشروع ضمن أبحاثه، وقد عَرَضَهُ على طلابه مصوّرًا في مسوّدَة أوّلِيّة، وقرأناه مخطوطًا قبل أن ينشره في مجلة الثوابت المحكّمة في عديدها العاشر والحادي عشر (يوليو سبتمبر 1997م)، ثم في كتاب موسّع ومنقّح صادر عن دار النشر للجامعات بصنعاء عام 2000م.

وما يميز هذا (البحث/الكتاب) أنه اجتهاد مختلف يترصّد الخصوصية في الموضوع، والفنيات في التشكيل والبناء للأدب الجاهلي في

اليمن، وليس مما هو في كتب الأدب العربي عن الأدب الجاهلي بشكل عام، وقد بذل فيه الأستاذ جهداً كبيراً في تتبُّع المصادر والمراجع التي ترصد الأدب الجاهلي في اليمن على وجه التحديد؛ حيث ينطلق الكتاب من فكرة "أن الأدب العربي في اليمن ظلَّ مجهولاً عند الباحثين العرب كما ظلَّ مجهولاً عند اليمنيين أنفسهم... نظراً للإهمال الذي مُني به الأدب العربي في اليمن بينما اهتمَّ أدباء كل قطرٍ عربي وكتَّابه بإبراز تراثهم، فأولوه اهتماماً بالغاً في مصر، والشام، والحجاز، والمغرب العربي..."

وكان يناقشنا في محتواه ونحن طلاب علمٍ، فلا يضنُّ علينا بعلمه، ولا يظنُّ فينا إلا خيراً لعلنا -ببساطة معرفتنا- نوحى له بفكرة أو نناقشه في أمرٍ ليس عجزاً منه -وحاشاه- ولكن لبيتٍ فينا الاعتزاز بتراثنا الأدبي، وبكنوز اليمن الدَّفينة عبر تاريخها التي لم تتح لها الفرصة ولا لأبنائها في الاستقرار لدراسة تلك الكنوز والاهتمام بالبحث الجادَّ والقراءات الواعية، وهو بذلك يضعُ فينا بذورَ السؤال، وقلقَ التأمل لتغدو قراءاتنا مستمرة في هذا المجال، وهو يدرك أهمية أن يناقش الأستاذُ طلابه، ويستعمل معهم العصف الذهني والفكري المنتج، ليكونوا استمراراً حقيقياً لمشروعه.

تعلَّمتُ من أستاذي الدكتور طه أبو زيد -رحمه الله- التواضع في رفعة، وحسن الحديث في لباقة ولياقة، والقرب من طلابه، والحوار مع المتميزين منهم في أدبٍ جمٍّ، وسَمَتٍ وقور.

زرناء في منزله ذات رمضان من العام 1997م، وكان حينها قد عاد من رحلة علاج في أمريكا، وكُنّا عددًا من الزملاء -الذين أصبحوا جميعًا أساتذة جامعات الآن- ومنهم: د. عبد الرحمن الصعفاني، د. فاضل القعود، د. أحمد المنصوري، د. رصين الرصين، د. محمد جميح، د. حيدر غيلان... وليعذرني من ربما نسيت حضوره أو أقحمته في ذلك اللقاء من الزملاء، كانت الزيارة للسؤال عن صحته، والجلوس إليه في منزله الكائن في شارع الستين، وهو من منازل الأوقاف التي كانت تستأجرها جامعة صنعاء ليسكن فيها أعضاء هيئة التدريس، وكانت ليلة من ليالي المعرفة والودّ والوفاء، حدّثنا فيها عن مرضه وعن رحلته، ومدى اتصاله بأمريكا وعوالم الحياة المادية فيها، لكنّ تركيزه كان على وصف الحالة العلاجية، وكيف كان للقرآن الكريم معه أبلغ الأثر في العلاج الذي حَيَّر بنتائج الأطباء، وكيف كان علاجه الروحي أكثر أهمية وأسرع أثرًا في نتائجه من علاجه بالعقاقير، شرح لنا الكثير من تلك الآفاق بروح مؤمنة، وبعبارة مشرقة دلّت على مقدار الأمل في نفسه، فبعثت في وجداننا بكلماته إشعاعات وجدانه ودخائل روحه المؤمنة بقضاء الله وقدره دون تذمُّر أو شكوى، فأدركنا أننا أمام عارف متبصّر، وإنسان تجاوز ماديّة الحياة إلى روحانيات الأفق الأسنى، خرجنا من لديه، وذلك إحساسي على الأقل -بأني كنت في حضرة علم من أعلام النِّقاء والزهد والإيمان.

وعلى الرغم من حضور المتنبي وسيفياته في تلك الليلة وما يحفظ من شعره، وحضور أبي تمام، والبحتري، والفرزدق، وجريز، وغيرهم إلا أنني كنت أتلَمَسُ في حديثه عوالم العبارة المشرقة، والأفق الروحاني الصادق، ربما كان ذلك لاتصاله بروح جدّه الأعلى "أبو زيد محمد بن عبد الرحيم" - كما يقول عنه أستاذاً وهو يعرف بنفسه في واحد من كُتُبِه -: حين يسلسل نسبه إلى الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب "بأن جدّه - هذا- انتقل من مدينة الأشراف (الرزاقات) في صعيد مصر مهاجراً إلى مكة والمدينة سنة 1260هـ، ومنها إلى اليمن سنة 1280هـ، وقد توفي في مدينة إب سنة (1337هـ) وكان عالماً متصوّفاً بطريقة مبنية على الأسس العلمية للصوفية الشرعية، وله معرفة بعلم الكيمياء، وبهذا فقد جمع بين العلم والزهد" ومن هنا فقد نشأ اهتمام الدكتور طه بدراسة شعر التّصوف، وظهرت بعض دراساته وكتابات في هذا المجال نقدًا وتحليلاً، كما ظهر اهتمامه بالشعر اليمني بشكل عام في عصوره المختلفة.

تقول ابنته الدكتورة "أمة الكريم طه أبو زيد" الأستاذ في قسم المناهج وطرائق تدريس العلوم بكلية التربية جامعة صنعاء واصفةً حالته الإيمانية: "كان إيمان الوالد بالله عزّ وجلّ عميقاً صادقاً مخلصاً لله في كلّ أقواله وأفعاله، كان لا يترك قراءة القرآن الكريم يوماً واحداً، وكان إذا تعرّض لمحنةٍ أو وعكةٍ صحيّةٍ، فإنّه يلجأ إلى الله سرّاً وجهراً، ويتداوى بالقرآن،

ويتدبّر معانيه فيشعر بعدها براحة تامة مهما بلغ مرضه.. رحمة الله
تغشاه!".

وحين اقترب موعد الانصراف في تلك الليلة ودّعه - وكان آخر
لقاء لي به - وقد شدّ على يديّ، وهو يشجّني بقوله: "أستمعُ إلى ما تكتبه،
وما تقدّمه للأطفال من مسابقات ثقافية من خلال إذاعة صنعاء، وهذا
ميدانٌ مُهمٌّ، وحقل نفقتر إليه كثيرًا في إعلامنا، وأنت تسدُّ ثغرةً واضحةً،
فاستمر في كتابتك وعطائك للطفولة". كانت كلماته دافعًا ومشجّعًا لي،
وبخاصّة أن تلك السنة كان فيها أول اتصال لي بإذاعة صنعاء والكتابة
لجمهورها الكبير، وللطفولة، وأعقبها كتابات أخرى مسرحية، وطلابيّة،
منها المسابقة الثقافية للأطفال التي كانت بعنوان (عالم المعرفة) وهي قصص
ممثلة بأداء نجوم التمثيل والمسرح الوطني، وتتبعها أناشيد مغناة من ألحان
الموسيقار فؤاد الشرجي، وإخراج الأستاذ طاهر الحرّازي.

وفي العام الذي يليه 1998م قدمتُ للإذاعة (حكايات) في ثلاثين
حلقة إذاعية ممثّلةً ومسلسلةً، من إخراج سمير المذحجي.

أدركتُ ارتباط أستاذي بالعمل الإعلامي، وهو حين يشجّني
ويشدُّ على يديّ المرتعشتين بخبرتهما البسيطة إنما يبتُّ فيهما روحَ الثبات،
والأمل بالتوسّع والاستمرار؛ لأنّه كان مرتبطًا أشد الارتباط بالعمل الإذاعي
منذ أن تمّ تعيينه مشرفًا على برامج إذاعة صنعاء عام 1972م، وبعدها على
إذاعة (تعز) إضافة إلى عضويته لهيئة تحرير صحيفة الجمهورية، وتأسيسه

لصحيفة (الأمل) ورئاسة تحريرها عام 1976م، وقد ظلّ مرتبطًا بالعمل الإعلامي والصحفي حتى بعد قيام الوحدة اليمنية المباركة في العام 1990م حيث انتُخبَ عضوًا في نقابة هيئة التدريس بجامعة صنعاء وعدن، وبحكم خبرته الطويلة في العمل الصحفي، عُيِّنَ مديرًا لتحرير صحيفة (الجامعة) الصادرة عن النقابة.

وقد شغل عددًا من المناصب الإدارية والأكاديمية حيث انتُخبَ رئيسًا لقسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة صنعاء في العام 1996/1997م، ولم تطل فترته لانشغاله بعمادة كلية الآداب والتربية بجامعة العلوم والتكنولوجيا في الفترة نفسها.

صدرَ لأستاذنا أكثر من كتابٍ علمي وتعليمي، منها: كتاب (إسماعيل المقري؛ حياته وشعره)، (رسالة الماجستير)، صدر عن مركز الدراسات والبحوث اليمني صنعاء، ودار الآداب ببيروت، وكتاب (الثقافة والأدب العربي خلال عصور متتابعة ونصيب اليمن منه) دار الجامعات اليمنية 1420 - 2000م. وكتابان آخران عن الدار نفسها، هما: (الموسيقا وموسيقا الشعر)، و(الأدب الجاهلي في اليمن؛ الموضوعات والسمات الفنية). وله من الأبحاث العلمية الكثير، نذكر منها:

- الشعر في اليمن من 1045 - 1289هـ، الموضوعات والخصائص الفنية، (رسالة الدكتوراه)، مخطوط.

- دور اليمن في التكوين الثقافي لعصر النهضة العربية الحديثة، بحثٌ محكمٌ ومنشورٌ في كتاب المؤتمر العلمي الأول لنقابة هيئة التدريس لجامعتي صنعاء وعدن المنعقد في الفترة من 15-18 نوفمبر 1993م.
- الصّحافة الأدبية في اليمن "نشأتها، وتطورها، وأجناسها الأدبية، وخصائصها الفنية" (نُشر ضمن كتاب المؤتمر العلمي السّابق).

- دور الصحافة الأدبية في الحياة اليمنية، مجلة دراسات يمنية.
- شعر التصوّف في اليمن من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر الهجري، الموضوعات والخصائص، نُشر في مجلة كلية الآداب جامعة صنعاء في العديدين (20-21)، العام 1997م.

- الصور الفنية في المديح النبوي لدى شعراء اليمن خلال العصر الإسلامي الوسيط. وغيرها من الأبحاث والدراسات.

والمُتأمل في ذلك الجهد، وفي هذه الكتب والأبحاث يقرأ فيها سيميائية اهتمام أستاذنا الدكتور طه أبو زيد باليمن الذي لم يغادر وجدانه يوماً، بل زاده البعد عنه والاعتراب للدراسة قرباً من نفسه، وحضوراً في قراءاته واهتماماته، فاليمن من الجاهلية إلى العصور الوسطى حتى العصر الحديث حاضر بقوة في كتاباته، وأبحاثه، وقراءاته.

واليمنُ بروحه التاريخي والديني وأفقه المعرفي والصّوفي والإعلامي موجود في تلك الأبحاث، بل في ثنايا كلّ كلمة، وجملّة، وعبارة تنبضُ بروح اليمن، وبأفق إنسانها، وبطلعات حاضرها، واستشراف مستقبلها من

خلال فهم الماضي، واتخاذهُ فنارًا للإبحار، ومنارًا للمسعى، وبوصلةً للعبور إلى أفقٍ أجمَل ومستقبلٍ أكثر إشراقًا، عاش هذا الأستاذُ الحالمُ المحبُّ عقدًا من حياة الوحدة اليمنية الفتية، وظلَّ مؤمنًا باليمن الكبير حتى آخر نبضة من قلبه، ومعلّقًا الأملَ في إنسانه التّقي الواحد الموحّد بأفكاره، وبدينه، وبتراب وطنه، وباهتمامه بالعلم والمعرفة، وبعضاميّته التي لا تقبلُ الخَوَر، ولا تعترف بالنكوص، بل حتى إنها لا تستسلم للمرض، ولا ترضخ له طرفة عين، إنها نفسه اليمنية الأبيّة التي منبعُها الإيمان الفطري المعتدل، وسلوكها الإخلاص والبساطة، وغايتها البناء وحبّ الحياة، ولهذا فإنّه في مسعاه العلمي والمعرفي والإنساني ظلَّ ذلك الأصيل بروحه وبكلمته الشاعرة والعالِمة والمعلّمة معًا، متخذًا من الشّعْر الذي كان ينظمُه في أوقات متباعدة، ولأغراض مختلفة طريقًا للتعبير عن موقفٍ ما، ومنها: (قصيدة ثورة الشّعب، وحبّيتي صنعاء اليمن، وفخر، واللغة العربية، ورسالة إلى حماة الشّرع)، وهذه الأخيرة بحسب وصفه لها "تحكي الواقع المأسوي للقضاة في بلادنا" وربما كانت هذه القصيدة سببًا في سجنه لقوله الحقّ فيها دون تورية أو استعارة.

ذلك شأن الكلمة (الشاعرة)، وأما الكلمة (العالِمة) التي سيحوّلها إلى بحثٍ جادٍّ أو كتابٍ نافعٍ، فإنها ظاهرة في ما أبقاه من نتاج علمي وبحثي، وأما الكلمة (المعلّمة) فقد تجسّدت فيما تركه في طلابه من الطُّمُوح النبيل، والمخلّق العالي، والسلوك السويّ، وهو بهذه الكلمات الثلاث: (الشاعرة-

والعالِمة - والمعلّمة) قد اختطّ مسيرته في الحياة، وعرفَ منذُ البداية - حين كانَ في القرية البسيطة - أنّه خُلِقَ لهذا، وأنه مُيسَّرٌ لطريق العلم، وستكون الغربة دافعَهُ للوطن، والهجرة والمعاناة في سبيل العلم والتحصيل سبيله إلى معرفة اليمن والقرب منه، فكان ذلك حصيلة ما جمعَ، وأجمل ما اقتنى.

رحمَ الله أستاذنا الدكتور العالم الرَّاهد أبا محمَّد "طه أبو زيد" فقد علّمنا معنى التواضع في رفعة، والطموح في شَمَم، والعصاميّة في شموخ، والهمة في حسن عمل، والأستاذية في عطاء موزَّع بين طلابه معرفةً، وآثاراً، وذكرى لا يطويها الزمان، ولا تموت بالتَّقدّام. فلهُ من الله الجزاء، ومن طلابه حسنُ الشناء، ووافرُ الدعاء.

* (فصلُ الخطاب) *

سَوْفَ أَحْمِيهَا بِجِدِّي وَالْعَمَلِ	...	"ثَوْرَةُ الشَّعْبِ انتصاراً وأملٌ
كَمْ شَهِيدٍ قَدْ سَمَا فَوْقَ رُحْلٍ؟!	...	ثَوْرَةُ الشَّعْبِ وَهَبْنَاهَا دَمًا
لَيَرَى الْيَوْمَ الَّذِي فِيهِ اسْتَقَلَّ	...	وَأَطْلَ الْمَجْدُ يَرْتُو بِأَسِمًا
عِشْ سَعِيدًا خَالِدًا فَوْقَ الدُّوَلِ...	...	يَمْنِيْ أَنْتَ، فَافْخَرْ دَائِمًا

@ شعر: د. طه أحمد أبو زيد

تَحِيَّة

لِطَهَ احْتِرَامٌ، وَأَزْكَى سَلَامٌ	...	سَمِّي لِطَهَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
وَفِيهِ مِنَ الِيمَنِ النَّدَى	...	وَمِنْ طِينَةِ الْأَرْضِ مَعْنَى الْكَلَامِ:
(يُنَاضِلُ حَتَّى تَمَلَّ الْخُبُوتُ	...	يَحْدُثُ حَتَّى يَضِجَ السُّكُوتُ
يُقَاتِلُ حَتَّى يَمُوتَ الرَّدَى	...	وَيَشَبَعُ مَوْتًا بِكُلِّ الْبُيُوتِ
وَيَكِي الْبُكَاءُ لِأَوْجَاعِهِ	...	وَيَضْرَعُ فِي جَانِبِيهِ الْقُنُوتُ
وَيُظْلَمُ مِنْ كُلِّ بَاغٍ زَنِيمٍ	...	تَجَبَّرَ... لَكِنَّهُ لَنْ يَفُوتُ
يُقَاوِمُ لَا يَرْتَضِي بِالْهَوَانِ	...	وَإِشْعَاعُهُ لَيْسَ يَرْضَى الْخُفُوتُ
هُوَ الْيَمْنُ الْمُبْتَلَى بِالْحَيَاةِ	...	يَغِيبُ.. وَلَكِنَّهُ لَا يَمُوتُ...)



(8) الأستاذ الدكتور خيري دومة

(الأستاذ الصديق... قِمةٌ في التَّواضع، وهِمةٌ في العِلْم)

كان قد اقترح مجلس قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب جامعة القاهرة في يونيو من العام 2004م أن يكون المشرف المشارك على رسالتي للدكتوراه الموسومة بـ"القصة القصيرة في اليمن بين التراث والتجديد" الأستاذ الدكتور خيرى محمد دومة بجوار أستاذنا وشيخنا الدكتور عبد المنعم محمد تليمة، لم أكن قد سمعت بهذا الاسم، ولم أره من قبل في القسم على مدار السنوات الثلاث التي قضيتها في رسالة الماجستير، وذلك لأنه كان مبعوثاً من القسم والكلية إلى اليابان في إعاره إلى جامعة (أوساكا)، وسيعود لجامعته ابتداءً من العام الجامعي الحالي 2004/2005م بعد أن قضى فترة تدريس في الجامعة اليابانية التي تستقطب من أساتذة القسم أستاذًا بعد أستاذٍ للتدريس بها، وكان من قبله أستاذنا تليمة قد عمِلَ فيها لأطول فترة ممكنة لأحد أساتذة القسم؛ حيث مكثَ فيها عشرة أعوام.

وما يزال قسم اللغة العربية وآدابها يبعثُ بأساتذته إليها لتغطية احتياجاتها من أساتذة الأدب واللغة العربية، ويرشّح في كل نهاية فترة أستاذٍ سابقة أستاذًا جديدًا، وهكذا بشكل مستمر.

أنهيتُ إجراءات التسجيل إداريًا وأكاديميًا، وانتظرتُ لقاءهُ للتعرفُ عليه، كنتُ أسألُ (العمّ ربيع) ساعي القسم المنوفيّ الطيّبَ ذا الصوت المرتفع حين يحاورك أو يردُّ على سؤالك، لكنّه رجلٌ بسيطٌ مكافِحٌ يعرف مواعيد الأساتذة تمامًا، ويدلُّ على عناوينهم بكلّ اقتدار مع شرح

تفصيلي لما يعرف منها، وكيف تركب "الأتوبيس" للوصول إليه، أخبرني بأنه سيعود من اليابان قريباً.

عدتُ بعد فترةٍ إلى القسم فبادرني (العم ربيع) بأن الدكتور خيرى في المكتب، دخلتُ فوجدته جالساً على مكتبه يحدثُ أحدَ أساتذة القسم في حضور عددٍ من أعضاء القسم منهم د. سليمان العطار، ود. سيد البحراوي، ود. مي خليف، ود. عبد الله التطاوي، ود. حسين نصّار، ود. عوض الغباري، ومن المحاضرين والمعيدين: عماد عبد اللطيف، وعبد الرحمن الشرقاوي، وخالد أبو الليل، ولعلّهم كانوا يتحدثون بعد اجتماع انتهى قبل قليل، تقدّمتُ إليه حينَ عرفته وسط من أعرف منهم، شابٌ ربما في بداية الأربعين من عمره نحيف الجسم له شاربٌ كثيف أسود ونظارة سميكة أنيقة يشبه إلى حد كبير اليمينيين في شكله العام، متواضع طيّب القلب، حسن العبارة، جميل الحديث، سهل التعامل، راقى الأسلوب، عرّفته بنفسه، فأجاب وكأنّه يعرفني منذ فترة بالتهنئة بالموضوع الذي أثنى عليه، وشدّ من عزيمتي في القراءة، وطلب منّي أن أحضر إليه بعض المجموعات القصصية اليمينية ليطلّع عليها، ويقرأ بعضها، حيث قال بكل تواضع وصدق: "أنا لم أقرأ لأبيّ كاتبٍ يمينيّ، ولعلك تحضر لي عددًا من المجموعات لأخذ فكرة عن السرد فيها!".

هو متخصص في السرديات أنجز رسالتَه في الدكتوراه عن تداخل الأنواع في القصة المصرية القصيرة 1960-1990، وطُبعت عن الهيئة

المصرية العامة للكتاب عام 1998م، وقد أفدتُ منها كثيرًا - كما أفاد منها الكثير من الباحثين - لما فيها من جهد تنظيري وتطبيقي واضح، وقد أصبحت تلك الرسالة من أهم الكتب والمراجع في هذا الميدان، كما أنَّها تُشكِّل مع كتابه المترجم (القصة، الرواية، المؤلف: دراسات في نظرية الأنواع الأدبية المعاصرة، تأليف ترفيتان تودوروف وآخرون) إنجازًا علميًا ومرجعًا مفيدًا، وهذا الكتاب الأخير من ترجماته في مرحلة الماجستير والدكتوراه، وقد أضاف عليها جهوده اللاحقة، فكانت من أبرز الجهود الأكاديمية المتخصصة التي لا يستغني عنها باحثٌ في القصة القصيرة، وقد قدَّمها أستاذه د. سيد البحراوي، ومن ثمَّ توالى جهوده البحثية ودراساته الأكاديمية التي من أبرزها:

- القصة القصيرة عند سعد مكاوى. (وهي بحثه في الماجستير).
- الأمبراطورية ترد بالكتابة: آداب ما بعد الاستعمار: النظرية والتطبيق، لبيل أشكروفت، وجاريت جريفيثز، وهيلين تيفين؛ ترجمة وتقديم: خيرى دومة، ط1، 2005م.
- عدوى الرحيل: موسم الهجرة إلى الشمال، ونظرية ما بعد الاستعمار. (بحث)

- «أنت.. ضمير المخاطب في السرد العربي» عن الدار المصرية اللبنانية للنشر، القاهرة، ط1، 2016م، وهذا الكتاب فاز بجائزة معرض القاهرة الدولي للكتاب للعام 2017م، فرع النقد الأدبي. والكتاب مهمٌ في موضوعه

وفصوله الستة؛ حيث يركّز على ضمير الـ(أنت) في السرد العربي مبتدئاً بالمثال البارز من كتابات طه حسين الذي كان يخاطب "القارئ" أو المستمع بضمير المخاطب الصريح، سواء في كتبه النقدية أو الإبداعية، وما يرتبط مع هذا الضمير من مصطلح الحديث، ومن هنا ستتشكل رؤيته لهذا المصطلح الذي مضى في تتبّعه في المصادر التراثية، وفي كتب النثر العربي الممتدة، ولعل من أشهرها كتاب "الإشارات الإلهية" لأبي حيان التوحيدي، وهو من أطول النصوص التي استخدمت ضمير المخاطب، وقد مضى أستاذنا خيرى دومة بصبرٍ وتأملٍ ودقّةٍ يعالج هذا الضمير في الكتابات المختلفة من السرد العربي والعالمي، ويناقش علاقته بمسألة "الشفاهية والكتابية" وهو ما شكّل فصوله في عمقها وانفتاحها على مشروع متّصل في متابعة هذا الضمير، ولفظ الـ(حديث) لأكثر من 15 عامّاً كما يقول في مقدمته للكتاب. ومن هنا تشكّلت فصوله الستة: الأول "الحديث" سيرة مصطلح سردي مهمل، والثاني: المناجاة "شدوّ من حديث" متصل (عن كتاب "الإشارات الإلهية" لأبي حيان التوحيدي، والثالث: طه حسين (الراوي المُحدّث)، الذي يقول في رواية "المعذبون في الأرض": "إني لا أضع قصّة، وإنما أسوق حديثاً.. والرابع: فنّ "الحديث" (دراسة في سرد يوسف إدريس)، والخامس: صعود ضمير المخاطب في السرد المعاصر، والسادس: "أنت" (ضمير النعمة والسخرية والاحتجاج). وهو بحق كتابٌ قيّمٌ لا غنى لدارس السرد الحديث عنه.

ومن كتبه المترجمة أيضاً: كتاب (يحيى حقي؛ تشرح مفكر مصري)، لمiriam كوك، ط2، 2009م، وكتاب (المتحدثون؛ الأدب وانفجار الحديث)، لأيرين كاندنيز، ط1، 2016م، وآخر كتبه المترجمة كتاب (مطاردة العلامات، علم العلامات، والأدب، والتفكيك) لجوناثان كير، ط1، 2018م، وثلاثتها صادرة عن المركز القومي للترجمة بالقاهرة، وغيرها من الكتب المؤلفة، والمترجمة، والأبحاث المنشورة في الدوريات والمجلات العلمية المحكمة، والتي بلغت حتى الآن أكثر من 47 عملاً مفرقاً ما بين بحثٍ، ومقالٍ، وتقديم.

استمرت لقاءاتي به بعد ذلك، ولم يكن يخلو أي لقاء من فوائد جمّة، ومعرفة كبيرة رغم انشغالاته الكثيرة في التدريس، وفي ارتباطه بالمجلس الأعلى للثقافة، وبعدي من الجهات الرسمية والأهلية، إنّه أستاذ طموح، ومثقف نوعي.

بعد أن أنجزت الفصل الأول عرضته عليه، طلب إليّ أن أرسله عبر الإيميل على بريده الإلكتروني، وبعد فترة قصيرة أعاده إليّ مصحوباً ببعض الملاحظات والتعليقات التي لا بدّ منها مع عبارات تشجيعية داعمة كانت زاداً للمضي في إنجاز الفصول اللاحقة.

ومضت الشهور، وكانت اللقاءات المتعددة حتى استوت الرسالة على سوقها، وأنجزت بفصولها ومباحثها، وأرسلتها إليه عبر الإيميل كاملة بعد أن وضعها ورقياً بين يدي أستاذنا الدكتور عبد المنعم تليمة.

أعاد إليّ الدكتور خيرى البريد الإلكتروني مع ملاحظة أن أجعل بحثاً ضمن الدراسة أقوم فيه بتحليل ثلاث قصص تمثل المراحل الثلاث التي عالجتها الرسالة، واقترحْتُ لها تصنيفاً في مراحل ثلاث هي التقليدية، والتجديدية، والتجريبية في مسيرة القصة القصيرة اليمنية وتطوّرها، ففعلتُ ذلك، ثم أرسلتها مستقلة إليه، فأثنى عليها، واتفقنا على أنّه بذلك قد أصبحت الرسالة جاهزةً للمناقشة، وبأنّه سيتواصل مع المشرف الرئيس -د. تليمة- ويخبره بهذا التّمام.

تعلمتُ من الدكتور خيرى تواضع العالم، وتعامله الراقى مع طلابه، لم أجده مرةً من مرات لقائنا نافرًا عنيّ أو متبرماً أو متضايقاً رغم انشغالاته وبعض مشاكله الصحيّة التي كان يشير إليها بطرف خفي مع زملائه أو معي حين أدركتُ بعدَ حين من الصداقة شيئاً منها، وهي مشاكل صحيّة في المعدة، ولكنّه كان يمارسُ حياته -وما يزال- بكل نشاط وأريحية ومثابرة واقتدار كما يفعل عظماء الهِمَم، ورجال العلم الكبار الذين تكونُ نفوسهم الكبار مُرهقةً لأجسادهم.

تعلمتُ منه المثابرة، وترتيب الوقت الذي يملأ به ما عليه إنجازُه من أعمال وأدوار متعددة: تدريسية، وثقافية، واجتماعية، إضافةً إلى بُعدٍ مقرّر سكنه (6 أكتوبر) عن مكان عمله (جامعة القاهرة) بما تُشكّله القاهرة من زحام شديد، ومسافات متباعدة إلا أنّه كان لا يتأخّر عن موعدٍ، ولا يؤجّل عملاً عليه إنجازُه.

تعلمتُ منه قُرْبَهُ من الزميل، وحميمية تعامله الأخوي الراقى بلا كُلفة مع زملائه في القسم من أساتذة ومعيدين، كان يشكّل قَنْطَرَةً مهمّةً بين جيل الأساتذة وجيله، وجيل المعيدين يحفظُ لكلِّ قدره وصداقته واحترامه لاحظتُ محبّتهم له، وحواراتهم معه التي كانت تحملُ في طيّاتها روح إنسان جميلٍ، ودودٍ، متفاهمٍ، متفائلٍ.

تعلمتُ منه المعنى الفعلي والتنفيذي لحديث رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم-: "يَسْرُوا وَلَا تَعْسُرُوا، بَشِّرُوا وَلَا تَنْفَرُوا.." كم كنتُ أطربُ لكلمته بلهجته المصرية المحبّبة: "ما شي يا إبراهيم، كويّس، يا الله شدّ حيلك" وغيرها من الكلمات ذات التعبير الخاص، والإيقاع التنغمي، والنبرة المتميزة بصوته، والتي كانت تعطيني التفاؤل والحافز في العمل والإنجاز طول فترة كتابتي للرسالة، وفي نهايتها كانتُ المناقشة، وقد أثراها مع الأستاذين المناقشين أ.د/السيد إبراهيم محمد المناقش الخارجي من جامعة القاهرة فرع بني سويف، وأ.د/أحمد شمس الدين الحجاجي مناقشا داخليا، وكانت احتفاليةً كبيرةً حضرها خصيصًا من اليمن والدي -حفظه الله- وعمي وأخي وابن عمي، وجميع الزملاء في القاهرة مع أصدقائي من كبار المثقفين والأدباء الذي أُنذِرُ حضورهم بكل اعتزاز ومنهم: القاص والروائي الكبير يوسف الشاروني، والشاعر عبد المنعم رمضان، وغيرهما ومن أساتذة القسم عددٌ كبيرٌ، ومن خارجه د. صلاح قنصوة من قسم الفلسفة، ود.أماني فؤاد، وكثير من جلساء صالون د. تليمة، وممن تعرفتُ

عليهم فيه، وهم كثير، وقد حضرَ من السَّفارة اليمنية عددٌ كبير من الملحقين والإداريين كما حضر الدكتور عبد الرحمن البيضاني نائب رئيس الجمهورية اليمنية الأسبق والشخصية الوطنية المعروفة، وكانت مناقشةً حافلةً وعامرةً بالحضور، ولا أنسى مباركة الدكتور خيرى الحميميَّة معلِّماً على الحضور بقوله: (إيه الشَّعبية دي يا إبراهيم، أنت سبت حدّ في اليمن؟!).

استمرت صداقتنا بعد ذلك، واستمرَّ تواصلنا الذي ما يزال من خلال اللقاءات في المؤتمرات والاتصالات الهاتفية، وعلى صفحات التواصل الاجتماعي (الفيسبوك، والواتس أب) حتى كتابة هذه الأسطر.

زارَ اليمن مع أهله في صيف 2009م لزيارة والد زوجته الأستاذ الفلسطيني سرحان نمر الذي يقيمُ في اليمن منذ فترة طويلة، وكانت له زيارات سابقة لليمن لكن آخرها -تقريباً- كانت في ذلك العام، سعدتُ بصحبته، وزرنا معاً دار الحجر، ووادي ظهر في رحلة جميلة لا تُنسى، وظفرنا في برنامجهم المزدحم بيوم ثقافيٍّ في ندوة نظَّمها له نادي القصة اليمنية (إل مقه)، وكانت الندوة ثرية بالنقاش، والخبرات السَّردية الإبداعية والأكاديمية في حضور نخبة كبيرة من أعضاء نادي القصة الذين شاركوا في ذلك النقاش، والحوارات الكثيرة.

ثم تَبِعَ تلك الندوة زيارة لصنعاء القديمة وأمسية جميلة كان السَّرد حاضرًا في تفاصيلها، وكانت عوالم ألف ليلة وليلة تحفُّ المكان، وذلك في إحدى مقاهي صنعاء القديمة وفنادقها التراثية البديعة، كانت سهرتنا

مع رفقة الحرف والسرد من القاصين اليمنيين منهم: محمد الغربي عمران، وزيد الفقيه، وسامي الشاطبي، ومنير طلال، وبشير زندال، وبسام شمس الدين، ومحمد محسن، وآخرون. وما يزال دكتور خيري يتذكّر ذلك اللقاء، وتلك الزيارة، ويحدّثني عن عمق الحوارات التي أعجبت به من شباب اليمن الواعين، ومثقفيه المبدعين المتميزين.

وفي مارس من عام 2015م ألتقيتُ بأستاذي خيري دومة في الملتقى الدولي السادس للرواية العربية الذي نظّمه المجلس الأعلى للثقافة في القاهرة، في حفل الافتتاح، ثم في فعاليات الملتقى، وعلى عجل تبادلنا حوارًا سريعًا يقطعه مُسلّمٌ للدكتور أو موظفٌ يستفسرُ عن شيءٍ ما؛ كونه أحد منظّمي الملتقى وعضو لجنة القصة فيه، وقد أدار أكثر من جلسة من جلساته.

ما يزال ذلك الرجل المثابر الوقور المثقف المتميّز، المليء بالحيوية، وحسن الخلق، والتصرف اللبق في زحمة أشغاله ومهامّه الكثيرة. ثم زرته إلى مركز اللغة العربية والدراسات الشرقية الذي أصبح أستاذي مديراً له مؤملاً أن أجده، وأظفر منه بلقاءٍ أطول وحوارٍ أكثر هدوءاً، لكنّه كان منشغلاً عن الحضور للمركز، وبسبب وقتي الذي أزفّ على النفاد، وكان عليّ العودة، حيث اقترب موعد الطائرة العائدة إلى مقر عملي بالسعودية بعد ساعاتٍ تركتُ له ديواني الجديد الذي حرصتُ على أن أهديه إليه مع محبة بالغة وتحية إجلال لأستاذي القدير والإنسان الجميل -أبي نديم وأدم- عليه السّلام.

* (فصلُ الخطاب) *

أخذ مصطلح "الحديث" يتشكّل مصطلحاً سرديّاً، ومع كل بحث جديد في الاتجاه ذاته كان المصطلح يتبلور بصورة ما. في هذه الأثناء، وخلال العمل على سرد طه حسين، ثم يوسف إدريس، كانت كلمة "الحديث" تعرض نفسها بقوة في التراث العربي شعره ونثره، وأصبح ضرورياً البدء من هذه النقطة البعيدة، في محاولة لاستقصاء الظاهرة وتاريخها. ومن هنا كانت العودة على الفور لتأمل سيرة المصطلح في التراث العربي، كيف شاعت كلمة "حديث" و"حدّثنا" ومشتقاتهما على نحو مدهش وبمعانٍ متغيرة، وكيف عالجت المعاجم العربية الكلمة ومعانيها، وكيف شمل معناها أنواعاً مختلفة من أنواع النثر العربي القديم، فضلاً عن الشعر، وكيف تحرّج الأدباء العرب القدامى - لسبب ديني - من استخدامها في وصف القصص، وكيف تسربت الكلمة إلى اللغة العامية فصارت "حديث"، وكيف جرى تدليلها فصارت "حدوته" واكتسب معناها ظلالاً جديدة، حتى وصلنا إلى بدايات النهضة العربية الحديثة، وما رافقها من ظهور المصطلحات الجديدة كالقصة القصيرة والرواية، وغيرهما" @ أ.د/ خيري دومة. من كتاب (أنت، ضمير المخاطب في السرد العربي).

تَحِيَّة

(صديقي وأستاذي
لك الحب غامراً
وأنت من الخير الذي فيك خيرُهُ
سلامٌ على أرض سكنت ربوعها
وكانت هي الشريانُ
والتَّيْلُ فخرُهُ
سلامٌ مدى الأيام
يا خيرَ عالمٍ
تخيَّره المجد الذي زاد قدرُهُ
وما العطرُ إلا نبضُ القلبِ
سافرتُ
إليك بِذكرِ مُشرقٍ
أنتَ عِطرُهُ).



(9) الدكتور عبد الله المقالح
(نقيب الأساتذة، ومُسَعَّرُ حَقٍّ لو كان معه رجال)

حديثنا اليوم عن رجلٍ مختلفٍ في كلِّ شيءٍ، رجل حينَ تشاهده أو تستمع إليه ينقلُك إلى عالم من الثَّقة والشُّموخ والرجولة والطموح بكل معانيها وآفاقها، يذكرني دائماً بمقولةٍ لأحدِ مشايخ "الحيمة الخارجية" وكان شيخاً جليلاً خبيراً بالحياة وبالناس، حين يقارنُ في المواقف بين الناس كان يقول -وبلهجته الصَّارمة البسيطة -"يَه رِجَالُ، وبُه ناسُ!" أي هناك رجالٌ وهناك أناسٌ، فالناس كُثُرٌ ولكنَّ الرجال قِلَّةٌ، وفي ذلك فَهْمٌ عميقٌ منه، وتناصٌ مع ثقافته القرآنية المزوجة بخبرته الشعبية، فالله عز وجل يقول: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ...﴾، ويقول: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ...﴾ [الآيات]، فقرن هذه الصفات بالأعمال الكبيرة في الدين، وفي الحياة، ومن هنا فاستاذنا الدكتور عبد الله المقالح أُمَّةٌ من الرِّجال، وليس مجرد فردٍ من هذه النَّاس.

(إن المكارم شتَّى لا عدادَ لها.. سُبْحَانَ جامعها في ذلك الرجل)

سنقفُ عند محطاتٍ من علاقتي به، وهي في نموذجها البسيط مِرآةً كاشفةً لحياةٍ أخرى مليئةً بالدلالات الكبيرة على سيرة أستاذٍ جامعيٍّ متمكِّن، ونقائٍ حقوقيٍّ عادلٍ، وإنسانٍ يمينيٍّ أصيلٍ، جمع بين صفات القرية بأصالتها وقوَّتها وثوابتها وقيمها، وعاداتها النبيلة، وبين رَقَّة المدينة وتحضرها وجمال روحها، وقرنَ بين ثقافةٍ عربيةٍ شرقيةٍ راسخة، وتكوينٍ ثقافيٍّ غربيٍّ تشكَّلَ علميًّا في أعرق الجامعات الأمريكية وأكبرها، وهي جامعة "إنديانا" التي تخرَّج فيها بشهادة الدكتوراه عام 1988م، وقد فرضت

عليه الجامعة -ليجتاز برامحها- أن يجيدَ أربع لغاتٍ: غربيّتين وشرقيّتين، وتلك اللغات هي الإنجليزية، والفرنسية، والعربية، والتركية حتى يتخرّج بثلاثة تخصصات، تخصص عام ورئيسي: هو الأدب العربي، وتخصصان ثانويان: هما الأدب المقارن، وتاريخ الحضارة الإسلامية، فكان التّحدي كبيراً لإتقانها، وإنجاز مهمته العلمية التي ذهبَ من أجلها، ومن هنا يتّضح مقدار التّحدّي الذي يخوضه الأستاذ دوماً في تكوينه، ومن ثمّ في عمله، وفي حياته جميعها، فهو خلاصة لهذا التّحدي المتجدّد، وهو فاتح لتلك الآفاق، وحتى في طريقة شرحه وتدريسه لطلابه.

ظهر لنا أستاذًا مختلفًا، ففي الفصل الثاني من العام الجامعي 1991 - 1992م تلقيتُ على يديه مع زملائي في كُليّتي التربية والآداب مقررَ (الأدب المقارن)، فكان أسلوبُه مختلفًا لا يقوم على التّلقين؛ بل ينبني على أحدث أساليب التعليم، وهو التعليم التعاوني بالتشارك والعودة إلى المكتبة، والقراءة، والتلخيص، وأسلوب الشرح في المحاضرة والنقاش، بحيث يُكلّف الطالبُ بالحديث عن جزءٍ من المقرر يرجع فيه إلى أكثر من كتاب، وبذلك يعود الطالبُ إلى المكتبة لزامًا.

وكان يقولُ لنا: "انفضوا الترابَ العالقَ عن الكتب في أرفف المكتبة المركزية، ومكتبة كلية الآداب، واستخرجوا العلم من بطونها"، وهنا تتجلّى شخصيته المتدفقة بالحركة والعطاء والدينامية الفاعلة التي تنعكسُ من روحه الشابة الوثابة لشاب طموح في السابعة والثلاثين من عمره حين

عرفناه، يعلّمنا الثقة بالنفس والوقوف أمام الزملاء متحدثين شارحين، فمن أعجبه أسلوبه؛ صاح مشجّعاً: أحسنت! وهو على مقعد الطلاب؛ حيث كان يجلس معهم في آخر القاعة مستمعاً- حتى يتيح المجال لأحدنا أن يشرح فقرته من على مقعد الأستاذ.

أذكرُ فيما أذكرُ من محاضراته النافعة أنني قارنتُ بين الأدب الفارسي والأدب العربي والآثار المتداخلة بينهما، واتخذتُ من كتاب "الأدب المقارن" للدكتور محمد غنيمي هلال مرجعاً لخصتُ منه أهم الأفكار والآراء، وشرحتها لزملائي ارتجالاً، في وجود أستاذنا الجالس في آخر القاعة، فما كان منه إلا أن وقف بعد انتهاء العرض، وقَدِمَ إلى منصّةِ الدرس، وهو يقول: "ممتاز! هذا هو التلخيص والشرح، أحسنت يا إبراهيم"، كانت لكلماته تلك فعل السحر في وجدان طالب متطلّع، وكان ذلك هو أسلوبه، وتلك هي طريقته في التغذية الراجعة المشجّعة لطلابه "ومن لأنّ كَلِمَتَهُ، وَجَبَتْ مَحَبَّتُهُ"، ثم أتبعها بحديث مفيدٍ عن مفرداتِ المقرر، وعناصره وموضوعاته، ونفاصيله العلمية.

أستاذنا الدكتور عبد الله المقالح رجلٌ كثيرٌ كبيرٌ، فهو كثيرٌ بعلاقاته الواسعة وحركته الدؤوبة؛ حيث كانت الجامعة مفتاحاً لعوالمه وآفاقه ومُنطلقاً له، وهو كبيرٌ بهمته وطموحه؛ حيث كان رئيساً لنقابة أعضاء هيئة التدريس في أول انتخابٍ لها بعد الوحدة اليمنية المباركة ممثلاً لجامعتي صنعاء وعدن، وقد حَظَّ بها خطوات، بل قُل: قَفَزَ بها قفزاتٍ

كبرى؛ فقد حَقَّق في فترة تولَّيه -مع رجالٍ صدقوا معه- ما لم تحقِّقه النقابة من قبل، ولم تشهد له مثيلاً من بعد، ومن ذلك إصدار قانون الجامعات اليمنية، وإنجاز الكادر الخاص بأعضاء هيئة التدريس في الجامعات اليمنية؛ ذلك الكادر الذي عادل فيه وضع أعضاء هيئة التدريس بوضع الوزراء في الدولة، مع رفع مرتباتهم وتحسين مستوى معيشتهم، وكان يكافح من أجل ذلك، ويصارع صراعَ الأبطال الفاتحين، وبهمة الرجال المخلصين حتَّى حَقَّق لهم ذلك، واستمرَّ ممثلاً للنقابة في مجلس جامعة صنعاء لعشر سنوات تقريباً يدافع عن حقوقهم الأكاديمية والإنسانية، ويرسم استراتيجيات تطوير الجامعة وأدائها، كما عُقِدَ في عهده أول مؤتمر علمي تحت شعار (الجامعة في خدمة المجتمع) قدَّم فيه أعضاء هيئة التدريس أبحاثاً علمية جادة نُشرت في كتاب.

ومن مقولاته التي تدلُّ على خبرته، ومعايشته، وفهمه للوضع الاجتماعي والسياسي في اليمن آنَ ذاك أنه كان يقول: "الحقوق في بلادنا تنتزع انتزاعاً ولا توهب هبةً..." سمعتها منه أكثر من مرة وبصيغات مختلفة حين كنتُ ألقاهُ بين فترةٍ وأخرى بعد تخرُّجي، وهو يسألني ماذا فعلت؟ هل تعيَّنت في الجامعة مُعيداً؟ ويرى الإحباط بادياً عليّ، فيقول محفَّزاً: "تأبَّر ودافع عن حقِّك، وانتزعه"، إنه محرِّك هِمَمٍ، يمنحك طاقةً إيجابيةً عاليةً حين تراه أو تستمعُ إلى كلامه.

أخذته السّياسة بعد ذلك بعيداً، وأخذت منه أكثر مما أعطته، وأستأثر به العمل النقابي وحقوق الناس الذين آمن بقضاياهم وسار في نصرة الحقّ معهم، وفي السّعي وراء التنوير لهم وبهم، فكان لبلدته "التّادرة" ومديريته نصيبٌ منه، وكان لأهلها حقُّ رأوه واجباً عليه، فنهض تلبيةً له، ومحبةً لهم، فترشّح لمجلس الثّواب عن دائرته، وفاز بها عن جدارة واستحقاق، وكان صوت الشّعب في مجلس الثّواب خدوماً لدائرته وأهل مديريته، وغيرهم.

كان ضمير المثقّف والأستاذ الجامعي الحصيف، ولهذا فقد كان فاعلاً ومؤثراً، حيث كان رئيساً للجنة التعليم العالي والشباب في مجلس الثّواب، وكان الصوت الأقوى والمنظر الأقدر، وفيها كانت له أعمال تُذكر، ومواقف لا تُنكر، ومن أهمها بلورة قانون إنشاء صندوق رعاية النشء وإصداره، وقانون كلية الرياضة، وقد كان لهذين القانونين أهمية كبرى في حركة الشّباب والرياضة في بلادنا، ولأنّه يرى أنّ الشّباب والعلم هما عماد المستقبل والمخلّص الحقيقي لليمن من كلّ كبوةٍ وعثرةٍ، فقد دافع دفاعاً كبيراً، وسعى بمقترحاتٍ تنويرية وعلمية ونقاوية تُحسب له، ولا تصدر إلا عنه بروحه الوطنيّة التي لا تعترّيهما المناطقية ولا تشوبها الجهويّة بحالٍ من الأحوال، فكان من آرائه التي طرحها في مجلس الثّواب أن يتمّ توزيع المنح الدراسية على المحافظات جميعها، ويتمّ التنافس عليها بين أبناء المحافظات بالتساوي بعدما لاحظ أن المحافظات التي كانت تتفرد بالمنح هي محافظات

بعينها منها: محافظة تعز، وصنعاء، وعدن، وتُحرَم بقية المحافظات إمّا للكثافة السكانية أو لعدم الوعي لدى تلك المحافظات وممثليها، ولأنّه يرى أنّ السبيل للتطوير والتنمية هو العلم، ولا شيء سواه، فكان من نتائج ذلك القرار أن شملت المنح الدراسية المحافظات النائية مثل: مأرب، والجوف، وصعدة، وشبوة، وغيرها.

هكذا كان يتحرّك الأستاذ الجامعي بأفقه الإنساني الرّحب، وبإحساسه بالمسؤولية نحو المجتمع، وبروحه الشابة المؤيِّدة للشباب والمهمّة بهذه الشريحة النوعيّة الحسّاسة، فكان أن سعى إلى حقوقهم ودافع عن مطالبهم، فكما كان له دورٌ جوهري في قانون إنشاء صندوق رعاية النشء، وقانون كلية الرياضة - كما ذكرنا - كان له أيضًا دور بارز في مساندة الشّباب وتعليمهم، فحين كان مستشارًا ثقافيًا بدولة الإمارات قام بالتعاون مع السّفير في "أبو ظبي" باستخراج 101 منحة دراسية لطلاب وطالبات من أبناء الجالية اليمنية المقيمين في الإمارات خلال فترة عمله هناك، هكذا يكون الغيثُ حيثُ وقعَ نفعُ.

ألم أقل: إنه فاتح آفاقٍ ومُسعِّر عِلْمٍ وحقٍّ، هذه هي أبرز ملامح شخصية أستاذنا الجميل الجليل ما وقع في أمرٍ إلا أتى بأحسنه، ولا ملأ مكانًا إلا كانَ جوهرته المشعّة وروحه النابضة بأخلاق العلماء وهمّة الخبراء، تحرّكه ثوابته من العدالة والمساواة بين النّاس، وتدعوه وطنيته إلى النظر إلى الجميع بعين المحبة والتوازن والوطنية الصّافية التي سمت به عن

الصغائر، وترَفَّعَ هو بها عن الضيق والنقائص، فكان أفقُّه الوطن، وسماؤه اليمن، وطموحه العدالة، وغايته الحياة الكريمة.

ومن هنا فقد تمثَّلت سيرته سيرة الكبار وسعى في جميع أعماله سعيهم لأنَّه أحد الكبار الذين لا تهدأ لهم نفس، ولا يغمض لهم جفنٌ إلا إن حَقَّقَ الجميعُ ما يرجونه، ونال الخيرَ كُلَّ الناس، اشتغل منذ بدايات حياته مع الكبار، فكان كبيراً مثلهم، واجتهد في العمل الحقوقي والنقابي كثيراً حتَّى أخذَه ذلك عن البحثِ والكتابة والنشر لكنه كان ينشرُ أبحاثه عملاً ويجسِّده إنجازاً يخرج من بطون الورق وأغلفة المجلات إلى واقع الحياة والعمل النَّقابي، كان يقوم بعمل شاق لا يجيده إلا أصحاب الهمم العالية والنفوس الكبيرة التي تتعبُ في مرادها الأجساد. وقد كانت ترقيته إلى أستاذ مشارك في عام 1999م مبادرة من مجلس الجامعة تقديراً لجهوده في خدمة الجامعة ومنسوبيها.

ذلك هو أستاذنا الدكتور الكبير المقالح عبد الله كان مشروعَ كاتبٍ ومبدعٍ كبيرٍ، ولكن ربما كان التَّقْدُ -سواء منه المبالغُ في الثناء أو المسرِّقُ في التَّحْطيم- سبباً في عزوفه المبكر عن أن يكون شاعراً كبيراً، وقد روى لي حادثةً نقديةً كانت سبباً في ذلك العزوف عن مواصلة الإبداع، وربما كان ذلك خيراً له ليتحوَّل إبداعه إلى عملٍ مُنجز، وواقع ملموس.

في العام 1997 وفي شهر رمضان تحديداً كان النقائى الكبير الدكتور عبد الله المقالح قائداً لعددٍ كبيرٍ بلغ أكثر من (خمسة ومائة رجل) من أعضاء هيئة التدريس بجامعة صنعاء وهيئة المساعدة من المعيدين والموظفين في رحلةٍ إلى بيت الله الحرام برّاً، وفي موكب كبير قوامه خمسة باصات تحرّكت من صنعاء إلى مكة المكرمة لأداء فريضة العمرة في آخر شهر رمضان المبارك 1417هـ، وكم كان لشخصيته القوية، وحضوره الباذخ من أثرٍ كبيرٍ يعلّمنا فنَّ القيادة للناس على اختلاف مشاربهم، وأعمارهم، وحاجاتهم، ويظهر فيها حسن التصرف في المواقف، وجمال الروح في التخاطب والتعامل كأنّه الأب للجميع في قدرة وثقة على الرغم من وجود من هو أكبر منه سنّاً، ولكن لم تكن القيادة بالسّن في يومٍ من الأيام، ولكنها بالروح المختلفة والمسئولية المنظّمة الوقورة، وكان الأخ والصديق للجميع، حقّاً إن السّفر يسفرُ عن الأخلاق والصفّات، وكان مُسفرّاً فيه عن إنسان نبيل وجليل، عرفته في السّفر والحضّر: "فكان أحسن ما في الأحسن الشّيم".

إنه قائدٌ منظّمٌ صاحبُ خلقٍ رفيعٍ وعلمٍ وثقافة، يحترمه الجميع ويجلّونه، ولا يخالفون له رأياً، وهو بصيرٌ بالنّاس، خبيرٌ بالنفوس، فلم تحدث أيُّ مشكلةٍ، وأتى لها؟! وفي الموكب والركب "أبو رعدٍ" وما كان لأحدٍ أن يخالفه، فبذلك كانت الرحلة الروحية من أجمل الرحلات التي عشتها وعاشتها في أول عام تعيّنت فيه معيداً في جامعة صنعاء، ومن قبلها بأيام

كانت النقابة قد أقامت مأدبة إفطار رمضاني كبيرة ومتميزة، وكانت حينها نقابة ناهضة قوية حيّة متلاحمة لوجود "عبد الله المقالح" على رأسها مع شخصيته القوية وحضوره الرصين الواسع، فقد انتُخب رئيساً لنقابة هيئة التدريس بجامعة صنعاء وعدن لثلاث دورات انتخابية متتالية وبالإجماع، وقد حققت النقابة الكثير من نشاطاتها ومطالبها، بل كانت-بشهادة الجميع- من أخصب فترات النقابة تماسكاً وقوةً وهيبةً وإنجازاً، وكان يا ما كان.

يعلمنا أستاذنا المقالح في مواقفه وآرائه الكثيرة معنى الشجاعة الحقّة حين تتجسّد في الفعل وفي القول، فلم يكن يدهن أو يضعف في قول الحق والدفاع عنه، وربما كانت هذه الصفات -التي هي قيمةً عليا في غير زمننا المراوغ- هي التي عمّطت حقه في تسنّم أعلى المناصب التي كان جديراً بها، لأنّه يقول كلمته بكلّ صدقٍ وشجاعة ومسؤولية ولا يخاف لومة لائم حتّى أمام رئيس البلاد؛ حين أدهش الجميع في مصارحته في أول زيارة لرئيس جمهورية لجامعة صنعاء وآخر زيارة، وكذلك كانت مواقفه العامّة في حياته البرلمانية والاجتماعية، وعلى قدر تلك الشجاعة وقوّة الشخصية، فإنه ذو حُلُقٍ جمٍّ، قريبٌ من النَّاس ينزلهم منازلهم، ويعطي كلّ ذي قدرٍ قدره.

أستاذنا عبد الله المقالح سارداً جميلاً، صاحبُ عبارةٍ مشرقةٍ، وأسلوبٍ حكائيٍّ مُتمكّن، وكان له عمود أسبوعي في صحيفة "إيلاف" اليمنية

الأسبوعية، واستمرَّ في كتابته منذ تأسيس الصحيفة في يوليو 2007م حتى توقفت، عام 2014م، وعنوانه (مخازنُ في الذاكرة)، واختيار كلمة (مخازن) لها أكثر من دلالة سيميائية، تدلُّ على ثقافة الرجل-التي تحدثنا عنها، وتجمعُ بين ثقافةٍ شرقيَّةٍ وأخرى غربيَّةٍ-، فهي أولاً أصلٌ للكلمة الإنجليزية (Magazine) التي صارتُ علماً للصحيفة العامة غير اليومية أو للمجلة، كما أنها ذاتُ بُعدٍ عربيٍّ ثقافيٍّ تدلُّ على ما للمخازن في الموروث الشعبي والتراث الفصيح من معنى، وبخاصة حين تحتفظ بالقيِّم من الأشياء والكنوز، مثل "خزانة الأدب، وغيرها، وأما دلالة أنها (في الذاكرة) فقد أعطاهما مكاناً أثيراً ومكانةً، إنه عنوانٌ موقِّقٌ ومكثَّفُ الدلالات، وما كان يحتويه المقال كلَّ أسبوعٍ أكثر إدهاشاً وفائدةً وعمقاً في السياسة، والثقافة، والحياة، وكنتُ أحرصُ على اقتناء الصَّحيفة فقط من أجل ذلك العمود، ومدى إشعاعه في تلك الصحيفة وأثره المهم في القراء.

تلك هي بعض ملامح شخصية الرَّجُلِ وجمالها في مرحلة نضجه، وقَمَّةِ عطائه الأكاديمي والنقابي والاجتماعي، وقد ظهرت كراماته القياديَّة وشخصيته التطوعيَّة مبكراً، فقد كان في فترات شبابه ودراسته الجامعية من أنشط الطلاب، ومن أكثرهم تمثيلاً للإسلام بشكلٍ معتدلٍ وناضج، كان -وهو طالب في جامعة "إنديانا" الأمريكيَّة- يعمل نائباً لرئيس المركز الإسلامي، وإماماً للمركز في مدينة "بلمنجتن" وكان مع بعض زملائه يُقيِّمونَ فعاليةً أسبوعيةً يعرفون فيها الزائرين بالإسلام. بل وقد أدارَ لمرَّتين

متتاليتين مُنَاطَرَةً بَيْنَ عَالَمِينَ مُسْلِمِينَ وَرَاهِبِينَ نَصْرَانِيَّينَ لِلتعْرِيفِ
بِالإِسْلَامِ، وإظهار عدالته، واعتداله، وسماحته، وجماله.

* (فصلُ الخِطَابِ) *

كُتِبَ في وداع أخيه رثاءً مختلفًا بروح القاصِّ، وأفق الأديب، فقال:
"فرحتُ بكَ عند ولادتك، لا أعلم كم كنتُ من العمر حينها
لكنني أتذكَّرُ جيدًا فرحتي بولادتك، وأتذكرُ أنني كنتُ أسمىك "الثَّيْنِي" حتى
كبرتَ أنتَ مع الأيام، فانقلبت التسمية، فصرتَ تستقبلني بعد عودتي من
كُتَّابِ "القرية فَرِحًا: "اليني النيني"..كبرتَ ولزمتكَ الشقاوةُ والتحدِّي،
فتعلمتَ السَّباحة، وكنتُ ماهرًا فيها بشهادة جميع أقرانك في "بيرة اليهود"
والبحر" وهما تسميتان لأهمَّ مجمَّعِ مائي تخلَّفه الأمطار في "سيل" قرية
المقالح..كنتُ عنيدًا ومُتمرِّدًا وخاصةً أمام الدِّراسة والمدرسة، فكنتُ أكثرَ
ما تكره في حياتك هي المدرسة..ربما كنتُ تمتلكُ عالمًا خاصًا بك، تنسج
من خلاله مشروع حياتك، لكنني كنتُ شديدًا عليك إلى درجة القسوة،
تصوُّرًا مِنِّي أن التعليم هو الوسيلة الوحيدة للحياة..

واصلتُ تعليمك بصعوبةٍ، وكنتُ تَبَرُّرُ ذهابك الى المدرسة إرضاء
لـ"عبدالله أخي" كما كنتُ تبوح لبعض أصدقائك.. أدخلتُك كلية الشرطة
بصنعاء، ولم يستقر لك حال، درستَ فيها فترةً وغلبَ عليك طابع التمرد،

فذهبتَ إلى عدن لتكملَ دراستك في الكلية العسكرية.. وهكذا صرتَ بعدها بالنسبةِ لأُمَّكَ وجميعِ إخوتك الوجه الغائب الذي لن يعودَ خاصةً في ظروف الحرب بين الشمال والجنوب.. جاء يوم إعلان الوحدة اليمنية عنواناً جميلاً للقاء الأم بولدها، والأخ بأخيه، والتقينا بك ونعمنا واحتفلنا كما احتفل غيرنا بنعمة الوحدة التي لَمَّت الشَّمْل بين جميع أبناء الوطن.. تحملت المسؤولية وخدمتَ في صفوف القوات المسلحة، وكنتَ مخلصاً لوطنك محبوباً عند زملائك، ورابطتَ في المناطق النائية من حدود وطنك حتى داهمك المرض الذي كان معك قاسياً، فتكالب عليك من كل جهة وطرف.. هو الموت يا أخي مكتوبٌ علينا جميعاً..@د.عبد الله المقالح (من صفحته على الفيسبوك).

تَحِيَّة

(لَكَ يَا "مَقَالِحُ" فِي الْقُلُوبِ مَكَانَةٌ
لَا شَيْءَ يُشْبِهُ قَدَرَهَا وَعُلاَهَا
إِنَّ عُذَّتِ الْأَخْلَاقُ كُنْتَ عِتَادَهَا
أَوْ قِيسَتِ الْأَحْلَامُ كُنْتَ سَمَاهَا
أَوْ قِيلَ مَا الْهِمَمُ الْعَلِيَّةُ وَالْعُلَا؟!
مَا كُنْتَ إِلَّا رَجْعَهَا وَصَدَاهَا

رَجُلٌ بِأَلْفِ الْمَوَاقِفِ صَوْتُهُ
وَالصَّادِقَاتُ الثَّابِتَاتُ خُطَاهَا
كَمْ فِي بِلَادِي مِنْ جِبَالٍ شُمُخٍ
لَا تَنْحِنِي إِلَّا لِمَنْ سَوَاهَا
سَتَظِلُّ مِنْجَمَ عِزَّةٍ فِي سِيرِهَا
تَهْبُ الْحَيَاةُ لِكُلِّ مَنْ أَحْيَاهَا.



(10) البروفيسور العلامة عبد الملك مُرتَاض

(السُّربون بوابتُهُ إلى التُّراثِ العربي)

لأول مرّة التقينا به في القاعة (20) إحدى قاعات كلية الآداب بجامعة صنعاء، في مقرر (قاعة بحث) أستاذ زائر من جامعة وهران، يزور جامعة صنعاء لفصل دراسي في العام الجامعي 1994/ 1995م بدا لنا أستاذاً حيويّاً في قمة العطاء الفكري والروح المتدفقة بابتسامته وبتواضعه ومهابته، يحدّثنا بلغته العربية الفصيحة التي تشوبها طريقة جزائرية في نطق بعض الحروف كحرف التاء الذي أسمع له لأول مرة يخرج بطريقة تختلط مع حرف الشين، فهي أكبر من تاء وأقل من شين، ويتدفّق في الشرح بعلم غزير، ومعرفة مبهرّة، يعرّفنا عن أساليب البحث، وأنواع المناهج، وحين يشرح يحدّثنا عن أحد أساتذته في جامعة السوربون، وكيف كان يقفز على قدمٍ واحدةٍ، وهو يحكي لهم حركة أحد الطيور، وهم يضحكون من بساطته وعلمه، ومحاولة تجسيده للمعنى بكل مشاعره وحركات جسمه لذلك الطائر الغريب المذكور في إحدى قصائد شاعر غربي، وينظّ أستاذنا مثله على قدمٍ واحدةٍ أمامنا في قاعة الدرس، وهو منسجمٌ في شرح الفكرة، فما نكاد ندري أنعجب من الحاكي أم المحكي عنه؟، وهو يرتدي قبعته البيضاء، ويحركها بيمينه، ثم يمضي الأستاذ في شرح بعض أبياتٍ قام بدراستها عن قصيدة (أين ليلاي؟) للشاعر محمد العيد آل خليفة التي تقول أبياتها:

"أين" ليلاي "أينها؟ ... حيلَ بيني وبينها
هل قضتْ دَيْنَ مَنْ ... في المُحبين دَيْنُها؟

أَصْلَتِ الْقَلْبَ نَارَهَا ... وَأَذَاقَتْهُ حَيْنَهَا
مُذْ تَعَرَّفْتُ سِرَّهَا ... وَتَعَشَّقْتُ زِينَهَا
فَتَعَلَّقْتُ بِالطُيُوفِ ... اللّوَاتِي حَكَيْنَهَا
وَتَعَلَّلْتُ بِالْمَنَى ... فَتَبَيَّنْتُ مَيْنَهَا
مَالٌ "لِيلَايَ" لَمْ تَصِلْ ... مُهْجَاتٍ فَدَيْنَهَا؟
وَقُلُوبًا عَلِقَتْهَا ... وَعُيُونًا بَكَيْنَهَا
إِيهِ يَا عَيْنِي اذْرِي ... لَنْ تَرِي بَعْدُ عَيْنَهَا...الخ"

هذه القصيدة نُشرت لأول مرة في جريدة الشَّهاب عام 1937، وقال عنها الإمام محمد بن باديس: "مَنْ هي ليلي شاعرنا يا ترى؟ ليست له قوسٌ، ولكنْ له مروحة، فهل يعني هو الآخر مروحته؟ إن محمد العيد الذي يشعر شعور الشَّعب، ويتخيَّل خيال الشَّعب، لا تشغله قوسٌ، ولا مروحة، ولن لا تفتنه - وهو البلبل الغريد في قفص - إلا الحرية، فهل يوافق على هذا بعض من ينقصُهم شيء من السياسة ليفهموا؟"، إذن فهي الحرية التي تستهوي الشعوب العربية، وينافح عنها شعراؤها الكبار في رمزهم، وتصريحهم وفي نصوصهم العميقة التي لا تتقادم بالزمان ولا تبليها الأيام لأنها مطالب جوهرية ما نزال نعيشها حتى اللحظة.

ويصف لنا الأستاذ ما في هذه القصيدة من عمق دلالي، وقد أفرد لها دراسةً كاملةً، بعنوان (أ/ي) دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أين ليلاي؟) والذي يبدو من العنوان أنَّ فيها تقليدًا لكتاب رولان بارت S/Z

الذي هو عبارة عن أول حرف من عنوان النص الذي يعالجه الكتاب، وهو أول حرف من قصة Sarrazine لبلزك، وحرف Z الذي هو آخر حرف من الأبجدية الفرنسية، وبهذا فالكتاب فيه تأثير واضح بالمنهج التحليلي لرولان بارت، ولكن من خلال نصّ إحيائي جزائري لمحمد العيد آل خليفة؛ حيث يوظف أستاذنا منهجه الحدائي، وأسلوبه النقدي على الشعر الرصين ذي الحضور المتجدّد والأفق الوطني والرمزي العالي في مستواه، وهو يشرح طبيعة هذا النصّ ومقاصده بكلّ إدهاش ينقلنا مع لغته الناقدة وأسلوبه المتميز إلى عالمه العميق ورؤاه النقدية والأدبية المكيّنة، فكان ذلك اللقاء الأول وتلك المحاضرة دافعاً للذهاب إلى المكتبة للنظر في مؤلفات أستاذنا والتعرف عليه من خلال إنتاجه العلمي الكبير ومصنفاته الكثيرة. وهكذا تعرّفْتُ على أستاذي الدكتور البروفيسور عبد الملك مرتاض [بن عبد القادر بن أحمد بن أبي طالب] (10 يناير 1935م-...) أمدّ الله في عمره الذي تجاوز الآن الرابعة والثمانين في خيرٍ وصحةٍ وعطاء. أستاذنا من مواليد بلدة مسيردة ولاية تلمسان بالجزائر عمل أستاذاً مساعداً للأدب والنقد والسّيميائيات في جامعة وهران منذ العام 1970م، وقد تخرج في كلية الآداب جامعة الرباط بالمغرب عام 1963م، ونال الدكتوراه في جامعة الجزائر عام 1970، بينما حصل على دكتوراه الدولة في الآداب باللغة الفرنسية من جامعة السوربون الثالثة بباريس عام 1983م.

هذا السُوربوني ذو الثقافة الفرنسية والاتصال بالغرب دراسةً وثقافةً وحداثةً له تكوينه العربي الثرائِي، ومرجعِيته العربية الأصيلة، فقد حفظ القرآن الكريم في كُتَابِ والدِه، والتحق بمعهد عبد الحميد بن باديس بقسنطينة، وفي عام 1955 م سافر إلى فاس لمتابعة دراسته بجامعة القرويين بالمغرب، وخلال هذه الرحلة العلمية درس الأدب العربي من شعرٍ، ونثرٍ، وبواكير الدراسات النقدية في العصر العباسي، كما درس العلوم اللغوية من نحو، وصرف، وبلاغة، وغيرها.

ومن هنا فسيكون لأستاذنا في مسيرته البحثية مرحلتان كبيرتان في تشكيل مشروعه التّقدي، سنقف لديهما بإيجاز مُلمّحين إلى أبرز خصائصهما، وهذا التكوين سيكون واحدًا من أسباب المعارك العلمية التي سيخوضها أستاذنا مع العلماء، وقد أَطْلَعْنَا أستاذنا نفسه في إحدى المحاضرات على مقالةٍ علميّةٍ نشرها في إحدى المجلات يردُّ فيها على أستاذنا الدكتور إبراهيم السامرائي -سنقف إن شاء الله في المقال اللاحق مع هذا العَلم العربي العراقي الكبير- الذي يَتَّهَمُهُ بأنه لا يعرفُ العربية الفصيحة بأصولها واشتقاقاتها ومفرداتها، وأنه بحكم تنشئته الغربية ولغته الفرنسية يجهل اللغة العربية الأمّ -أو نحوً من هذا الكلام- فما كان منه إلا أن ذهبَ ليردَّ عليه، فكتب مقالةً علميّةً باذخةً فيها من الألفاظ العربية الغريبة (الحوشية) القاموسية ما يحتاجُ المطلع عليها إلى أن يكون معجم لسان العرب، والقاموس المحيط وغيرهما من القواميس بجواره ليفكّ

مُلغِزها، ويستجلي مفرداتها وتراكيبها الصعبة، وهو بذلك يردُّ ردًّا صارخًا على أنه قادر على فهم اللغة أكثر من المتخصصين فيها، وأنها لغته الأصلية، وأنه تعلَّم على يد علمائها الأفذاذ من أصحاب النزوع إلى العربية الفصحى التي تمثّل الهوية والحضور العربي الجزائري في مقابل زعزعة المستعمر لكيان الجزائر العربي، وأنّه قادرٌ على الكتابة بها كما أنه مستوعب للغات الغرب وثقافته، وكنتُ ما أزال أحتفظ بنسخة من تلك المقالة التي استنسخناها عن الأصل الذي عرضه علينا أستاذنا، في إحدى محاضراته.

وتمضي بنا المحاضرات المفيدة وفق مناهج النقد الحديثة وطرائق التحليل التي ينتهجها أستاذنا مرتاض، ويعلمها لنا من خلال الشرح تارة، ومن خلال الإحالة إلى أعماله وأبحاثه ودراساته تارة أخرى، وما كان أدلَّ على أن نفهم المنهج أو يفهمنا الطريقة من خلال التطبيق على تلك المناهج بالدراسات المنجزة التي كان قد قام بها، وهي كثيرة، ومنها: دراسته لإحدى قصائد الدكتور المقالح التي خصّها بكتابٍ كاملٍ هو كتابُه (بنية الخطاب الشعري؛ دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمانية لعبد العزيز المقالح) عام 1991م، ولأول مرة نقفُ على مصطلح (تشريحية)، ثم ندرك بعد ذلك ارتباطه بالسيمائية والتفكيكية، وهذا الكتاب سنعرف من خلاله طبيعة قراءة نصّ شعري، وفق منهج غربي محدّد ومؤطر في فصول الكتاب؛ حيثُ يتحوّل فيه أستاذنا من دراساته السابقة ذات الأبعاد الانطباعية، والتاريخية، والتراثية التي صدر له فيها عددٌ من الكتب إلى الدراسة النصّية

من داخل النصّ ووفق مناهجه الحديثة المستفادة من المناهج الغربية وطرائق الحداثة، وفي هذا الكتاب "دراسة للبنية، ودراسة خصائص الصورة الفنية، ودراسة خصائص الحيز الشعري، ودراسة خصائص الزمن الأدبي، ودراسة الصوت والإيقاع، وأخيرًا دراسة المعجم الفني، وقبل ذلك ابتداءً بتمهيد عرض فيه لنظرية الجاحظ".

وهي دراسة عميقة، وسيكون لأستاذنا وقفه أخرى مع هذه القصيدة بكتاب آخر هو كتابه الثاني بعنوان: (شعرية القصيدة.. قصيدة القراءة؛ تحليل مركّب لقصيدة أشجان يمانية) صدرت طبعها الأولى عام 1994م عن دار المنتخب العربي، بيروت، ومن هنا سينتقل التركيز من البنية كما كان في الكتاب الأول إلى السيميائية بدلالاتها، ومن مصطلح التشرّيح إلى مصطلح التحليل الذي سيوضّحه في مقدّمة الكتاب بأنّه يريد به "أنّ القراءة ليست نقدًا تقليديًا خالصًا ولا نقدًا جديدًا أيضًا خالصًا، ولا إبداعًا - بالمفهوم الشائع - خالصًا وإنما تقع بين كل ذلك سبيلًا، فهي قراءة أو تقترب من المفهوم الجديد لهذه القراءة، فكأنّ هذه القراءة التي يلهج بها المعاصرون إنما يحاولون من وراء ممارستها في ثوبها الجديد إلقاء وظيفة النقد التقليدية السلطوية أو يجتهدون على الأقل في الحدّ من غلوّاتها، إذ أصبح الناس يضيّقون بهذه الأحكام القضائية المصلّية على النصّ".

إذاً فهنا قراءة موازية تستنطق النصّ وتحاوره وتتجاذب معه - وفق منهجها - آفاق الإبداع ودلالات الشفرات وإنتاجية النصّ، وهذا هو

البرهان الذي يقدّمه أستاذنا لمعاودة نصّ واحد مرتين لكي يقدم قراءتين فيه مما يعطي المنهج وجاهته في التعامل العلمي والإبداعي مع النصوص العميقة.

وإذا كانت هذه القراءة هي واحدة من مشروع ضخم لأستاذنا الناقد الكبير عبد الملك مرتاض في مسيرته العلمية، فإنه كان قد حلّق في آفاق من التجريب وفق مناهج القراءات المتعددة والحقول المعرفية التي قاربها برؤيته المنهجية وأفق اطلاعه الواسع الذي يجمع بين ثقافته العربية الأصيلة المتجذّرة في عروقه العربية وحضارته العريقة، وبين اطلاعه الدراسي ومثاقفته الغربية التي اتخذ فيها من السوربون محطةً وميداناً للطّلب، ومن اللغة الفرنسية جناحاً للاطلاع على تلك الحضارة الغربية في مناهجها وكتابات ومعارفها، فقدّم بذلك رؤيته الخاصة المزوجة بأصالتها ومعاصرتها، ومن هنا تعدّدت كتاباته وآفاق اهتمامه التي تسير في مسارين نقديّين واضحين مثّلتها مرحلتان من حياته العلمية والبحثية هما: مرحلة النقد التقليدي التي تمثّلت في مرحلة ما قبل السربون بالنقد الانطباعي من خلال كتاباته الأولى مثل: كتاب (القصة في الأدب العربي القديم)، 1968، والنقد التاريخي الذي يمثله كتابه: (نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر 1925 - 1954م)، 1983، وكتابه (فن المقامات في الأدب العربي)، 1970، وكتابه: (فنون النثر الأدبي في الجزائر)، 1983 وغيرها؛ حيث كان "مُعْتَبَرًا مِنْهَجَ الْعَرَبِ الْأَقْبَحِ الْأَوَّلِينَ، فبدأ انطباعيًا

تأثيرًا مزاجيًا تاريخيًا، وأما المرحلة الأخرى، فهي مرحلة النقد الحداثي بمرجعياته الغربية التي بدأت منذ حصوله على شهادة دكتوراه الدولة في الآداب من جامعة السوربون عام 1983م، وكان عنوان أطروحته "فنون النثر الأدبي بالجزائر" أشرف عليها المستشرق الفرنسي "أندري ميكائيل"، وقد شكّلت هذه المرحلة نقلة مختلفة لدى أستاذنا أضرب فيها صفحًا عن المناهج السابقة التاريخية منها والسِّياقية والانطباعية، ومَحْض دراساته للمناهج النصية، وقد تجلّت تلك النقلة في عدد من كتبه منها: (النص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟)، 1983، وفي هذا الكتاب يتضح تبنيه للمناهج الغربية، فيتعامل مع نص لأبي حيان التوحيدي كبنية لغوية وجمالية انطلاقًا من العناصر التي تكوّنه وصولًا إلى وظيفته التأثيرية الجمالية، حيث تعامل مع اللفظة الواحدة وما توحى به، ثم الجملة، ثم النص ككل، وكتابه (بنية الخطاب الشعري) 1986، وكتاب (ألف ليلة وليلة، تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمال بغداد) 1989، وكتاب (أ/ي دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أين ليلاي؟)، 1992، وكتاب (شعرية القصيدة.. قصيدة القراءة؛ تحليل مركب لقصيدة أشجان يمانية)، 1994، وكتاب (تحليل الخطاب السردى؛ معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية زقاق المدق) 1995، وكتاب (مقامات السيوطي؛ تحليل سيميائي مركب للمقامة الياقوتية)، 1996، وكتاب (في نظرية الرواية، بحثٌ في تقنيات السرد)، 1998، وغيرها من الكتب التي طبّق فيها المناهج الحداثية.

الدكتور مرتاض أستاذ إشكاليّ متجدّد لا يقف على حالٍ واحدةٍ في البحث ولا في التنظير، ولا يستقرُّ على منهجٍ واحدٍ مكرّر، بل وصل به إيمانه بعد اطلاعه على مناهج الغرب في مصادرها الأصلية، وعدم تعصبه لمنهج ما على حساب منهج إلى تبنيّ (اللامنهج) أو ما يطلق عليه بالمنهج المركّب الذي يقوم على تعدّد القراءة للنص الواحد، وقد مارس ذلك في مشروعه النقدي، وبرهن عليه بأكثر من كتاب وبحث.

لأستاذنا طريقة خاصة في نحت المصطلحات، ومنه تعرّفنا لأول مرّة على مصطلح (البَنَوِيَّة) -وليس البنيويّة كما هو شائع ولا البنائيّة- ويفسّر ذلك وفق أصول عربيّة معجميّة وصرفيّة في تبنيه للمصطلح، ومنه عرفنا أيضًا مصطلح (الحَبَز) عوضًا عن مصطلح المكان، أو الفضاء في الرواية، ومصطلح (السِّيميائية) التي يرى أنّه مصطلح عربي الأصل ورد في عديد من الكتب التراثية، قبل أن يكون مصطلحًا غربيًّا مأخوذًا من الفعل (سوم) وتعني العلامة، والسمة، والوسم، والسيميا: عِلْمٌ من علوم العرب، وفي المقابل نجد له مصطلحات يثورُ فيها على المعاجم القديمة وعلى اللغة القديمة، ويقترح كثيرًا من المصطلحات المقيسة على التسميات الغريبة، مثل قوله: (جدلغة) وتعني (لغة جديدة) قياسًا على قولهم (نيولوجي) وهكذا، ومن المصطلحات الأخرى التي ابتدعها نجد له أيضًا (البدعدة) المنحوتة من (بدأ وعاد) قياسًا على recurrence. (والتحلفسي) المنحوت من التحليل النفسي، وغيرها من الاجتهادات

واللغة الخاصة والمصطلحات التي تحتاج إلى دراسة نقدية في مشروعه الثَّريّ، وقد نهَضَ لدراسة مشروعه عددٌ من الباحثين في الجزائر وفي غيرها، وربما بلغت الآن أكثر من مائة رسالة جامعية، وما يزال الأمر قابلاً للبحث والدراسة العلمية الجادة، لأن مشروعه الإبداعي والنقدي والتعليمي متعدّد العطاء، واسع الأغوار، وهو يرمي في كل فنّ بسهم فيصيب. أستاذنا كاتبٌ مبدعٌ يمتلكُ ناصية البيان، وإشراق العبارة، وجمال السبك، متحكّمٌ في التركيب مدهشٌ في البناء، خلال أكثر من نصف قرن زادت مؤلفاته العلمية عن ثمانين مؤلفاً، تفخر به الجزائر، وقد عرفته مؤرخاً وناقداً ومبدعاً، كما عرفته الأقطار العربية كلها منظرًا، ومحاضرًا، ومحللًا، ولغويًا، وعضوًا في عددٍ من المجامع اللغوية، ومحكّمًا في البرامج الثقافية والشعرية، والمؤسسات العلمية البارزة في المشرق والمغرب، وله في الإبداع عددٌ من الروايات مثل: (نار ونور، وادي الظلام، الخنازير، مرايا متشظية، الطوفان، الخلاص، رباعية الدّم والنار، ثلاثية الجزائر (رواية تاريخية)، ثنائية الجحيم...)، وله مجموعة قصصية بعنوان (هشيم الزمن)، ومسرحية بعنوان (زواج بلا طلاق)، وسيرة ذاتية هي (الحفر في تجاعيد الذاكرة) 2003م.

ولأستاذنا القدير في دراسة النصوص طريقة خاصّة يربط فيها عادةً بين أفق التنظير، وممارسة التطبيق على النصوص التي تنوعت بين شعر وسرد ونثر عمومًا، ويميل في جميعها إلى دراسة التراث وفق المناهج النقدية

الحديثة، وله في التنظير المستقلّ أيضًا كتابات عميقة وكثيرة، منها: كتاب (في نظرية الرواية) 1998م، و(في نظرية النقد) 2001م، و(في نظرية القراءة) 2003م، و(في نظرية البلاغة) 2011م، وغيرها من الإسهامات المتعدّدة التي يطول بيانها.

ولجهوده الكبيرة والمتعدّدة ولمنجزه النقدي سجّل اسمه في موسوعة "لاروس" بباريس مصنّفًا ضمن النقاد العالميين.

* (فصلُ الخطاب) *

"الحلم واسعٌ شاسعٌ، والطُّمُوحُ كبيرٌ غيرٌ محدودٍ؛ ولكن ما أنجزَ منهما ضئيلٌ صغيرٌ، وما تحقّقَ منهما نزرٌ قليلٌ. كان عليّ أن أعلو القمّةَ فظلتُ قابعًا في الحضيض. وكان عليّ أن أَلِمَّ بأهمّ الثقافات الإنسانية الكبيرة في لغاتها الأصليّة، فلم أستطع أن أحقّق شيئًا من ذلك، إلّا في العربيّة، والفرنسيّة، وبدرجةٍ أدنى في بعض اللغات الأخرى الأوربيّة والشرقيّة... وكان عليّ أن أحفظ العلوم ولا أنساها فأهدّها هَدًّا، غير أنّي كثيرًا ما أذهل عمّا أتعلم، وأنسى ما أحفظ، فأضطرُّ إلى مراجعته كلّ حين عوض المضيّ في طلب علم جديد، وكنتُ أحلم بأن يُصبح الأدب العربيّ المعاصر كالأدبَيْن العالمَيْن الكبيرَيْن: الفرنسيّ، والإنجليزيّ، بيد أنّ هذا الحلم لم يتحقّق، وظلّ هذا الأدب قابعًا في مكانه لا يَريم! وكنتُ أحلم بأن تغتدي الجامعاتُ

العربية في الوطن العربي مراكز إشعاع معرفي وثقافي، وحضاري، فتزدهر المعرفة فيها في أعلى مستوياتها، وأرقى درجاتها، فتخرج مثل هذه الجامعات فلاسفة مفكرين، ونقاداً عالميين، ومهندسين مخترعين، وباحثين مؤتلفين، غير أن ذلك لم يحدث، بكلّ حزن، إلى اليوم، أو لم يحدث إلّا لمأماً، ثم كنت أحلم، ولا أزاله، بأن يصبح العرب أمة كبيرة، كما كانوا، يمتلكون قوة العلم، وقوة الاقتصاد، وقوة السلاح، ومن ثمّ قوة السياسة، بحيث يهابهم العدو، ويحترمهم الصديق... @ أ.د/ عبد الملك مرتاض. (مقدمة كتاب: "عبد الملك مرتاض: المفكر الناقد- تأملات في أعماله" د. محمد سيف الإسلام بوفلاقة).

تَحِيَّة

(لمرتاض ذاكرة من ألقى
له همّة من عبق
له في الطموج صفاء الوضوح
له في البيان علو الشفق
يعلّمنا أن مهراً العلوم
اجتهاد
وصبر

وَحَفَرٌ
وَعُمُرٌ
يُحَرِّكُنَا بِالْقَلْبِ
وَحَتَّى تَرَى شَاحَاتِ الْجِبَالِ
وَتَبْلُغَ آفَاقَهَا شَاحًا
وَتَحْمِلَ صَخْرَةَ هَذَا الْوُجُودِ
وَتُشْعِلَ ضَوْءَ الْعُيُونِ بِنُورِ الْحَدَقِ
وَتَنْحِتَ فِي الصَّخْرِ اسْمَكَ
تَرْقُمَ فِي الطَّرِيسِ رَسْمَكَ
لَا تَنْحَنِي مَرَّةً لِلنَّزَقِ
وَوَاصِلُ خُطَاكَ لِيَتَعَبَرَ ذَاكَ التَّنْفِقِ
تُرَائِكَ ذَاتُكَ..
هَذِي الْعُرُوبَةُ أَقْدَارُنَا
وَهَذَا اللَّسَانُ هُوَيْتُنَا وَالْأَرْقُ).



(11) الأستاذ الدكتور إبراهيم السَّامرائي
(اللَّسَانِيُّ الْحُجَّةُ، واللُّغَوِيُّ الَّذِي يَكْتُبُ وَكَأَنَّهُ يَتَحَدَّثُ)

أحدّثكم اليومَ عن عالمٍ عربيٍّ، ولُغويٍّ لسانيٍّ كبيرٍ جمعَ بين ثقافة الشرق -وبوابته العربية تحديداً بغداد التاريخ والحضارة والخلافة والعزة- وبين ثقافة الغرب بدراسته في جامعة السوربون بفرنسا، فتكوّن لديه منهجه المنضبط، وأفقُه المتّسع، ودقته العلمية والأكاديمية الرصينة، يضاف إليها جميعاً همّةٌ عالية، وثقّةٌ بالنفس لا تعرف الانكسار أو التراجع أو الهوان، لأنّه يتمثّل دوماً بحكمة جدّه المتنبّي تلك الحكمة الجامعة التي شعارها:

من يَهْنُ يَسْهُلُ الْهَوَانُ عَلَيْهِ ... ما لَجِرَجَ بِمَيِّتٍ إِيْلَامُ
لهذا قاسى في مقابل هذه العزّة الكثيرَ من الغربة والبُعد عن الأهل، وعن مراتع الصّبا، ومواطن الصّبا والشّباب لأنّ لكلّ عالمٍ فتنةً يُبتلى بها إن في علمه -وهو الأغلب- أو في وطنه أو في قوله لكلمة الحقّ والدفاع عنها، وعن طريق الصدق والصواب الذي لا تراجع عنه ولا استسلام فيه، ولا هوان.

وهو رجلٌ على خلقٍ عظيمٍ، وعلى سَمَتٍ رزينٍ، شاعرٌ رقيقٌ، برّ بإخوانه وأصدقائه، إلا إذا مُسَّتْ كرامته؛ فهو كالرعد القاصف، والريح العاصف! فقد تقدّم باستقالته إلى كلية الآداب بجامعة بغداد عام 1980م حين شعر أنّه قد تحكّم فيها غيرُ أهل العلم.

ومن مواقفه أنّه حين سمعَ أن إدارة الجامعة الأردنية يتحدّثون عن التقشّف، وأنهم ينظرون إلى التخفّف من المسنّين الوافدين، فما كان

منه إلا أن خَفَّف عنهم قبل أن يتخَفَّفوا منه! ومع أنهم أَكَّدوا له أَنَّهُ لم يكن مقصودًا بذلك؛ إلا أَنَّهُ أمضى استقالته، وقَصَدَ جامعة صنعاء.

وأستاذنا السَّامِرَائِي عَفِيفُ النَّفْسِ أُبَيُّهَا؛ فحين قال له الدكتور شوقي ضيف مرَّةً: "إنه في كُلِّ عامٍ تُفْتَتَحُ جامعةٌ في الأردن؛ فلماذا لا تتقدَّم إليها بطلب للتَّدرِيس؟!". أجابه السَّامِرَائِي: "أنا لا أَتقدَّم! إن رغبوا؛ فليأتوا إليَّ!!". ولا شك أن هذه صفات العلماء الكرام؛ لأنَّ العلمَ يُؤْتَى ولا يَأْتِي.

اتخذ أستاذنا من مدينة (صنعاء) مرفأً يتنَسَّم فيه عبق مدينته التاريخية الباذخة ببغداد. صنعاء المدينة التي لا تقلُّ حضارةً ولا عُمقًا ولا عبقًا صادقًا عن مدينته، فعاش فيها زمناً يتفياً جملها، ويستلهم تاريخها وإنسانها ولسانها وروحها المحبَّة لكلِّ العرب، تلك الروح المضياف المعطاء لكلِّ من يَمُّ محرابها، أو قصدَ وفاءها، أو لاذَ بحماها، فلا تنكره، ولا تقهره، بل تفتح له أبوابها السَّبعة التي تشبه القلوبَ ليلجَ من أيَّها شاء، وليعلَقَ بأيَّها أحبَّ.

حديثنا عن أستاذنا العالم الجليل واللغوي التَّحْريِر، والأكاديمي القدير الأستاذ الدكتور إبراهيم أحمد السامرائي (توفي عام 2001م)، وهو إضافة إلى تلك الصفات المتخصصة أديبٌ وشاعرٌ، وعضوٌ في عددٍ من المجامع اللغوية منها: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، حيثُ انتُخبَ عضوًا مراسلًا منذ عام 1980م وعضوًا عاملاً منذ سنة 1990م، ومجمع اللغة

العربية في دمشق، ومجمع اللغة العربية الأردني، واللجنة المعجمية التونسية، والمجمع العلمي الهندي، والجمعية اللغوية الفرنسية.

درستُ لديه، وتلقيتُ عنه مقررًا دراسيًا واحدًا هو (النحو ومدارسه) في مرحلة المقاصّة في كلية الآداب بجامعة صنعاء في العام الجامعي 1994-1995م، وكان الكتاب المقرّر علينا هو كتابه "المدارس النحوية أسطورة وواقع" وهو من الكتب المهمّة في رصد المدارس النحوية، وما تتصف به كل مدرسة من ملامح، وأبرز خصائصها ورجالاتها.

تعلمتُ من أستاذنا السامرائي أنه حين يكون في قاعة الدرس، ويشرح آراءه يكون مُنصفًا في قول ما له وما عليه، مع اعتزاز واعتدادٍ برأيه إلى حدٍّ كبير، وإقناعٍ للمستمع بحجّته، فهو يسوق الدلائل عليها، ويستكمل جوانب الإقناع فيها.

كان مهيبَ الحضور بالنسبة لنا، فلا يكلمُ إلا بمحذر، ولا يُسألُ إلا في ضرورة، وقد كان -رحمه الله- نزقًا ربما ينفعل لأيّ سبب، ولأنّه من أهل اللسانيات كان لسانه في بعض الأحيان أكثر حِدّة ونزقًا قد يدفعه -غفر الله له- إلى اللَّعنِ أحيانًا، ولكن في حدودٍ ضيّقة بسبب موقف ما أو عدم فهم لأحدهم؛ حيث كان يغضبُ حين تلوح البلادة أو العناد غير المنطقي أو لأمر يراه غير مناسب.

ذات مرّة وبعد انتهاء المحاضرة صحبتُهُ مشيًا من القاعة حتى البوابة الغربية لكلية الآداب باتجاه الطريق الدائري، وفي أثناء تلك الخطوات

سمعتُ منه بعض الفوائد، وكان كلما رأى شيئاً يمكن أن يكون أفضل في النظافة أو في منظر الحديقة أو في مظهر بعض الطلاب ينتقد ذلك الأمر، وكان متبرماً من أمرٍ ما، اتضح لي بعد ذلك أنه كان على وشك مغادرة جامعة صنعاء التي غادرها فعلاً في العام 1996م بعد أن عمل فيها لعشر سنوات تقريباً منذ العام 1987م، ثم غادرها متجهاً إلى عمّان للمرة الثانية، ولعلّي سمعت منه انتقاداً لاذعاً لسياسة جامعة صنعاء، وتصرفات بعض قياداتها كانت صادرة منه عن حرقة وألم، لأنه كان يعتقد بأن الجامعة يجب أن تكون أحسن مما هي عليه.

وربما يرجع ذلك النزق في طبع أستاذنا إلى عوامل كثيرة، لعلنا لو اطلعنا على جانب من سيرته الذاتية في كتابه (حديث السنين: سيرة ذاتية، 1998م) لأدركنا السبب، والتمسنا له العذر، وقد كتب سيرته الذاتية بطريقة مختلفة؛ حيث جعلها على شكل حوار بينه وبين صاحبه بما يشبه حوار الفلاسفة والمربين، فجاءت تلك السيرة ذات أسلوب ممتع بديع بليغ يعيد إلى الأذهان أسلوب الجاحظ والتوحيدي، وغيرهما من أئمة البيان العربي، وهم بلا شك أساتذته، وهو من مريديهم المخلصين في منهجهم وعلمهم.

في تلك السيرة نطلع على طَرفٍ من حياته التي يذكر فيها "أنه ولد في مدينة العمارة (إحدى حواضر جنوبي العراق) وقد نرح إليها جدّه مع طائفة من النازحين من سامرائيين تفرقوا في حواضر العراق، وكانت دارهم

واسعة اشتملت على حجرات عدة اتسعت للعشيرة بأكملها، وتتوزع هذه الحجرات أسرُ الأعمام والأخوال وذرائعهم، وكانت ولادته سنة 1923م [هذا هو الشائع في مولده، ويؤكد الأستاذ عبد الله السريحي عن الدكتور نفسه "بأن الصواب هو أن مولده كان في 1916م، بينما تأريخ ولادته المثبت في أوراقه الرسمية هو 1923م، ويقول عنه إنه خطأ شاع وأصبح من الصعب تصحيحه أو تلافيه"]، وقد ذاق مرارة يُتم الأبوين، وهو حَدَثٌ، فعوضته العناية الإلهية بأُمٍّ رءوم حنون هي خالته التي حَدَبَتْ عليه، وعلى شقيقته التي سرت إليها عدوى المرض من أمِّها التي كانت مصابةً بالسَّلِّ، وكان سبباً في موتها، ومن أعجب ما روى السامرائي في ذلك بأنه رضع لبنَ أمِّه، وكانت مصابةً بالسَّلِّ.

وقد شَقِيَ السامرائي في صباه كما شَقِيَ في كهولته وشيخوخته، فقد وافاه الأجل في عام 2001م في عَمَّان، حيث عاش غريباً كئيباً، فلاحقته سهام الشقاء والعناء في جميع أطوار حياته فعندما سافر للالتحاق بالبعثة العلمية العراقية صحب شقيقته وخالته الى مصحَّ "هلمين" في لبنان لعلاجهما من ذلك المرض الفتَّاك الذي يقتنص فرائسه وضحاياه من الفقراء والبائسين الذين لا يجدون ما ينفقون.

ولما طلب منه صاحبه ومحاوره -في كتابه السَّيرة- أن يبسط تلك الصفحات عن تلك العهود المظلمة، أجابه بقوله: "أتَّى لي بهذا؟! وقد غربت

عني عهدٌ، وتحولت إلى عصر آخر شقيتُ بخطوبه، ولم أجد حاشيةً في أسفاري أبسط فيها بعض أضغاث أحلام...".

وقد مضى أستاذنا السامرائي في سرد أيام طفولته حين ذهب إلى الكتّاب قبل الذهاب إلى المدرسة، ويذكر أنه كان معه في الكتّاب ثلاثون آخرون، وكان تلميذ الكتّاب يُسمّى (صانع) وهذا اللقب كان يُطلق على تلاميذ الكتّاب في بغداد.

وتكون خاتمة المطاف لصنّاع الكتّاب هي الختمة (ختمه القرآن) وهي مرحلة التخرج النهائية، ويمضي السامرائي في وصف عهد الطفولة فيقول: "لقد شغلتنى همومي وأنا صغيرٌ حَدَثٌ فوعيتها، وصاحبتي طوال المراحل اللاحقة" ورغم ما كان فيها من آلام، وفقد، ومعاناة شديدة إلا أنه قد وصفها بوصفٍ بليغٍ موجزٍ دالٍّ، وهو يجمع بين متناقضاتها، ويعبر عن آلامها، أطلق عليها (نعيم البؤس) حيث يقسو الزمان وتكالب الأحزان فيوجز التعبير عنها فيقول: "لقد مرَّ بنا زمان لا نجد من طعامنا إلا مسكة نتبلَّغ بها لا تتجاوز الخبز القفار لا إدام له إلا بعض الخضر".

ومن هنا نستطيع أن نتفهّم بعض ملامح شخصية أستاذنا التي كان يغلب عليها ذلك الألم والحزن، بسبب تلك الطفولة المقترنة بالفقد واليتم والموت والفجيرة في الأبوين وفي الأقارب، وبسبب ذلك الصّبا المرتبط بالمعاناة والسفر والترحال، ثم الشباب المكتنف بالثورة والعناد والرفض،

ومن هذا كله تتضح بعض صفاته، وندرك سرَّ ذلك المزاج الحاد الراض النَّزق.

وقد سردَ أستاذنا السامرائي في كتابه الكثير عن حياته وطفولته وشبابه وصولاً إلى دراسته، وكيف تعرَّض لغمط حقّه في أخذ بعثةٍ دراسيةٍ من بلده العراق على الرغم من أنّه كان الأول على دفعته حتى قيَّض الله له الأستاذ الدكتور متى عقراوي الذي أعاد له حقّه السليب في البعثة بعد أن كاد يضيع بسبب الأحقاد والأنانيات.

ثم يبدأ أستاذنا السامرائي صفحة جديدة وهي الالتحاق بالبعثة إلى جامعة السوربون، وكان يحدثنا في محاضراته عن مدى اهتمام الفرنسيين بالقراءة، وكيف لفت نظره واسترعى انتباهه من أول لقاء فعندما استقل القطار السريع إلى باريس وجد أغلب الركاب يقرؤون في كتاب أو في صحيفة، وهم في هذه الصفة سواسية تجد السيد والسيدة اللذين يبدو أنهما على حظٍّ موفور من الثقافة.

وفي سيرته يتحدَّث عن المعهد الإسلامي، ومكتبة اللغات الشرقية، وكلية فرنسا تلك المؤسسة العظيمة التي يختم فيها كبار الأساتذة عملهم الجامعي، ويحدثنا عن تعلُّمه للغات التي كان على معرفة واسعة بها، والسبب أنه في دراسته في مرحلة الدكتوراه في السُّربون كان لازماً عليه أن يتهيأ لدراسة اللغات السَّامية، فبدأ هذه المسيرة بدراسة اللغة العبرانية، فقصده المعهد الكاثوليكي، وانتسب إليه طالباً ملتزماً بالحضور التام، ودفع أجور

الدراسة، فزودوه بالكتب التي أُعدَّت للمبتدئين، فوجد نفسه قريباً من تلك اللغات؛ ذلك لأن العبرانية، والعربية، ولغات أخرى عدة هي أخوات تجمع بينها - كما كان يقول - أواصر النسب التاريخي.

ولم يقف في هذا المعهد عند دراسته للعبرانية والآرامية، بل سمَّت به همَّته إلى دراسة الحبشية، والبابلية، والآشورية، والسبئية.

ويقتضي حصول الباحث على درجة "دكتوراه الدولة" في جامعة السوربون إعداد رسالتين علميتين فيهما جدة وزيادة معرفة، تسمَّى الرسالة الأولى: الرسالة الكبرى أو الرئيسية، والثانية: الرسالة الثانوية أو التكميلية، وكانت رسالة السامرائي الرئيسية في لغة القرآن الكريم وعنوانها "الجموع في القرآن مقارنة بصيغ الجموع في اللغات السامية"، أما الرسالة التكميلية، فهي تحقيق كتاب "المثل السائر" لضيء الدين ابن الأثير.

وفي حديثه الشائق عن رسالته للدكتوراه التي نوقشت في شهر مارس 1956م، وعودته إلى بغداد نجده يقول: "كانت اللجنة برئاسة الأستاذ "ليني بروفنسال" عميد المعهد الإسلامي رئيساً، وعضوية الأستاذ "بلاشير" - وهو المشرف الرسمي - والأستاذ "شارل بلا"، ثم الأستاذ "لاووست" الذي استُدعي من جامعة "ليون" واستغرقت المناقشة سبع ساعات، ثم انصرفت اللجنة لبضع دقائق، ثم عادت، فأعلن رئيسها القرار بمنح الدارس إبراهيم السامرائي درجة دكتوراه الدولة برتبة الشرف الأولى، وبعدها قفَّل راجعاً إلى بغداد ليجد مكانه في قسم اللغة العربية في كلية الآداب ليدرِّس مادة

النحو لطلبة السنة الأولى، ومادة فقه اللغة لطلبة السنة الثالثة، واللغة العبرية لطلبة السنة الرابعة، واللغة السريانية لطلبة قسم الآثار، وهكذا انتهى دور الاستفادة لبدأ دور الإفادة.

لأستاذنا السامرائي في مسيرته العلمية الحافلة الكثير من الكتابات الرصينة، والأبحاث العلمية الجادة، والمؤلفات النافعة، ويمكن تقسيمها إلى: خمسة أقسام: كتب مؤلفة، وكتب محققة، وكتب مترجمة (عن الفرنسية والإنجليزية)، وكتب مدرسية (تعليمية) شارك السامرائي في تأليفها، وكتب منجزة ما تزال تحت الطبع (تأليفاً وتحقيقاً وترجمة). وأما الإشراف على رسائل الماجستير والدكتوراه فهي بالعشرات، وكذا الأبحاث المحكمة والمنشورة في الدوريات والمجلات والصحف فهي بالمئات، وحدث ولا حرج.

له من المؤلفات نحو من خمسين كتاباً، ومن التحقيقات ما يربو على العشرين، نذكر من تلك المؤلفات على الجملة، وهي معروفة في مظانها، بتواريجها، وبتعدد الناشرين لها، ومنها: «الأعلام العربية» و«إعلام الورى فيما نُسب إلى سامراً» و«التطور اللغوي التاريخي» و«التكملة للمعاجم العربية من الألفاظ العباسية» و«التوزيع اللغوي الجغرافي في العراق» و«الدّخيل في الفارسية والعربية والتركية» و«دراسات في تراث أبي العلاء المعري» و«دراسات في اللغتين السريانية والعربية» و«رحلة في المعجم التاريخي» و«رسائل ونصوص في اللغة والأدب والتاريخ» و«العربية تاريخ

وتطور» و«الفعل.. زمانه وأبنيته» و«فقه اللغة المقارن» و«في الصناعة المعجمية» و«في اللهجات العربية القديمة» و«في مجلس أبي الطيب المتنبي» و«في المصطلح الإسلامي» و«لغة الشعر بين جيلين» و«فقه اللغة المقارن» و«اللغة والحضارة» و«تنمية اللغة العربية» و«لفيف وأشتات» و«المجموع اللّفيف» و«المدارس النحوية» و«مع المصادر في اللغة والأدب» و«مع المعري اللغوي» و«مع نهج البلاغة» و«معجم الفرائد» و«المعجم الوجيز في مصطلحات الإعلام» و«معجم ودراسة في العربية المعاصرة» و«المقترح في المصطلح» و«من أساليب القرآن» و«من بديع لغة التنزيل» و«من سعة العربية» و«من الضائع من معجم الشعراء» و«من معجم الجاحظ» و«من معجم عبد الله بن المقفع» و«من معجم المتنبي» و«النحو العربي نقد وبناء» وغيرها.

ومن التّحقيقات: «الأمكنة والمياه والجبال للزمخشري» - «السرج واللجام لابن دريد» - «ديوان الجواهري» - «ديوان الفُطامي» - «رحلة ابن عابد الفاسي» - «الزهرة لمحمد بن داود الأصبهاني» بالاشتراك مع الدكتور نوري القيسي - «فلك القاموس للكوكباني» - «في التّعريب والمُعَرَّب حاشية ابن بري على كتاب "المعرب" لابن الجوالقي» - «كتاب العين المنسوب للخليل بن أحمد الفراهيدي» بالاشتراك مع الدكتور مهدي المخزومي - «كتاب الكتّاب لابن درستويه» بالاشتراك مع الدكتور عبد الحسين الفتلي - «كتاب النخل لأبي حاتم السجستاني» - «كشف النقاب

عن الأسماء والألقاب لابن الجوزي - «المرصع في الآباء والأمهات والبنين والبنات لابن الأثير» - «نزهة الألباء في طبقات الأدباء لأبي البركات الأنباري» - «نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي» بالاشتراك مع الدكتور محمد بركات أبو علي، وغيرها.

كَمْ غَزِيرٌ يَذْكَرُنَا بَعْطَاءِ عِلْمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ الْأَفْذَاذِ فِي تَارِيخِهَا الْقَدِيمِ الزَّائِرِ، وَبِرَكَّةِ أَعْمَالِ أَصْحَابِهَا الَّذِينَ لَمْ يَدَّخِرُوا وَسْعًا فِي خِدْمَتِهَا، وَلَمْ تَصْرِفْهُمْ شَوَاغِلُ الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ عَنِ الْعُكُوفِ عَلَى التَّأْلِيفِ وَالْبَحْثِ بِقُدْرَةِ عَجِيبَةٍ وَجْهٍ مُوْفِقٍ مُبَارَكٍ.

وكان أستاذنا شاعرًا، وله ديوان شعر أسماه «حنين إلى الكلم الضائع». كما كتب عنه الكثير من الدارسين والباحثين كُتِبًا وَأَجْحَاثًا ومقالاتٍ علميةً، ومنهم: أحمد العلاونة كتاب «إبراهيم السامرائي علامة العربية الكبير»، وعبد الله يحيى السَّريحي كتاب «إبراهيم السامرائي: الإنسان والكتاب».

* (فصلُ الخطاب) *

"وما ندري أي نفع أصاب أولئك، وهم يلفقون، ويكذبون، ألم يسأل ذو المروءة نفسه هذا السؤال: لقد عرفنا أن الرأي في الاعتقاد أو

الزلفى من الحاكمين قد صنعت ما صنعت، فضاغ حقٌّ، وهُجرَ علمٌ، فهل
كان شيء من هذا حقَّز أبا حاتم وغيره من البصريين إلى هذا؟!
أقول هذا لأني واثقٌ أنَّ في دنيانا المعاصرة قومًا قد ابتلوا بهذه
الآفات، فزَيَّنوا الباطل وبهروا الجهل، وطمسوا الحقَّ زلفى لفلان، واستنامة
إلى رأي في السياسة ونحوها، وشيء كمثل حبة من خردل من هذا يفسد
المروءة، ويوقع في الشر، ولئن أسفتُ على شيءٍ لآسفَنَ على مروءة نَضَبَ
معينها، وحرام علينا أن يتنكَّرَ آخرنا لأولنا. غفر الله لنا جميعاً@ د. إبراهيم
السامرائي (كتاب المدارس النحوية).

تَحِيَّة

(وجه العراقِ وصَوْتُهُ الْأَنْقَى

وَلِسَانُهُ الْمَتَدَقُّ الْأَبْقَى

رَمَزٌ لِسَامِرَاءَ يَنْشُرُهَا

بَيْنَ الْوَرَى فَيَزِيدُهَا عِشْقًا

هُوَ خَالِدٌ فِي الْحَرْفِ تَذَكُّرُهُ

كُلُّ الْعُلُومِ، وَيَذْهَبُ الْحَمَقَى!

إِخْلَاصُهُ وَعُلُوُّ هَمَّتِهِ

يَتَنَاوَبَانِ عَلَيْهِ كِي يَرْقَى

قَدْ أَشْرَقَتْ بِجَهْدِهِ كُتُبٌ

وَسَمَتْ بِفَيْضِ جَلَالِهَا صِدْقًا

سَتَظَلُّ فِي الْمِيزَانِ تَرْفَعُهُ

وَيَظَلُّ فِي وَجْدَانِنَا حَقًّا).



(12) الأستاذ الدكتور السيد إبراهيم محمد
(مُساوِرُ زَادَهُ الْخِيَالُ وَالْحُلُمُ.. وَنَاقِدُ عُدَّتِهِ الْمَنْهَجُ وَالْحِلْمُ)

أستمعُ إليه يقرأُ من مخطوطِ ديوانٍ جديدٍ له، موضوعه عن الغُراب، وهو موضوع طريف فيه لغة شعرية محلّقة، ومعنى مختلف يقود إلى التأمل أكثر من العاطفة، وإلى استثارة العقل ومناوشته أكثر من مداعبة الوجدان ودغدغته، ويمضي أثناء القراءة في التعليق والشرح والتوضيح حيناً، وفي القراءة الشعرية حيناً آخر، ومن ضمن أسئلته وملاحظاته سؤالٌ مفاده: لماذا يكون الظلم لهذا الطائر الذي لا ذنب له سوى سواده؟ ولماذا خلّع عليه الإنسان عبر تاريخه كل هذه الأساطير والدلالات من التشاؤم والتراث الممتد في الأمثال، والشعر، والنثر؟!

كان ضيفنا وضيف صالون "تليمة الأسبوعي" يقرأ شعراً جديداً ذا نغمةٍ خاصّةٍ وفلسفةٍ عميقةٍ، ثم يناقشه فيه كوكبةٌ من الأساتذة الأكاديميين والأدباء والصحفيين في مجلس أستاذنا الدكتور عبد المنعم تليمة، إنه ذاته أستاذي الدكتور السيد إبراهيم محمد سيد أحمد رجلٌ ستيقي متوسط الطول أنيق المظهر بنظارته ذات العدسات البنيّة الغامقة التي لا تكاد تحدّد لون عينيّه من خلفها، وشاربه الكثيف الذي كان بنيّ اللون فصار البياض يشوبه ويغلب عليه، لكنّ حيويته وورصاته وروحه التي عرفتها عنه قبل أكثر من عقدين من الزمن ما تزال واضحةً حاضرةً.

انتهت الأمسية وتقدّمتُ إليه معرّفاً بنفسي "دكتور السيد.. كيف حالك؟ أنا أحد طلابك في جامعة صنعاء في العام 1990م، وما زلتُ أتذكّر محاضراتك عن الرمز في الأدب الجاهلي، وحديثك عن الحمار الوحشي

ودلالاته المهمة في الشعر الجاهلي، وكذلك محاضراتك عن قصيدة "بانت سعاد" وشروحها الكثيرة والمتعددة، فهل تتذكر تلك الفترة، وتلك الجامعة؟" وأردفتُ مداعبًا: ولا شكَّ أنك لا تتذكرني!

فما كان منه إلا أن وقف مرحبًا مسلّمًا فرحًا هاشًا باشًا بذكرى أعادته إلى اليمن، وإلى مرحلة عمرية جميلة، وحقبة زمنية عزيزة عليه، وبدأ يحدثُ أستاذنا تليمة، ومن بقي من الحاضرين عن اليمن، وعن جامعة صنعاء، وعن ذكرياته فيها، وعن طلابها المجتهدين، وعن فرحته بأن يجدَ اليوم واحدًا منهم في مصر الكنانة وهو فوق ذلك يستعدُّ لمناقشة رسالة الدكتوراه فكانت ليلة ليلاء فيها من الحديث شجون ومن الذكريات شؤون. وستلعب الأقدار دورًا عجيبيًا، حيثُ سيكون أستاذاي الدكتور السيد إبراهيم محمد -حفظه الله وأطال في عمره- أحد المناقشين الأربعة لرسالتي للدكتوراه بعد ذلك بأشهر، وسيشير إلى ذلك بكل اعتزاز في أثناء المناقشة، مؤكّدًا على سروره البالغ بهذا الباحث وجديّة الباحث اليمني عمومًا وطموحه ومثابرته، ومؤكّدًا على أجمل ذكرياته التي لم تستمر كثيرًا في صنعاء مع رغبته في ذلك الاستمرار، حيث عمل لمدة عامين جامعيين فقط بين عامي 1989-1991م، ولكنّه انتقل للتدريس في جامعة أخرى، وكان نقاشه لرسالتي مفيدًا جدًّا بكل علميّة وحصافة ومنهجية عُرفت عنه، وعن تاريخه الطويل أستاذًا للنقد الأدبي الحديث وعميدًا لكلية الآداب (بني سويف) جامعة القاهرة.

ولأستاذنا سيرةً ذاتيةً عامرةً نذكر منها هنا مجرد إشارات تعريفية سريعة: فهو من مواليد 20 أبريل 1951م، طنطا، محافظة الغربية. متزوج وله ولد وبنت، التحق بكلية الآداب جامعة عين شمس، ونال فيها درجة الليسانس في قسم اللغة العربية عام 1972م، بتقدير عام جيد جدًا، وكان أول الدفعة، ودرجة الماجستير بتقدير ممتاز، وذلك في موضوع: "الضرورة الشعرية: دراسة أسلوبية مع تحقيق لكتاب ضرائر الشعر لابن عصفور الإشبيلي عام 1976م" ثم حصل على درجة الدكتوراه من جامعة الإسكندرية عام 1984م، بمرتبة الشرف الأولى، وكان موضوعها: "قصيدة بانث سعاد لكعب بن زهير، وأثرها في التراث العربي". وقد عمل في عدة جامعات مصرية وعربية، منها: جامعة عين شمس حيث كان فيها معيدًا، ثم مدرسًا مساعدًا من عام 1973-1981، وعمل في جامعة حلوان مدرسًا مساعدًا ومدرسًا وأستاذًا مساعدًا من 1981-1992م، ثم أستاذًا مساعدًا وأستاذًا بكلية الآداب جامعة القاهرة، فرع بني سويف من 1992 إلى 2004م، وعمل في جامعة بني سويف وما يزال يعمل حتى الآن. كما شغل منصب رئيس قسم اللغة العربية بها 2002-2003، وعمل وكيلاً لشئون الدراسات العليا 2003-2006، ووكيلاً لشئون التعليم والطلاب 2006-2008، ثم عميدًا للكلية حتى 2011م. كما عمل بالتدريس بجامعة صنعاء 1989-1991، وأستاذًا للأدب العربي والت نقد بكلية الآداب جامعة الملك سعود بالرياض 1996-2002م.

وحين تعود بنا الذاكرة إلى محاضرات أستاذنا الدكتور السيد إبراهيم محمد تلك المحاضرات التي حَفرت فينا بدايات التحليل والفهم والاستنباط للشعر الجاهلي، وأسست المفاهيم العلمية لطبيعة دراسة الشعر العربي القديم والاهتمام به وفق مناهج حديثة، فإنني أتذكر حديثه الشائق المختلف عن قصّة الحمار الوحشي في الشعر الجاهلي، وهي قصة كما يقول عنها: "مثيرة حافلة بالرؤى والأفكار. والشُعراء على كثرة ما يكرّرون من عناصرها، يقول كل شاعر منهم شيئاً لم يقله غيره. ظاهر الأمر أنها قضية الحمار الكائن الذي وقعت عليه أعيُن الجاهليين واتجهت إليه أبصارهم، وحقيقة المسألة أن هذا الكائن الذي اتسعت قصته في الشعر القديم اتسع لقدرٍ من الرؤى والفلسفات وأعمال الفن على قدر الشعراء الذين تناولوه، بل ربما على قدر القصائد التي ذُكر فيها.

قصّة الحمار الوحشي باعتبارها واقعاً مُشاهداً يمكن استخلاصها من خلال الشعر الذي كُتِبَ عنه، وهو كثير، فهو معروف باتخاذ الزوجات. ذكر له الأخطل في شعره عشرَ ضرائر "لا يرى العيش غيرها". وذكر له غيره ثمانى وأربعاً ودون ذلك أو أكثر، غير أنّه معروفٌ بالغيرة الشديدة على إنائه: يطرد عنها أولادها، ويتعارك من أجلها مع الحُمُر الأخرى عراگاً عنيفاً. ولذلك كثيراً ما يطالعا في الشعر مسحّجاً مكدمًا من آثار المعارك التي يخوضها.

وأهم فصل في قصة الحمار وروده الماء: تستحثه الإناث أن يذهب بهن إلى المناهل، ولكن خوفه وحذره وتوجسه يجعله ينتظر، ويصدهن عن ذلك حتى يشتد بهن الظمأ، ويدبر الأمر في عقله: هل يرد أم ينتظر؟ وتعرف الأثن أنه أجمع رأيه على الورود، وذلك لا يكون إلا ليلاً، فتظل أبصارها إلى الشمس ارتقاباً لمغيبيها. ثم يحدوها إلى الماء ملازمًا لأدبارها ومحامياً على عوراتها، لكنّها لا تبادر إليه قبله، إذ لا بدّ أن يختبره أولاً ليتبين خلوه من المتربصين. وهذا من حكمته وحرصه. ثم هي لا تكاد تلقي بأيديها إلى الماء، وتنهل منه حتى يسرع بها. وكثيراً ما يصادف على الماء صائداً يكمُن له في قترته: وقد يفلح الصائد فيصيب بسهامه إحداها. وربما يعود بالخيبة والفشل والندامة بعد أن يكون قد تربّص لها أياماً. ويفر الحمار بإنائه مستخرجاً غاية ما عنده في الجري طلباً للنجاة، ومن ورائه يرتفع الغبار. ويرتفع صياحه بعد حين ابتهاجاً بالحياة وسروراً بالسلامة".

هذه باختصار قصة الحمار الوحشي ورمزيته ودلالاته كما تطالعنا في الأشعار القديمة ولكن الشعراء لا يسوقونها على هذا النحو، بل يأخذ كل شاعر منها ما يتصل بعمله في القصيدة، ويهمل سائرهما. فمنهم من يجعله في جماعة من الأثن ومنهم من لا يجعل معه غير أتان واحدة.. ومنهم من يُعنى بتقرير غيرته على إنائه وأنه ينفي عنها جحاشها أو يطرد الحمير التي تدنو منها. ولكن منهم من لا يشغله ذلك، أي لا يكون شيء

منه موضوعًا لمقاصده وأغراضه...ثم إذا رأينا شيئًا تكرّر في أشعارهم كوقوف الحمار فوق الجبال مثلاً، وهذا من الأحوال المشاهدة له، فمنهم من يجعله في ذلك ملكًا متوجًا، ومنهم من يجعله سليبًا ابتزت ثيابه أو يجعله كالربيئة الذي يربأ للجيش وهكذا.

ولحضوره في الشعر دائمًا مناسبة تستدعي وجوده في القصيدة، قد تغمض وقد تستخفي وربما استعصت على الفهم أحيانًا. ولكن المعالجات المستمرة للشعر وقراءاته قد تثمر عن انجلاء القصيدة عن عالمها. ولكن هذه المناسبة ليست من نوع الاستطراد. فالحمار رمزٌ متغيّر، وقصّته تتجسّد فيها فلسفة متكاملة تظهر في مقدمة القصيدة وسائر أجزائها، على نحو ما ترمز الأعمال الفنية للأفكار والرؤى والفلسفات.

هكذا كان يبيّضنا أستاذنا الدكتور السيد إبراهيم محمد في محاضراته، ويفتح لنا آفاق الفهم للشعر ورموزه وسيميائياته، ونحن في مرحلة التعطّش للطلب والإقبال عليه، وكان حين يشرح يتجلى بصوته المجلجل في القاعة التي تتّسع لرؤاه وأبحاثه وأفكاره في طلابٍ ينهلون منه مناهل شتى، وإن لم تضق بأعدادنا الكثيرة في كلية التربية والآداب.

ثم تمضي بنا المحاضرات في تطوراتها وموضوعاتها المفيدة في الشعر القديم حتى نقف على قصيدة "بانة سعاد" لكعب بن زهير، فنحفظها بإرشاد منه، ونقرأها قراءة نقدية متعددة الدلالات والمناهج، ويقف بنا على كثير من معانيها شأنه في ذلك شأن أبحاثه وكتبه وطريقته في الشرح، فبعد

أن يأتي بالنص يفسّر مفرداته، ثم معانيه المترابطة بالمعنى المركزي للنص، ثم يفتح لنا آفاقاً من المعلومات والمراجع عن شروح هذه القصيدة، فإذا بها تحتوى على الكثير من الشروح والعديد من التناول في تاريخ الأدب العربي، منها ما هو لغوي، ومنها ما هو دلالي، ومنها ما هو بشرح صوفي، وغيرها حتّى ندرك معانيها ومكانتها في التراث العربي. وبعد حين اطلعتُ على كتابٍ كاملٍ له عنها، هي رسالته للدكتوراه.

هكذا يتضح مشروع أستاذنا الدكتور السيد إبراهيم الذي ينطلق من التراث العربي، ويتخذ من نصوصه ميداناً لأبحاثه الجادة والجديدة، فنجدته يدرسها ويعالجها بأحدث المناهج، حيث يتحدّث مثلاً في أحد كتبه عن "الرمز والفن" وفيه حديث عن البحث عن "الحقيقة ومسئولية الراعي دراسة في قصيدة زهير بن أبي سلمى" التي منها قوله:

فليس بغافلٍ عنها مضيج... رعيته إذا غفَلَ الرعاءُ

ومثلها دراسة بعنوان "القدر المكتوب وانكشاف المصائر: المداخل

الأسلوبية لفهم قصيدة الراعي النميري" التي مطلعها:

يا أهلُ ما بالُ هذا الليل في صَفَرٍ... يزدادُ طولاً وما يزدادُ من قِصَرِ

في إثرٍ من قُطِعَتْ مني قرينته... يوم الحدالى بأسبابٍ من القَدَرِ

وغیرها من القصائد والنصوص ذات الثراء المعرفي والدلالات

المكتنزة التي مضى أستاذنا في مشروعه يناقشها، ويناوشها بأحدث

المناهج، وبأسلوب الباحث الرصين الذي يختار زواياه المتفرّدة في البحث.

وله في النظرية الأدبية الحديثة أكثر من جهد وأكثر من كتاب، منها كتابه "آفاق النظرية الأدبية الحديثة" الذي يحتوي على فصول عدة، وموضوعات مختلفة تتعالق بالنظرية الأدبية في عمومها ومن ذلك: قضايا النقد الأدبي المعاصر في كتابات عبدالله الغدامي، استراتيجيات ومفاهيم من البنيوية، معالم أساسية من باختين، من النصّ إلى الخطاب، وقفة مع التاريخية الجديدة، مدرستان مختلفتان في نظرية القراءة، أفق التوقع: قراءة الأدب في ضوء مفهوم الأفق، اتجاهات غير تقليدية من قراءة القدماء للنصوص، ما بعد الحداثة، أدب ما بعد الكولنيالية، مفهوم ما فوق الثقافة في الكتابات المعاصرة.

أما كتابته عن الأسلوبية والظاهرة الشعرية، وما كان يسميه النحويون بالضرورة عند الخروج على الاستعمال المطّرد في اللغة، وما يُفهم من ذلك لديهم بأن هذا الخروج على الاستعمال عجز واضطرار، فإنه يمضي في معالجة ذلك في كتاب كامل يرى فيه بأن الضرورة "إنما هي أقوى مظهر للإرادة الشعرية، وفيها تتجلى روح الأديب وفرديته، وبها يظهر المعنى الذي يدور عليه النص الأدبي باعتباره كلّاً متكاملًا. وإذا كان هناك معنى ينبغي أن تؤخذ عليه الضرورة، فهو معنى اللزوم الذي لا يغني فيه شيء عن الظاهرة نفسها. فهي ضرورة للعمل الأدبي لا يتم إلا بها..."

ثم يمضي بفصول الكتاب في شرح الأسلوبية وظاهرة الانحراف في الشعر، وظاهرة الانحراف والوزن الشعري، وفلسفة الضرورة الشعرية، ثم يتبع ذلك بمبحث تحليلي.

هذه بعض مدارات اشتغال أستاذنا في النظرية والتطبيق، وله الكثير من المصنفات في هذا الميدان منها: الأسلوبية والظاهرة الشعرية (مدخل إلى البحث في ضرورة الشعر) ط4، 2007م. - كما ألمحنا إليه قبل قليل - وكتاب نظرية القارئ، 1997م، والرمز والفن (مداخل الأسلوبية والسيميوطيقا إلى الدرس الثقافي ط1، 1988 - الذي وقفنا عليه - وقد طُبع أكثر من مرة، وكتاب نظرية الرواية 1998، وكتاب قصيدة بانث سعاد وأثرها في التراث العربي، المكتب الإسلامي 1986م، - وهذا الكتاب هو الذي قرّر علينا أستاذنا، ونحن طلاب في المستوى الأول شيئاً من فصوله، قرأناه مصوراً عن نسخة كانت لديه في ذلك التاريخ في جامعة صنعاء -، وكتاب المتخيل الثقافي ونظرية التحليل النفسي المعاصر، 2005م، وكتاب قراءات جديدة في أدبنا المعاصر 2015م، وكتاب أصداء الأوتوبوجرافيا؛ ما لم يقله الشيخ عبد ربه التائه 2016م.

وأستاذنا شاعرٌ قديرٌ، له أكثر من ديوان شعري منها: صلوات العشاق أو الاصطلاء بجذوة تخبو ط2، 1998م، وعبير الرياض، دار قباء 2003، وأزاهير الرياض، نادي الرياض الأدبي 2004، ولينور، القاهرة، 2005م.

وله في مجال تحقيق التراث: ضرائر الشعر لابن عصفور الإشبيلي: هو الكتاب الذي فاز بالجائزة الأولى لتحقيق التراث من مجمع اللغة العربية بالقاهرة، عام 1981م. ومختارات البارودي (الجزء الأول والمشاركة في تحقيق الجزء الثاني)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994م، وشعر ابن القمّ (غير مطبوع): دراسة لشاعر يميني قديم، كانوا يعدُّونه "متنبي اليمن"، مع تحقيق جميع ما أمكن العثور عليه من شعره المخطوط، والذي تحتوي عليه المصادر الأدبية المختلفة.

كتب عن شعره الدكتور منصور الحازمي في مقدمة ديوان (عبير الرياض) فقال: "نحن قد تعودنا، وتعود الناس على تطبيق المقولة القديمة بأن شعر العلماء غث بارد لا خير فيه، وكأنما الشعر أو الفن على نحو عام، لا يمكن أن ينمو في نفوس مشغولة دومًا بقضايا العلم ومناهجه العقلية الجافة، ومن هنا فقد ضاع الكثير من شعر علمائنا الأوائل، كما غلبت الأكاديمية على بعض الموهوبين من أساتذة الجامعات في عصرنا الحاضر.. ولا شكَّ أن في شعر الصديق السيد إبراهيم نفحات جميلة من الفن والصدق والإنسانية. ويكفي أنه نعت ديوانه الحالي بعبير الرياض، وفاءً لهذه المدينة وأهلها، وتذكيرًا لصحبة بعض الأحبة الذين التقى بهم في ربوع الجامعة. على أن هذا الوفاء لا يقتصر في الحقيقة على الحاضر المعيش، بل يمتد كذلك إلى أعماق الماضي البعيد، كما نرى في قصيدتيه: شذا الياسمين،

والأسير والغازي، بل كما نرى في معجمه الغارق في التراث والصور الصحراوية القديمة".

وقال الدكتور عز الدين إسماعيل في تقديمه لديوان (صلوات العشاق) مُلَخَّصًا تجربته الشعرية والإنسانية في ملمح ذكي موجز؛ معلقًا على إهدائه للديوان: "ومن هنا لا بد أن الشاعر ليس ذلك الصنف من الناس الذي يأبى إلا أن يواجه العمل الشرير بعمل من جنسه؛ لأن ذلك يعني - في بساطة - مضاعفة الشر، ولكنه يمثل صنفًا آخر يؤثر مواجهة الإساءة بالإحسان، وإشاعة النور من أجل تبديد الظلام. ولذلك لم يكن غريبًا منه أن يهدي شعره إلى خفافيش الليل الذين يصنعون الشر في الظلام، ويكرسون بذلك القبح في الحياة، لعله يستطيع بهذا الشعر أن يمهد طريقًا للنور إلى قلوبهم المعتمدة... وفي إيجاز أقول: ربما أراد الشاعر بديوانه هذا أن يكون أداة تطهير لنفوس أولئك الذين آثروهم به فأهداه إليهم، لأنهم - من منظوره - أمس حاجة إليه من غيرهم، إنهم الوجه الرديء للحياة الذي ينبغي أن يستبشعه أصحابه قبل غيرهم، حتى تبرأ الحياة من جهامتها، من الظلام الكئيب المخيم عليها، وتعمها الطهارة والبشر والصفاء. ترى هل كان من باب المصادفة المحض أن اختار الشاعر لنفسه لقب "أبو هالة"؟!

(فصلُ الخطاب)

١١ رباعية الشوق:

حاصرتني الكلابُ في آخرِ الليلِ

وقد كنتُ سائرًا في طريقي

فسالتُ الشرطي هل تحتفي بي

هذه الكائناتُ قبلَ الشروقِ؟

قال: من أنت؟ قلتُ: سامُ بن نوح

نَشِطَ الشوقُ والهوى في عروقي

فأطالَ التحديقَ فيَّ وما عَتَمَ

أن عادَ للسُّباتِ العميقِ.

@السيد إبراهيم محمد- ديوان (صلوات العشاق)، صنعاء، يناير

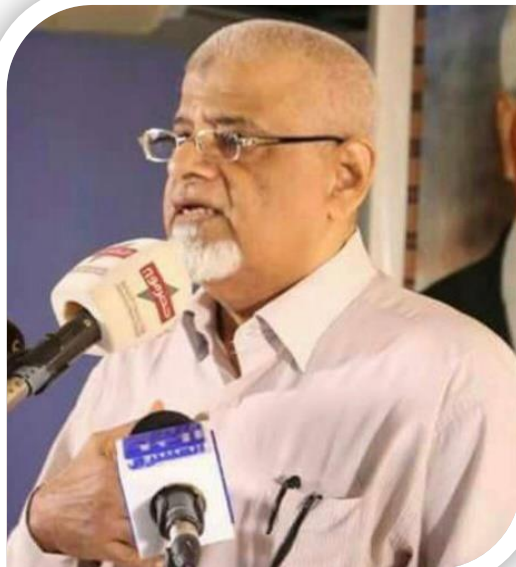
1989م.

تَحِيَّة

(صَلَوَاتُ الْعُشَّاقِ تُهْدِيكَ عِشْقًا

هي أغلى ما في الوجودِ وأرقى

راحلاً في الجمال يزداً قُرباً
كلّما زاد في التأمل صدقا
يبعث الودّ في القصيدة وعدّاً
فيعود الوداد في الحبّ أنقى
يا ندى النور في الرياض عبيراً
ولصنعاء في المدائن صوتٌ
يسكنُ الروحَ في الزمانِ ويبقى
سِرُّها السّحرُ، نَقَشُها ليس يبلى
وهواها يصيرُ في القلبِ رقّاً).



(13) الأستاذ الدكتور عبد الله حسين البّار

(في حديثه بَوْحٌ مِنَ الشَّعْرِ، وَفِي كِتَابَتِهِ رُوحٌ مِنَ الْعِلْمِ)

كنت أتمنى أن أدرس ضمن طلابه في مقرر (نصوص من الأدب الجاهلي) لما سمعتُ عنه من تميّز في الطرح، وإلمام في العرض، وطريقة جميلة عميقة في الشرح، يجمعُ بين أسلوب المحدثين في مناهجهم وتدقيقهم، وتمكّن التقليديين في موسوعيتهم، واستنادهم إلى التراث العربي قراءةً وغوصًا وحفظًا، حيثُ يدرّسُ الأدب الجاهلي بمنهج بنيوي تكاملي، وكانت رسالته في الماجستير عن "المعلّقات العشر في ضوء منهج (التأويل التكاملي) للنصّ الشعري" وقد دافع عنها في العام 1995م. وفي ذلك العام كنتُ في مرحلة المقاصّة في كلية الآداب جامعة صنعاء، وكنتُ قد درستُ ذلك المقرر من قبلُ في مساقتي الدراسية، ولكن تلك الأمنية لم تتحقّق في قاعة الدرس، وإن تحققت بشكل آخر في ميدان البحث؛ حيثُ لم أحرّم من اللقاء به في مناقشة بحثٍ لي بعنوان (الأسطورة في شعر عبد العزيز المقالح) وهو من البحوث التكميلية في دراستي في تلك المرحلة من العام الجامعي (94-1995م).

وأذكر فيما أذكر من ذلك اللقاء البسيط العميق في ساحة كلية الآداب وبين أشجارها؛ حيثُ كنتُ على موعد مع الأستاذ عبد الله حسين البار - الذي كان قد انتهى من رسالة الماجستير حينها - وكان أستاذ المقرر في الأدب الحديث، قد أحال إليهِ البحث لقيّمه، ويناقشني فيه. وحينَ لقيتهُ وجدتُ فيه علمًا غزيرًا ومعرفةً تتجاوزُ التخصص والانغلاق عليه، فعلى الرغم من أنّ البحث في الأدب الحديث، وفي

الأسطورة تحديداً بوصفها مكوّناً مُهمّاً في مدّ الشعراء الكبار من جيل المقالح بالأفق الرمزي والأبعاد الدلالية العميقة في شعرهم الحديث، وأستاذنا البار متخصص في الأدب القديم والجاهلي منه على وجه الخصوص وهو الذي سيدرس بعد ذلك "شعر امرئ القيس، دراسة أسلوبية" في عام 1998م.

أقول: على الرغم من كلّ ذلك فقد وجدته مجرّاً زاخراً من المعلومات والمعرفة بالشعر وفنونه، ودلالاته، وبالأساطير ورموزها. وأذكر فيما أذكر من ذلك النقاش - على بساطة طالبٍ مثلي في مرحلة الطلب والتلقي - أنني كتبتُ عن واحدةٍ من الرموز الأسطورية أنني لم أجِد لها تعريفاً في الكتب التي عُدْتُ إليها، فقال لي: أستاذي البار: لم تجدّها في الكتب التي وقفتَ عليها! لكنها موجودة في غيرها، ومن ثمّ لماذا لم نَسأل، فأين نحن، وما دورنا؟! وهنا أدركتُ مقدار علم الرجل وتواضعه مع طلابه ومع أصدقائه من مريدي المعرفة، وناشدي الفهم والعلم، ولم يكن يبتعد كثيراً عنّا في العُمُر سوى بعقد من الزمان ونيف من السنوات - فهو من مواليد (1/3 / 1959م) ولكنه يَنوِّفُ عنّا، ويزيد في العلم بعقودٍ كثيرة.

فهو قارئٌ جيّدٌ، وباحثٌ دؤوبٌ، ومتحدّثٌ يرنّل بصوته الهادئ العذب الكلمات ترتيلاً، وبحرف القاف بمخارجه الحضرية الخاصّة في النطق والمميزة في النبر، كم كنتُ أسعد ببلقائه في طرقات الكلية أو في القسم، وكم كنتُ أعدّه أنموذجاً يُحتذى وقدوةً تُقتدى، يفخر المتابع له

بنجاحاته المتواصلة ومكانته التي كان يتمتّع بها كأنّه دكتور لا يقلُّ عن أساتذة القسم مهابةً وعلمًا ومكانةً وشأنًا قبل أخذ الدكتوراه، لأنه أخذ عن أعلامٍ كبارٍ من أمثال: الدكتور كامل سعفران -في دراسته الجامعية-، وأستاذنا الدكتور فهد عكام، والدكتور محمد عبد المطلب -في دراسته العليا-، وكان يفخرُ بهم جميعًا وبغيرهم من أَسَاتِيذِهِ العلماء، ولسان حاله "ولئك آبائي فجئني بمثلهم...".

كان رُده حين أسأله عن أحواله -مصحوبًا بابتسامته النقية- قولَ جدّه امرئ القيس: "نحاولُ ملكًا أو نموتُ فَنَعْذِرَا" وكان بالفعل حينها يعيش مع امرئ القيس، ويدرس حياته وشعره، ويعيش مع أدب الجاهلية بكلِّ تعمُّقٍ وفهم، وبصحبة المناهج الحديثة التي تروم النصّ وتنفّحْصه، وتخوض في عمق البنية بمستوياتها وتعالجها فهمًا ودرسًا لينتج عنهما معرفةً وتأملاً عميقين.

جدُّه البعيدُ امرؤ القيس الكندي كان يناديه بمعلقته ودشعره، ووفاءً منه دَرَسَهُ ليربط الأَمَسَ البعيد باليوم الحاضر، ويعيد سيرته الأولى في بَكَارَةِ الشَّعرِ ودهشته وغوايته ولذّته، وفي بكوره وعبقريته في أرض دَمُون، المعشَرُ اليمانون، وفي أحفادهم القادمين من هناك من (حضر موت)، حضرموت التاريخ والحياة والجمال والعدوبة، إلى (صنعاء) أرض سام بن نوح في إشراقة التاريخ، وبروح اللطف، وفي نقاء المحبة، هذا القادم من شرق اليمن -من (المكلا) حضرموت (الخيصة) التي هي مسقط رأسه، وبها

تلَقَّى تكوينه الدراسي الأوَّلِيَّ حتى الثانوية- إلى شمالها إلى (آزال) التي سيكمل فيها دراسته العليا، مرورًا بـ(عدن) التي درس فيها مرحلته الجامعية، ليجمع في تكوينه العلمي والإنساني بين الشطرين ومن خلال ثلاث مدن حضارية عريقة وجميلة، المكلا، وعدن وصنعاء، إنها رموزُ اليمنِ وأعذب حواضرها قديمًا وحديثًا، لكل مدينة منها نكهتها الخاصة، وشخصيتها المستقلة العذبة، ومعارفها المتنوعة التي صَبَّت في هذا (السندباد العلمي) رُوحَهَا، وأمدَّتْه بِرُوحِهَا فتشكَّل من كلِّ زهرها وزهوها، وتواضعها وشموخها، وعطرها وإنسانها، فتلقَّى علمه من مدارسها المختلفة، وكان خلاصةً لمدينتيها وتاريخها وإنسانها الجميل الأصيل، إنه -في أبسط عبارة- أنموذج لليمني المحلَّق في ربوع بلاده الواحدة، ومثال لابن اليمن البار الذي يجمع المجد بأطرافه، ويتحرَّك في عوالم اليمن الممتد بكل جمالٍ ومحبةٍ وبساطةٍ، وهدوء.

لقد استقرَّ في صنعاء خلال عقدين ونيف من الزمان ليتصدَّ في أعلى قلاعها الأكاديمية (جامعة صنعاء) معيِّدًا، فأستاذًا مساعدًا، فأستاذًا مشاركًا، فأستاذًا، وعلى الصعيد العلمي يكون نائبًا لرئيس المجمع العلمي اللغوي اليمني بموجب القرار الجمهوري رقم (157) لسنة 2013م، وعلى المدار الأدبي يصبح رئيسًا لاتحاد الكتاب والأدباء اليمنيين، أعطى صنعاء محبة وعلمًا فأعطته مكانةً وقدَّرًا، وما تزال.

سيرة الأستاذ الدكتور البار علامةً مضيئةً يذكر برحلة العلماء الكبار في وطنهم، ويوحى بسيرة الأعلام الباذخة الراسخة، ويمنح استحقاقاً علمياً يفرض نفسه جمالاً وجلالاً ومكانةً، ويمتُح منها بعلم عليم أو باقتدار حكيم.

يعلّمنا أستاذنا البار بمسيرته العلمية الحية الراقية هذه كيف يصير الفرد مجموعاً، وكيف يكون الواحد أمةً. جاء إلى صنعاء طالب علم ورجع منها علماً له طلابه، وعالماً له مريدوه وكتّابه، وإنه بذلك أنموذج فخر، وأستاذ علم يملأ السمع والبصر، وقد حاول ملكاً - كما كان يردد - وعِلماً فاتاه الله من العلم ما هو أهله، ولم يمت ليعذر، بل عاش ليذكر، ويُشكر، ويُقدّر.

بعد رحلته العلمية، وحياته التدريسية في صنعاء منذ العام 1990 مع بداية الوحدة المباركة وحتى انتدابه للتدريس في كلية الآداب جامعة حضرموت أستاذاً للأدب والنقد في العام 2011م، وظلّ على تلك الصّفة حتّى تمّ إقرار نقله تماماً إلى الكلية نفسها في جامعة حضرموت في ربيع عام 2014م وبشكل نهائي، أراد البار أن يحطّ الرحال في المبدأ والمآل، في حضرموت في (سعاد) التي نادته أجوائها، ورياضها وحورياتها وجناتها، وهي فاتنته التي نشأ بها وعاش، وله بها أهلٌ وخلانٌ وجيرانٌ ومحبونٌ، فعاد ليعطيها مما أعطاه الله علماً ومعرفةً وتدريباً وتأليفاً وحياءً.

التقيتُ به في ثلاثِ محطاتٍ مهمّةٍ في حياتي، وتعلّمتُ منه ثلاثَ قيَمٍ لا أنساها.

المحطة الأولى: حين كنتُ طالبًا، فعرفتُ فيه العِلْمَ والقُدوةَ، ورأيتُ منه المعرفةَ والطُمُوحَ، ولمستُ فيه مكارمَ الأخلاقِ، وأما القيمةُ فكانت قيمة (التّواضع) ومَن تواضَعَ لله رفعه، وما ذاك إلا لأنّه مليءٌ وإذا امتلأتِ السنبلةُ انحنت.

والمحطة الثانية: حين كنتُ معه عضوًا في لجنة تحكيم جائزة رئيس الجمهورية للشباب في مجال تحكيم القصة القصيرة، منذ العام 2011 - 2014م، وفيها عرفتُه قارئًا حصيفًا، ومتابعًا للمشهد الأدبي اليميني بشكل جيّد، ومشجّعًا للمواهب الشابة المتميزة التي يُرجى منها الخير والمستقبل، فكان بجدسه الذكي، وبذائقته الأدبية، وبخبرته النقدية وحرصه الشديد على فحص الأعمال، ثم تدبّر ما وراء النصّ -من لغةٍ مختلفةٍ في إبداع صاحبها- يدرك ويبصر من يستحقُّ الفوز والنجاح، ومن قد يستحقُّ الدفعَ به تشجيعًا لأن أدواته قد تقصر الآن، ولكنها قد تتميز بالنضج وتكتمل مستقبلًا، وبالفعل فإنّ الأسماء التي رُشّحت وفازت قد أصبحت فيما بعد من الأسماء اللامعة في المشهد القصصي اليميني، وهي من تتربّع على المشهد اليوم من أمثال: حامد الفقيه، وأسماء المصري (2011)، مسعد ناصر السالمي (2012)، محمد عبد الرحمن السقاف ونبات أحمد عبده السماوي (2013)، وسلمى الخيواني وحفصة مجليّ (2014)، بل إنّ بعض

من أخذ منهم الجائزة مناصفةً قد تفرّد بجائزة مرموقةً عربياً، وما كان ذلك إلا دليل معرفة، وتنبؤ لا يخطئ حدسه، ولا تضع بوصلته. ولم أذكر أننا اختلفنا في تحديد الفائزين، وكنا لا نخرج عن ثلاثة مرشحين تتفق قراءتنا حولهم -كلٌّ على حدة- وتلتقي أراؤنا بترشيحهم، وكان ثالثنا المثقف الأكاديمي الدكتور عبد الكريم قاسم، وبعده الشاعرة الدكتورة ابتسام المتوكل، وإذا غمّ علينا بعض الأمر -وذلك قليل- كنا نرّده، ونحيل فيه القول الفصل إلى أستاذنا البار، فيقطع فيه، ولا يستأثر به دوننا، وتلك صفةٌ وقيمةٌ تدلُّ على (الشورى) قيمةٌ ومبدأً سار عليه أخي وصديقي الدكتور البار.

أما المحطة الثالثة: فهي أني خَلَفْتُهُ في برنامج (صدى القوافي) البرنامج الذي كانت تبثّه القناة الفضائية اليمنية الرسمية في شهر رمضان من كلّ عام، وهو برنامج ثقافي مسابقي يهتم بالشعر الشعبي تحديداً، وكان قد رأس فيه لجنة التحكيم لمواسم ثلاثة قبلي، وحين رشّحتني للتحكيم -وقد عرفت ذلك منه- قبل تواصل القناة معي عبر مذييعها الشاعر جميل عزّ الدين، أوصاني بأشياء مهمة ومفيدة لمستأثر وصاياه أثناء العمل، وكانت من أستاذٍ خبير، ومثقفٍ قدير، وعارف بطبائع الناس ومشاربهم ومدارسهم بصير، فكانت خير دليل لي، ومن هنا أدركتُ منه قيمة لا يمكن أن تصدر إلا من ناقدٍ متمكّن، وعارفٍ مُلمّ، ولعل أصدق ما يمكن أن تمثله تلك القيمة هي قيمة (النصيحة الخالصة).

والتَّصِيحَةُ من عُرَى الدِّين، فالمستشار أمينٌ؛ كما يقال: وكان أمينًا عليّ، وعلى البرنامج، وعلى الشَّباب الطموح والمواهب المتطلعة الواعدة، وتلك كانت غايته الإعلامية ورسالته الأدبية التي نَدَبَنِي إلى استكمال المشروع فيها، وأرجو أن أكون قد وفقتُ في ذلك، والحكم للجمهور وللشعراء.

وعلى الرغم من تلك المحطات ومن هذا التواصل الذي استمرَّ طويلًا ولسنوات عدَّة إلا أننا لم نلتقِ كثيرًا، ولم نجلسَ طويلًا، وكم كنتُ أرجو ذلك لأستزيد من علمه الجزيل، ومن خلقه الجَمِّ، ومن صحبته العذبة، وكان معظم التواصل لإنجاز الأعمال بيننا يتمُّ عبر التلفون أو البريد الإلكتروني، وبخاصَّة بعد سفره إلى حضرموت وتنقُّله، ولكن في العام 2013م التقينا في منزل الصديق الدكتور محمد مرشد الكميم الذي كان قد رجَعَ لَوَّه من المغرب بعد مناقشة أطروحته العلمية المتميزة "خطاب المختارات الشعرية الأندلسية؛ مقارنة للمتعاليات النصِّية في ثلاثة نماذج"، وكانت رسالة تميَّزت بمستواها (المشرَّف جدًا)، وبأسماء الأعلام العرب والأكاديميين الذين ناقشوها أمثال: سعيد بنكراد، ومحمد العمري، وعبد الفتاح الحجمري، وأحمد الطراسي، فضلًا عن مشرفه أحمد أبو حسن. والكميم باحثٌ جادٌ وأستاذٌ رصينٌ، وكانت فرحتنا بنجاحه، وبلقاء أستاذنا الدكتور البار فرحتين، في يومٍ صنعائيٍّ جميلٍ، قضينا فترةً مقليةً نتنقَّل بين أزهار المعرفة، والحديث العلمي الأدبي الراقي، وكم أدهشنا الدكتور البار بمتابعته لفنِّ الرواية ونقادها ونقدها، فهو واسع الاطلاع يرمي في كل فنٍّ

بسهم فلا يخطئ، ولم يحل تخصصه الدقيق في الأدب القديم عن المتابعة والمعرفة الحسيفة للأدب الحديث بكلّ مناهجه ومدارسه وأنواعه شرقاً وغرباً، فكانت رواية (اسم الورد) لـ"أمبرتو إيكو" حاضرةً في الحديث بدلالاتها وبربطها بفكر "إيكو" وفلسفته، كما لم أقرأ لأحدٍ مثل ذلك الوصف، ولا مثل عمق القراءة والتحليل والربط.

إنَّ البارَّ أستاذٌ بارٌّ بالعلم، بارعٌ في الفهم، محلّقٌ في الاطلاع، إنه قُطْرُبُ في المتابعة للجديد لا تفوته التّوارد، ولا تتعبه القراءة والدفاتر، له الكثير من الجهود والأبحاث والكتب التي صارت علامات للباحثين، ومراجع مهمة للدارسين، لا تخلو رسالة علمية متخصصة من الإحالة إلى كتبه، مفرقةً أو مجموعةً.

وسنعرض فيما يأتي إلى بعضها على وجه الإجمال، وإن كان كلّ كتابٍ منها عالمٌ من التفرّد منهجاً، ولغةً، وموضوعاً، ولكن يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

وتلك الكتب والأبحاث في مجموعها تشكّل المشروع المتنوع للرجل، فهو يهتمُّ بتحليل الخطاب بنوعيه الشعري والسردى، كما يهتمُّ بالتراث، وبفنونهِ الشعبيّة والإبداعية التي أوقفَ لها دراسات في الإنسان (المبدع)، وفي النص (الإبداع)، وفي البيئة (المكان) بوصف المكان عاملاً مؤثراً في فهم النص وسبر أغواره، على نحوٍ متوازن، ولم يزدّه التخصّصُ

والبنويّة إلا انفتاحًا على المحيط والمرجع بالإضافة إلى البنية النّصية، والبناء اللغوي.

هكذا تميّزت كُتبه وأبحاثه بالتنوّع والإثراء، نعرض عناوينها، وأماكن إصدارها، وتسلسل تاريخها على النحو الآتي:

(1) تجلّيات البناء الشعريّ في القصيدة الجاهليّة وأبعاده؛ شعر امرئ القيس نموذجًا. (حضر موت). 2002.

(2) شعر امرئ القيس، دراسة أسلوبية، (صنعاء). 2003.

(3) في معنى النصّ وتأويل شعريّته؛ قراءات أشتات في شعر اليمن الحديث. منشورات اتحاد الأدباء والكتّاب اليمنيين. 2004.

(4) في أسلوبية النصّ؛ قراءة في قصيدة (هوامش يمانية على تغريبة ابن زريق البغدادي للشاعر عبد العزيز المقالح)، منشورات اتحاد الأدباء والكتّاب اليمنيين. 2004.

(5) ثنائية الأنا والآخر في نونية المثقب العبدى، صنعاء، 2004.

(6) حسين بن محمد البار الأعمال الشعرية الكاملة، صنعاء، 2004.

(7) الينبوع المتفجّر الشاعر حسين بن محمد البار؛ دراسات ومختارات، 2004.

(8) الصورة الفنيّة في القصيدة الجاهليّة؛ دالية النابغة أنموذجًا، (حضر موت)، 2006.

- (9) نظرات في شعر الغناء الحضرمي، (صنعاء)، 2006.
- (10) صورٌ شعريّةٌ في مرآة النقد، (صنعاء)، 2009.
- (11) دفاتر في تحليل النصّ، قراءات في نصوص من الشعر الجاهلي، (صنعاء)، 2010.
- (12) شعر المحضار النشيد والفنّ، (حضر موت)، 2011.
- (13) من قضايا الشعر الجاهلي. (حضر موت)، 2012.
- (14) بعيداً عن الشعر قريباً من النثر، (حضر موت)، 2012.
- (15) حسين محمّد البار، شذوّر من سيرة حياته، 2015.
- (16) فوح البنفسج والعرار، قراءات في قديم الشعر وحديثه، (الشارقة)، 2016.

وقد كان أستاذنا البارّ بارّاً بوالده الذي لم يعرفه - حيثُ توفي وعمره في السّادسة تقريباً-، ولكنّه نهضَ لجمع شعره ودراسته، وبيان حياته، حيث كان والده الأديب حسين محمد البار-رحمه الله- من مشاعل التنوير والتثقيف، ومن رجال حضرموت النبلاء والمؤثرين في الصحافة، والتعليم، والمحاماة، والحياة العامّة، فأخرج سيرته، وشعره، وتعهدهما بالدرس، والتثقيب.

وهو ببرّه لوالده يمتدُّ إلى برٍّ أوفى لحضرموت مكاناً وإنساناً وتراثاً - كما لاحظنا في عناوين كتبه- وله مشاريع كتابيّة أخرى منها: محاوراتٌ في الشّعْر والشعراء في حضرموت، وحداثة العاميّة الحضرميّة، وهي قراءة في

ديوان (بحيثة ومبخوت). ووهج القصائد على شواطئ اللغة، وهي الجزء الأول من دراسة مطوّلة في شعر الشّاعر (عوض ناصر الشّقّاع) بعنوان: بوابات إلى مدائن التخيل، وثنائية الائتلاف والاختلاف في البنية الوزنيّة للقصيدة العربيّة – من بنية البحر إلى بنية الموشحة.

كما كتب مقدّماتٍ لعددٍ من الدواوين الشعريّة، والأعمال القصصيّة، والكتب الثقافيّة من أبرزها: تقديم ديواني الشاعر خالد محمّد عبد العزيز (المكلا)، و(يومٌ كان في اليمن). وديوان الشاعر عمر حسين البار (الرحيل عن المهجة)، ومقدّمة كتاب الدكتور عبد الله سعيد الجعدي الموسوم بـ(عابر سبيل). و(الأعمال القصصيّة الكاملة) للقاصّ صالح سعيد باعامر، ومنها جهده الواضح في موسوعة الغناء اليمني في القرن العشرين، وغير ذلك.

(فصلُ الخطاب)

"أمّا اليوم فالحابل مختلّطٌ بالنابل حتّى غَدَتِ الثقافةُ ثرثرةً في المجالس لا موقفاً من الحياة، ولا رؤية لها، فكيف يصحُّ وصفُ من نُسيهم (مثقّفين) -وذاك حالهم- بـ(صفوة المجتمع)؟ أضف إلى ذلك أن العديد من هؤلاء المحسوبين على الثقافة لا يفقهون الثقافة إلا على أنها انشغالٌ بالحدّث السّياسي ولا غير. وهذا قصور في تصوّر مفهوم (الثقافة) وتعيين

أبعادها. لقد كان (النَّاسُ) إلى عهدٍ قريبةٍ يغلبون (الاجتماعي) على (السِّيَاسي)، فانشغلوا بإصلاح التعليم، والسُّمو بالقيم والأخلاق، ومعالجة مشكلات المجتمع على مختلف الصُّور، لكنَّهم حالوا بعد ذلك عن هذا فزاد اهتمامهم (بالسِّيَاسي) فأضاعوا (الاجتماعي) وفقدوا السبيل إلى (الثقافي). وغدوا كما قال "أرسطو": حيواناتٍ سياسيَّةٍ لكن دون إدراكٍ عميقٍ بالتاريخ، ولا وعيٍّ شاملٍ بالسِّيَاسة كما يقتضي المفهوم الفلسفي لمعنى السِّيَاسة". @ من حوار بعنوان: رحلة في عقل أديبٍ وناقدٍ حضرمي (د. عبد الله حسين البار).

نَحِيَّة

(بَانَتْ "سَعَادُ" فقلبي اليومَ مَوْجُوعُ ... وَنَالْنَا دُونَهَا حُزْنَ وَتَضْيِيعُ
بَانَتْ وَبِنَا وَمَا عَادَتْ كَرَامَتُنَا ... وَكَيْفَ يَرْجِعُ مِنَ الْوَهْمِ مَخْدُوعُ؟!
بَانَ الْوِدَادُ، وَصَنَعَاءُ الَّتِي عَشِقْتُ ... تَبْكِي الظُّلُولَ وَهَذَا التَّوْحُ مَسْمُوعُ
"شَيْءٌ بَعِينِيكَ يَا (صَنَعَاءُ) يُشْعَلُنَا" ... وَشَاعَ مِنْ أَمْرِهِ ظُلْمٌ وَتَجْوِيعُ
مَنْ يَجْبُرُ الْكَسْرَ؟ مَنْ يُعْطِي بِلَا ثَمَنِ؟ ... مَنْ يُرْجِعُ الدَّارَ إِنْ الْأَمْرَ مَتْبُوعُ
لَا تَأْمِنِ الدَّهْرَ إِنْ الدَّهْرَ ذُو حِيلٍ ... وَمَنْ يَهْنُ فَطَرِيقُ الذَّلِّ مَصْنُوعُ!).



(14) الأستاذ الدكتور صلاح فضل

(عينُ النُّقْدِ الذي جَعَلَ لُغَةَ النَّاقدِ مُوازيَةً لِلْغَةِ المَبْدَعِ)

يملك حضوراً مُدهشاً وروحاً جميلةً، لا تفارقُ الابتسامةُ محياه حين يدخل على طلابه في قاعةِ الدرس يشعُّ جوٌّ من الودِّ والجمالِ والمهابة في الوقت ذاته، بأسلوبه الهادئ، ورصانته الوقورة، وحضور بديهته، وخفة الدَّم المصرية التي تصنع المفارقة الذكية المضحكة، والجو الذي يكسر جمود اللحظة أو رتابة المحاضرة وجفافها، تسبقه سمعته الكبيرة، واسمه المحلَّق في فضاء الدراسات النقدية والأدبية، بل قُلْ: يسبقه السبقُ الذي حقَّقه في تأسيس الدراسات البنيوية وريادتها في الوطن العربي؛ حيث لا يمكن لدارس الأدب الحديث تجاوز كتابه (النظرية البنائية في النقد الأدبي)، ولا كتاب (بلاغة النصِّ وعلم الخطاب) وهما من الكتب التأسيسية المهمة جدًّا في ميدانهما وفي التعريف والتنظير في النقد الحديث، هذا فضلاً عن الدراسات التحليلية ومتابعة المشهد الإبداعي العربي والمصري بدراسات تطبيقية لفك شفرات النصِّ من خلال المنهج السيميائي وغيره من المناهج النصِّيَّة المعاصرة.

حديثنا اليوم عن الأستاذ الدكتور (محمد صلاح الدين فضل) أحد النقاد العرب الكبار والأساتذة الجامعيين الذين يشار إليهم بالبنان، إنَّه أستاذٌ جامعيٌّ حصيف، وناقدٌ عربيٌّ كبيرٌ يفخر طلابه بالتلقي على يديه، وأمَّا من حظي بالإشراف عليه من قبل هذا الأستاذ فكأنَّما سجَّل علامةً علميَّةً شهيرة، قد تفتح له الجامعات العربية فيما بعد أبوابها وبخاصَّةً من سيدرس لديه في معهد الدراسات والبحوث العربية الذي يقبل الطلاب

العرب من مختلف البلدان العربية والأفريقية أيضاً، والسعي إلى تلك الغاية هي مقصد الطلاب الذين يَمُمّوا شطر مصر الكنانة لطلب العلم والحصول على الشهادات العليا.

أستاذنا الدكتور صلاح فضل عَلَّمَ لا يُعَرَّفُ واسمُ تسبقه المعرفة ويسبقها، ولكن لا بدَّ من اطلاعك أيها القارئ الكريم على طَرَفٍ من سيرته الفارحة النابضة قبل الحديث عن المواطن والمواقف التي جمعتني به، وعَلِّمَني عددًا من القيم، والمعارف، والدروس، والأخلاق النبيلة.

ولِدَ الأستاذ الدكتور صلاح فضل في قرية تُسمَّى (شباس الشهداء) تقع في وسط الدلتا من جمهورية مصر العربية، وذلك في 21 مارس عام 1938م. اجتاز المراحل التعليمية الأولى الابتدائية، والثانوية بالمعاهد الأزهرية. وحصل على ليسانس كلية دار العلوم بجامعة القاهرة عام 1962م. وعمل معيدًا بالكلية ذاتها منذ تخرجه حتى عام 1965م. أُوْفِدَ في بعثة للدراسات العليا إلى (إسبانيا) وحصل على دكتوراه الدولة في الآداب من جامعة مدريد المركزية عام 1972م. عمل في أثناء بعثته مُدرِّسًا للأدب العربي والترجمة بكلية الفلسفة والآداب بجامعة مدريد منذ عام 1968م حتى عام 1972م. وتعاقد خلال الفترة نفسها مع المجلس الأعلى للبحث العلمي في إسبانيا للمساهمة في إحياء تراث (ابن رشد) الفلسفي ونشره. وعند عودته من الابتعاث عمل أستاذًا للأدب والنقد بكلّيتي اللغة العربية والبنات بجامعة الأزهر. وعمل أستاذًا زائرًا بكلية المكسيك

للدراستات العليا منذ عام 1974م حتى عام 1977م. أنشأ خلال وجوده بالمكسيك قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة المكسيك المستقلة عام 1975م. ثم انتقل للعمل أستاذًا للنقد الأدبي والأدب المقارن بكلية الآداب بجامعة عين شمس، منذ عام 1979م حتى الآن. انتدب مستشارًا ثقافيًا لمصر، ومديرًا للمعهد المصري للدراسات الإسلامية بمديرية إسبانيا منذ عام 1980م حتى عام 1985م. رأس في هذه الأثناء تحرير مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمديرية. اختير أستاذًا شرفيًا للدراسات العليا بجامعة مدريد المستقلة. انتدب بعد عودته إلى مصر عميدًا للمعهد العالي للنقد الفني بأكاديمية الفنون بمصر منذ عام 1985م حتى عام 1988م. وعمل أستاذًا زائرًا بجامعة صنعاء باليمن، والبحرين حتى عام 1994م. كما عمل أستاذًا للنقد الأدبي والأدب المقارن بكلية الآداب بجامعة عين شمس، ورئيسًا لقسم اللغة العربية، وهو الآن أستاذ متفرغ فيها.

وأما عن نشاطه الأكاديمي والثقافي فحدث ولا حرج، وسنقف عند أبرز تلك المحطات والنشاطات، حيث شارك في اللجنة التنفيذية العليا لمؤتمر المستشرقين الذي عُقد في المكسيك عام 1975م. ثم شارك في تأسيس مجلة "فصول" للنقد الأدبي، وعمل نائبًا لرئيس تحريرها الذي كان أستاذنا الدكتور عز الدين إسماعيل على فترات متفاوتة منذ 1980م حتى 1990م. ثم اختير عضوًا شرفيًا بالجمعية الأكاديمية التاريخية الإسبانية. وشارك في تأسيس الجمعية المصرية للنقد الأدبي وعمل رئيسًا لها منذ

1989م. وهو عضو في المجلس الأعلى للثقافة والإعلام بالمجالس القومية المتخصصة، وعضو شعبي الثقافة، والأدب. وأكاديمياً هو عضو اللجنة العلمية العليا لترقية الأساتذة في الجامعات المصرية. ورئيس اللجنة العلمية لموسوعة أعلام علماء وأدباء العرب والمسلمين بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. ومستشار مكتبة الإسكندرية منذ عام 2003م. وقد انتُخب عضواً بالمجمع العلمي المصري عام 2005م. كما انتُخب عضواً بمجمع اللغة العربية عام 2003م، في المكان الذي خلا بوفاة الدكتور بدوي طبانة رحمه الله. وقد أشرف على مجموعة من السلاسل في الهيئة المصرية العامة للكتاب، مثل: سلسلة دراسات أدبية، ونقاد الأدب. كما أسهم في إقامة عددٍ من المؤتمرات العلمية والنقدية، وأدارها في مصر، وإسبانيا، والبحرين، وشارك في معظم الملتقيات العلمية العربية، وشارك في برنامج (أمير الشعراء) منذ تأسيسه عام 2007م. كما استحق جائزتين قيمتين هما: جائزة البابطين للإبداع في نقد الشعر، عام 1997م. وجائزة الدولة التقديرية في الآداب، عام 2000م.

دَرَسْتُ على يديه مُقَرَّر (مناهج النقد الأدبي) في الفصل التَّخْصُّصِي الثاني من السَّنة الأولى 1999/2000م في معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة أثناء دراستي لدبلوم الدراسات العربية العليا في قسم البحوث والدراسات الأدبية واللغوية، قبل انتقالني إلى جامعة القاهرة لمواصلة الماجستير، وقد تخرَّجت فيه -بحمد الله وتوفيقه- بتقدير ممتاز،

وبمعدل (92 %) كأول طالب يمني ينال هذا التقدير، وكنت الأول على دُفعتي في ذلك العام 2001م.

وبالمناسبة فقد تخرج في هذا القسم العريق (511) طالبًا وطالبة خلال خمسين عامًا - بحسب إحصاءات الكتاب الصادر بمناسبة اليوبيل الذهبي للمعهد 1952 - 2002م، منهم (24) طالبًا حصلوا على تقدير (ممتاز) من أقطار عربية مختلفة، ومنهم من صار من أساتذة الجامعات، ومن رجال الثقافة والسياسة والإعلام، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: سمير قطامي، أ.د. يوسف بكَار، أ.د. شكري عزيز الماضي، أ.د. عبد الرضا علي، د. عثمان بدري، د. صلاح البردويل، د. جعفر صادق حمودي، د. معاذ جميل الحيارى وغيرهم.

لا أنسى مقدار الفائدة العلمية التي تلقيتها على يد هذا الأستاذ الكبير، حيث درّس لنا كتابه المعروف (مناهج النقد المعاصر) وتلقيناه منه تلقياً مباشراً، فتعلّمنا المناهج السياقية التي اهتمت بما هو خارج النص كالمناهج التاريخية والاجتماعية والنفسية وغيرها، ثم المناهج النصّية التي أفرزتها البنيوية والدرس اللساني الحديث وما بعدها من مناهج ما بعد البنيوية، وكما أفدنا من معرفة المناهج السيميائية والتفكيكية وغيرها، وكانت لتلك المحاضرات آثارها المهمة في التكوين والتشكيل العلمي والنقدي، كما أن أستاذنا لم يقف على كتاب واحد في تدريسنا لذلك المقرر، بل مضى بنا إلى كُتب أخرى في التطبيق على تلك المناهج، وكان من أهمها:

كتابه (أساليب السرد في الرواية العربية)، و(شفرات النص؛ دراسة سيميولوجية في شعرية القصّ والقصيد)، و(تحولات الشعرية العربية)، وعلى قدر ما وجدناه من كثافة وغزارة في التنظير والتطبيق في هذه الكتب التي يفترض بنا استيعابها وهضمها لغرض التعلّم وتحصيل المعدّل والنجاح إلا أنها قد تركت فينا أثرًا محمودًا في منهجها، وأسلوب عرضها، وطبيعة لغتها التي يميّز بها أستاذنا في تحليله وتناوله لزوايا الموضوعات التي تحتاج إلى فكّ في شفراتها، وتأمّل في طبيعتها الإبداعية بما يُسلّم للقارئ من مفاتيح للنصّ تجعله يلج إليه في مناوشات ومقاربات هي إلى إنتاج دلالات جديدة أقرب منها إلى فرض وجهة نظر أحادية أو قراءة نهائية للنص الإبداعي الحقيقي سواء أكان سرّدًا أم شعرًا.

كانت لمحاضراته في المعهد خصوصيتها ولمناقشاته وإشرافه على الرسائل الأكاديمية من ماجستير ودكتوراه أثرها الكبير في تشكيل الطلاب، وتكوينهم البحثي، وكان لمن يظفر منهم بموافقته على الإشراف عليه ميزة يتفرد بها مستواه وموضوعه عن الآخرين، فلم يكن يقبل بأي موضوع إلا إن كانت له وجاهته المهمة ومنهجيته الحديثة المناسبة مع فكر أستاذنا العلمي والمنهجي.

بعد ثلاثة أعوام انتهيتُ من أطروحتي في الماجستير في كلية الآداب جامعة القاهرة مع أستاذي طيّب الذكر د. عبد المنعم تليمة -غفر الله له ورحمه- فأردتُ أن أمزج بين مدرستين نقديتين وعلميتين يمثلان القمّة

في المؤسسة الأكاديمية المصرية وهما: جامعة القاهرة، وجامعة عين شمس، وليس ذلك لشيء إلا للاستفادة أكثر وتنويع المدارس والمشرفين، فتواصلت مع أستاذنا الدكتور صلاح فضل الذي لم أنقطع عنه طيلة الفترة السابقة بحضور نشاطاته في المجلس الأعلى للثقافة أو حين كان رئيساً لدار الكتب والوثائق القومية أو في الجمعية المصرية للنقد الأدبي وغيرها من الفعاليات التي كان أستاذنا يملؤها فكراً ونقداً وحضوراً بهياً.

اتصلتُ به وقابلته في مكتبه في جامعة عين شمس، وقبلها حضرتُ معه محاضرة لطلاب الليسانس الذين ازدحمَتْ بهم القاعة، وكانت محاضرةً جميلة تعلمتُ فيها ولاحظتُ عن كثب تعامل أستاذنا الكبير وصبره على طلابه المتعطشين للمعرفة وأسئلتهم البسيطة التي ردَّ عليها بكلِّ تواضع وعلم وإفادَةٍ، ومن أطرف ما لفت انتباهي تبسيطه للمفاهيم الكبيرة والصعبة لطلاب الدراسات الأوليّة حين سُئل عن الناقد البنيوي؛ وكيف أنه لا يهتم بحياة المؤلف ومرجعية النصّ؟ فردَّ بأنه يهتم، ويقرأ ذلك ليستفيد منه في التحليل، ولكنه يركّز على النصّ من داخله، ويختم قوله بتشبيه ظريف "بأنه كالقطة يأكل وينكر".

وحين انتهت المحاضرة التقيته في مكتبه حيث رحّب بي، واتفقنا على البدء في إعداد خطة البحث المقترح الذي اخترتُ أن يكون عن (السياسات وخطاب القمع في الرواية العربية)، وبدأتُ في الإجراءات والقراءة وإعداد الخطة لأكثر من شهرين، ولأني اخترتُ أستاذي الذي لا

أريد سواه ومن أجله أجَلْتُ فكرة المواصلَة في آداب القاهرة، دون أن يكون ذلك بشكل رسمي أو نهائي في التحويل، وكتبْتُ على صفحة عنوان الخطة اسمه بوصفه مشرفاً على الأطروحة، وهذا ما اعتبره مجلس القسم مخالفة، وكانت المسألة بسيطة لو لم تكن هنالك ما أدركته فيما بعد من حساسية وصراع داخل القسم، ومن جوٍّ لم يكن رائقاً بين أساتذته على الأقل لم يكونوا بنفس تناغم أساتذة قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة القاهرة الذين يمتازون بالروح الودودة والتآلف والمودة فيما بينهم، هذا ما لمستُه عنهم، وهو ظاهرهم، فلا تظهر فيهم صراعات المدارس الفكرية واتجاهاتها بحدّة واضحة. تلك الصراعات والاختلافات التي من أجلها خلقنا الله (وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ) والتي لا يسلم منها العلماء، ولا أصحاب المهنة الواحدة، كما لا يخلو منها أيُّ عصر وزمان، وتلك طبيعة الإنسان، وكانوا قد أرادوا ألاَّ أحدّد مشرفاً بعينه، وأجعل الخطة غُفلاً عن اسمٍ معينٍ وللقسم تحديده، وما دروا - أو أنهم دروا - أني ما قصدتُ من قسمهم إلا (صلاحه) وما يمتُّ إلا (فضله) فلملمتُ أوراقِي، وقفلتُ راجعاً إلى كليتي، والعود أحمد؛ حيثُ أكملت فيها رحلتي العلمية للدكتوراه معترّاً بها، وبأساتذتها، وبأصدقائي فيها، وبمشرفي الإنسان النبيل والناقد الجليل الأستاذ الدكتور عبد المنعم تليمة - تلميذ تلميذة طه حسين د.سهير القلماوي - وتبادلْتُ مع أستاذنا الخلق المتميز الدكتور صلاح فضل الأسف على عدم المواصلَة؛ وكان يا ما كان.

وظلّْتُ كُتُبُ أستاذنا ومؤلفاته معينًا لا ينضبُ، ورافدًا في القراءة لا يغيبُ، وإن حُرِّمْتُ من الإشراف فما حُرِّمْتُ من المنهج ولا من كتبه المفيدة النافعة التي غدت لكلِّ الباحثين والدارسين مراجع مهمة، وعلامات مسجَّلة في تاريخ النقد العربي المعاصر.

وفيما يأتي نعرض لعددٍ من تلك المؤلفات والكتب النقدية المهمة التي شكَّلت مشروع (صلاح فضل) النقدي والأكاديمي والمعرفي، وربطت بين ثقافة الغرب وتراث الشرق وبين وعي الناقد ورسالته، وأفق انفتاحه على الحداثة وما بعدها في النقد العالمي وفي المعارف الإنسانية الحيوية، وأثرت المكتبة العربية في الأدب، وفي النقد الأدبي، وفي الأدب المقارن، وزوَّدت الباحثين برؤى جديدة في الشعر، والمسرح، والرواية، والخطاب الأدبي بشكل عام. ومن تلك المؤلفات نذكر ما يأتي مرتبةً بحسب تاريخ صدورها، ومقسمةً إلى قسمين:

أولاً: المؤلفات، وهي:

- "من الرومانث الإسباني: دراسة ونماذج، 1974م.
- منهج الواقعية في الإبداع الأدبي 1978م.
- نظرية البنائية في النقد الأدبي، 1978م.
- تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتي 1980م.
- علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، 1984م.
- إنتاج الدلالة الأدبية، 1987م.

- ملحمة المغازي الموريسكية، 1988م.
- شفرات النص، بحوث سيميولوجية في شعرية القص والقصيد، 1989م.
- ظواهر المسرح الإسباني، 1992م.
- أساليب السرد في الرواية العربية، 1993م.
- بلاغة الخطاب وعلم النص، 1993م.
- أساليب الشعرية المعاصرة، 1995م.
- أشكال التخيل؛ من فئات الحياة والأدب، 1995م.
- مناهج النقد المعاصر، 1996م.
- قراءة الصورة وصور القراءة، 1996م.
- عين النقد على الرواية المعاصرة، 1997م.
- نبرات الخطاب الشعري، 1998م.
- تكوينات نقدية ضد موت المؤلف، 2000م.
- لذة التجريب الروائي، 2000م.
- شعرية السرد، 2002م.
- تحولات الشعرية العربية، 2002م.
- الإبداع شراكة حضارية، 2003م.
- وردة البحر وحرية الخيال الأنثوي، 2004م.
- حواريات الفكر الأدبي، 2004م.
- جماليات الحرية في الشعر، 2005م.

- لذة التجريب الروائي، 2005م.
 - التمثيل الجمالي للحياة، 2008م.
 - محمود درويش حالة شعرية، 2009م.
 - سرديات القرن الجديد، 2015م.
 - أطياف نقدية، 2016م.
 - أحفاد نجيب محفوظ، 2016م.
 - وثائق الأزهر.. ما ظهر منها وما بطن، 2017م.
 - أنساق التخيّل الروائي، 2018م، وغيرها.
- ثانيًا: الترجمات:

وهي مما ترجمه عن المسرح الإسباني، ومنها:

- (الحياة حلم، لكالديرون دي لباركا، 1978م.
- نجمة أشبيلية، تأليف لوي دي فيجا، 1979م.
- القصة المزدوجة للدكتور بالمي، تأليف بويرو بايخو، 1974م.
- حلم العقل ودون كيشوت، تأليف بويرو بايخو، 1975م.
- وصول الآلهة، تأليف بويرو بايخو، 1977م).

من خلال ما سبق يمكن تقسيم مشروع أستاذنا الدكتور صلاح فضل إلى أربعة أقسام تجلّت في مؤلفاته ومشروعه، وهي: كتب نظريات الأدب، والمناهج النقدية، ودراسات في الشعرية والشعراء - بلغت أكثر من عشرة كُتب شملت جُلَّ شعراء القرن العشرين الكبار تقريبًا-، ومجال

الرواية وأصدر فيها ثلاثية نقدية هي: سرديات القرن الجديد، وأحفاد محفوظ، وأنساق التخيل، تعرض فيها إلى (170) روائياً وقاصّاً مصرياً وعربياً، وفي كتابه الأخير منها قسّم أنساق التخيل إلى سبعة هي: التخيل الذاتي، والجماعي، والتاريخي، والأسطوري، والفانتازيا، والبصري/المشهدى، والعلمي. وأما المجال الرابع من مؤلفاته فقد تفرّق بين كتب نقدية وشعرية وسردية وأدب مقارنة وتراجم.

تعلّمت من أستاذنا ومن مشروعه النقدي طبيعة اللغة التي تجمع بين الأدب بجماله والنقد بصرامته ومنهجيته بما يشكّل مدرسة أميل إليها وأكتب وفقاً لفلسفتها، وهي ألاّ يكون النقدُ مشروطاً قاسياً بلا قلب ولا إحساس، ولا يكون متفلتاً مُدَلّلاً بلا ضابط، ولكنه وسط بينهما يأخذ من الأدب طلاوته وحلاوته، ومن العلم انضباطه وورصاته.

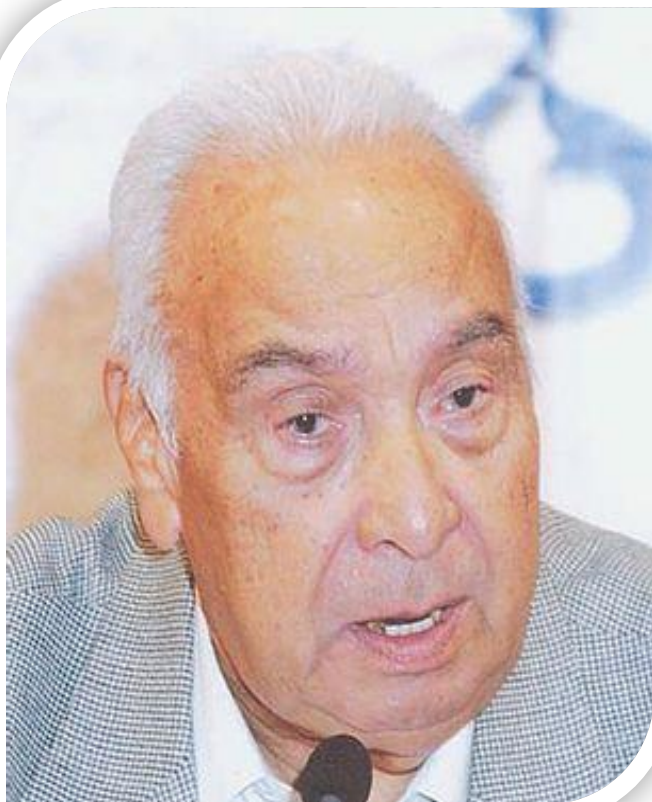
* (فصلُ الخطاب) *

"تغيير لغة الخطاب النقدي وتحويلها إلى منهجية علمية شعرية بقدر من الإبداع التعبيري كان منهجي في ذلك أنّ أصحاب الأعمال الإبداعية من الشعراء والروائيين التي تتجلّى فيها قدراتهم الفائقة على التعبير الخلاب، وكنتُ أرَدُّ بيني وبين نفسي وبين طلابي أحياناً أنّنا لا نفقد مثل هذا الحسّ الأدبي، وأرَدُّ أغنية صباح الطريفة "ما احنا كمان

حلوين أوي" وبالتالي لكي أصحاب هذه الأعمال البديعة، لماذا لا أحوّل لغتي العلمية المنهجية إلى لغة أدبية؟ لماذا لا يكون إبداعاً في موازاة الإبداع؟ لماذا لا يكون تحليلاً رقيقاً حساساً مرهفاً دقيقاً جميلاً خلاّباً مدهشاً مثلما هي عليه لغة الإبداع؟ هذا جعلني دون أن أدري أشكّل تياراً جديداً في لغة النقد دون أن يتخلّى عن صرامة المنهج وعلمية المنظور ودقة التناول ومنطقيته، يتجملّ بأقصى ما يستطيع التجملّ، ويصبح شائقاً ممتعاً للقارئ حتى يمكن أن يكون النقد ليس مجرد طلاس وصخور عقلية، وأفكار نظرية، وإنما يكون سلساً سائغاً حلواً كما هو الأدب في سلاسته وحلاوته".@صلاح فضل؛ من حوار في برنامج رحلة مع الكتب.

تَحِيَّة

(لَهُ فِي جِيلِنَا أَثَرٌ وَفَضْلٌ ... وَفِي آثَارِهِ لِلْعِلْمِ فِعْلٌ
أَثَارَ عَقُولِنَا قَلْقًا وَبَحْثًا ... وَشَغْلُ سَوَالِهِ فِي النَّقْدِ شَغْلٌ
هِيَ الْهَمُّ الْعَلِيَّةُ حِينَ تَمْضِي ... يَكُونُ لَعِينَهَا فِي الشَّمْسِ كُحْلٌ
فَتَمْسُكُهُ لَتَبَصَرَ مِنْهُ دَرْبًا ... هُوَ الْإِبْدَاعُ يُتَعَبُّهَا وَيَحْلُو
عَلَى جَسَرِ النِّجَاحِ تَسِيرُ رَوْحٌ ... إِلَى الْعُلَيَاءِ تَدْفَعُهُ لِيَعْلُو
كَذَلِكَ كُلُّ ذِي فَضْلٍ وَعِلْمٍ ... لَهُ فِي الْآخِرِينَ هَدْيٌ وَفَضْلٌ).



(15) الأستاذ الدكتور عز الدين إسماعيل

(مؤسسٌ وناقدٌ لم يتكرر، وشاعرٌ "الإيجراما" المختلف)

إنه أستاذي وأستاذ أستاذتي الكبار، حيثُ أشرفَ على أستاذنا الدكتور عبد العزيز المقالح في رسالته للماجستير في منتصف سبعينيات القرن الماضي؛ عن رسالته الموسومة بـ"شعر العامية في اليمن" في جامعة عين شمس، وحضر إلى جامعة صنعاء أكثر من مرة، إبان كان المقالح رئيساً لها، وفي أوقاتٍ مختلفةٍ إمّا أستاذاً زائراً، أو مناقشاً لرسالةٍ علميةٍ، أو مشرفاً خارجياً، ومنها على سبيل المثال رسالة الصديق والزميل الأستاذ الدكتور عبد الواسع الحميري التي كانت عن "الذات الشاعرة في شعر الحداثة المعاصرة"، ولم يكن أيُّ طالبٍ يحظى بمثل هذا الاهتمام أو بحضور قامة نقدية عربية كبيرة مثل الدكتور عز الدين إسماعيل إلا إن كانت رسالته تستحق ذلك، وحينها تكون الجامعة في احتفالٍ بهيج، ويحضر المناقشة الكثير من الباحثين والأساتذة والعلماء، فمولدٌ عالمٌ في اليمن - وكذلك في مصر - والإعلان عنه ليس كمثله فرح، في حضور الناس وامتلاء القاعات بالباحثين، وطلاب العلم، والأدباء، والمثقفين، والصحفيين، هذا فضلاً عن الأهل والأصدقاء، وكأنَّه يوم الرِّينة، وما ذاك إلا إعلاءٌ لشأن العلم واحتفالاً بمولد عالم، وتلك سنَّةٌ حسنةٌ، وعادةٌ جميلةٌ.

وكنْتُ قد حضرتُ مثل تلك المناقشات، أو تلك المحاضرات التي إن حَضَرَ فيها عز الدين إسماعيل وحَاضَرَ حَضَرَتِ الجامعة -تقريباً- للاستفادة والتعلُّم، وكم كان يُدهشُنا بسعة علمه، وحضوره المهيِّب، فقد زاده الله بَسْطَةً في العلم والجسم، وكأنَّه طالوتُ العلماء.

جاء إلى صنعاء التي كان يحبُّها كثيراً، وتحبُّه أكثر، كما أنَّ من دلائل ذلك الحبِّ كتابه القيم "الشعر المعاصر في اليمن، الرؤية والفن"، الذي صدرت طبعته الأولى عام 1972م، عن معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة، وهو من أهمِّ ما كُتِبَ عن الشعر اليمني المعاصر لأسباب عدَّة منها منهجيته العلمية والأكاديمية، وتحليلاته العميقة بلغة رصينة، ومنهج منضبط، ولأنَّه في معظمه قد أُلقي في محاضرات على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية في معهد البحوث التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة، في وقتٍ مبكّر، وهذا الكتابُ كان أكثر حضوراً في دراستنا الجامعية الأولى في جامعة صنعاء، وعرفنا من خلاله شعر المؤشكي، والزُّبيري، وغيرهما من شعراء اليمن أصحاب الرؤية الثورية، والتغيير الفعلي على مستوى الفكر والفن، ومثله في التأسيس في مجال القصة يأتي كتاب د. عبد الحميد إبراهيم القصة اليمنية المعاصرة (1939-1976) بيروت، دار العودة، كتاب الكلمة، ط1، 1977م.

وما كان يدور في خَلدي بأني بعد سنوات سأكون واحداً من طلاب ذلك المعهد، وسألتقي في قاعة الدرس بأستاذنا القدير عز الدين إسماعيل، حيث تلقيتُ على يديه عدداً من محاضرات الفصل التمهيدي من السنة الأولى في المعهد في العام الجامعي (1999/2000م)، وكانت محاضراته في الأدب والنقد تقدِّم ضمن عددٍ من المحاضرات التي يقدِّمها أستاذة المعهد في تخصصاته المختلفة، فعلى الطالب أن يدرس هذه المفردات: (الأوضاع

السكانية، الأدب وقضايا الوطن العربي، عوامل الوحدة والتفكك، اقتصاديات التنمية، علم الاجتماع السياسي، المدخل للقانون، الأوضاع السياسية في الوطن العربي، الإعلام وقضايا الوطن العربي)، وهي جرعة قيّمة وأساسية يلقيها عليهم كبار المتخصصين، يأخذها طلاب العلم من مختلف البلدان العربية، والأفريقية، والآسيوية ممن يدرسون في ذلك المعهد العريق.

وكان أستاذنا رئيساً لقسم الدراسات الأدبية واللغوية في المعهد حينها، وكان حريصاً على استضافة الأساتذة الكبار من مصر، ومن مختلف الأقطار العربية، وكان كثيراً ما يهتبل فرصة وجودهم في القاهرة لإقامة لقاءات معهم، وتقديم محاضرات يلقونها على طلاب القسم، وأذكر من تلك اللقاءات والمحاضرات المفيدة جداً لقاءنا بالأستاذ الدكتور "عبد السلام المسدي" الناقد والأكاديمي التونسي الكبير، وقد حدّثنا في محاضرتة عن سرّ تطور العلوم التطبيقية لكي يصل بنا إلى الدراسات اللسانية والمناهج المنبثقة عنها بنيوياً وأسلوبياً وغيرها، ومن كلماته وتشبيهاته التي ما تزال راسخة في الذاكرة قوله: "إنّ الإنسان العربي ينتقل بوعيه من لغة الأم إلى اللغة الأم" وهو يقصد بها من اللهجات المختلفة المتأثرة بالتربية والبيئة المحلية إلى اللغة القومية الفصيحة المتأثرة بالتعليم، ومن أقواله: أيضاً، إنّ العلوم التطبيقية وصلت إلى ما وصلت إليه من التطورات والفتوحات لأنها انطلقت من الجزء الدقيق في مجالاتها، فعندما اكتشفت النواة كان ذلك

فتحًا في دراسات الذرة وعوالمها وتطبيقاتها، وحين ركّزت البحوث الطبية على الخلية، وصلت إلى المعرفة الدقيقة والهائلة في مجالاتها، بل ووصلت إلى الاستنساخ، وما كان لها أن تحقّق مثل ذلك لو ظلت تبحث في الكليات العامة من الأشياء والأجساد كما كان أسلافها يبحثون، ومن هنا كان الفرق الهائل في التطور والبحوث الحديثة والاكتشافات العلمية الكبيرة والمدهشة، ومثلها اللغة، فحين وقفت الدراسات الحديثة واللسانية منها على وجه الخصوص عند الجزء: من الفونيم، والمورفيم، وثنائية الدال والمدلول، واللغة والكلام وغيرها كان الفتح المبين في الدراسات اللغوية والنقدية الحديثة، وتعدّدت المناهج وانبثقت عنها كالبنيوية وما بعد البنيوية، والأسلوبية والتفكيكية، والسيمولوجية وغيرها.

وكان أستاذنا عز الدين فاتح آفاقٍ ومحرك معرفةٍ وأيقونة نقدٍ، وعلمًا يشارُ إليه بالبنان والوجدان، وكان ينظّم كل ثلاث سنوات مؤتمرًا دوليًا لجامعة عين شمس بالتعاون مع الجمعية المصرية للنقد الأدبي، وهو رئيسها، ويختار لها المحاور ويرتّب لها الأهداف، وفي العام 2000م كان المؤتمر الدولي الثاني للنقد الأدبي تحت شعار "قضايا النقد الأدبي على مشارف القرن الجديد" وعُقد في الفترة من 20-24 نوفمبر، وقد حضره كبار النقاد العرب والمصريين، وكانت فرصة لنا أن نلتقي بكلّ تلك الأسماء الكبيرة والخبرات العالية التي نتعرّف عليها مباشرةً، وملتقي بها عيانًا بعد أن كانت معرفتنا بها عبر مؤلفاتها وكتبها التي تملأ السمع

والبصر، وتحرك العقل البحثي، والتأمل النقدي، وأذكر أنني في ذلك المؤتمر قد التقيت لأول مرة بالدكاترة والنقاد العرب الكبار أمثال: د. عبد الله الغدامي، ود. سعيد يقطين، ود. سعيد علوش، ود. محمد برادة، ود. عبد السلام المسدي، وغيرهم.

وكان أستاذنا عز الدين حريصاً على هذا المؤتمر الدولي الذي انعقد في حياته أربع مرات منذ تأسيسه في عام 1997م، والثاني عُقد من 20 - 24 نوفمبر 2000، والثالث في عام 2003م، وكان بعنوان "الثقافة، والنقد الثقافي" والرابع في عام 2006م، وهو آخر مؤتمر نظّمه قبل عام من وفاته - رحمه الله - وكان عنوانه "البلاغة، والدراسات البلاغية".

وكان يشارك في تلك المؤتمرات نخبةً من أهمّ النقاد العالميين، والعرب، والمصريين، وتصدر أعمالها في مجلدات عربية، بالإضافة إلى مجلد للأبحاث المقدمة بلغات غير عربية. ومن أبرز من شاركوا في مؤتمرات الجمعية السابقة من كبار الأساتذة والباحثين على الساحة العالمية؛ "روبرت ياوس"، و"هلموت آرننتسن" (ألمانيا)، و"كريستوفر نورس"، و"تيري إيجلتون"، و"إدموند رايت" (إنجلترا)، وإيهاب حسن، وغيرهم.

علّمنا أستاذنا المثابرة والجِدَّ والإخلاص في العمل، فقد كان أنموذجاً للأكاديمي، والمثقف، والرائد في كلّ المجالات التي عمل فيها، فهو باحثٌ مُدقّق، ومنهجي منظم، وإداري حصيف، وإنساناً إنسان قبل كل ذلك وبعده.

ظَلَّتْ علاقتي به متواصلة؛ ما سمعتُ بلقاءٍ سيتواجد فيه أو محاضرةً سيلقيها إلا وبادرتُ بالذهاب إليها، والاستفادة منها سواء أكان ذلك أيام دراستي في المعهد أم بعده. ومن أجمل عطاءاته الإبداعية والعلمية أنَّه حين صدر ديوانه "دمعه للأسى..دمعة للفرح" عام 2000م في طبعته الأولى جاء بعددٍ من النُسخ ووزعها علينا، وكانت لفتةً جميلةً تدلُّ على أستاذيته وجمال روحه، ولأوّل مرةٍ تقفُ عيني في مقدمته لديوانه على مصطلح (الإبيجراما)، وعلى هذا النوع من الشعر، وكأنّما أراد أستاذنا أن يطلعنا على هذا الفن، ويكمل رسالته التعليمية والتثقيفية التي بدأها بالمحاضرات في القاعة، وأنهاها بالتجسيد الإبداعي بين دفتي هذا الديوان العميق والدال على شاعرية الأستاذ، وهو بالمناسبة شاعرٌ مكيّن كما كان ناقدًا أمكن.

وحين قرأتُ الديوان شدّني الأسلوب واللغة والمفارقة والفكرة في جميع قصائده ومقطوعاته إنه حقًّا نوعٌ يستحقُّ التأمل والقراءة، ويدفعُ إلى تحرير المصطلح ومعرفة أبعاده وأصوله، ولهذا حين بحثُ في رسالتي للدكتوراه وجدتُ قريبًا وشبهًا من هذا الفنّ في بعض القصص القصيرة والقصيرة جدًّا، وإن كان هذا النوع إلى الشعر أقرب، حيث يمتاز بالخفة، والحدّة، والسرعة، والقصر، ويتوصّلُ التأنق الشديد في اختيار ألفاظه، وذلك ليقع موقعًا أخاذًا في النفس، ويدور على الألسن.

ولهذا فقد وقفتُ على تحرير المصطلح في دراستي تلك، فالإبيجراما: كلمة مركَّبة في اللغة اليونانية القديمة من كلمتين هما: **epos** و**graphein**، ومعناها الكتابة على الشَّيء، وفي البداية كانت تعني النقش على الحجر في المقابر إحياءً لذكرى الموتى، أو تحت تمثال لأحد الشخص. ثم أصبحت الكلمة تدل على الشعر القصير الذي كانت تُصوَّر فيه عاطفة من عواطف الحب أو نزعة من نزعات المدح أو الهجاء، وتنتهي "الإبيجراما" بمفاجأة تلقي الضوء على أبياتها الموجزة القليلة العدد، وتمنحها دلالة خاصّة من خلال السُّخرية والمفارقة.

وقد استفاد هذا النوع الأدبي في العصور الحديثة لدى شعراء أوروبا وأمريكا بعد أن تمَّ صقله في القرنين السابع والثامن عشر على يد "فولتير" في فرنسا، و"شيلر" في ألمانيا، وغيرهما. وفي الأدب العربي لم يظفر بنماذج تُعلن عن وعي أصحابها به، وبخصوصيته، وشروطه إلا على يد "طه حسين" في كتابه "جنّة الأشواك" وقد قدّمه في الشّكل النثري في حين قدّمه أستاذنا عز الدين إسماعيل في الشّكل الشعري من خلال ديوانه الذي يحمل عنوان "دمعة للأسى.. دمعة للفرح" مع مقدمة مهمة لهذا النوع.

وقد نشر عنه الدكتور شكري عزيز الماضي مقالاً مهماً بعنوان (دمعة للأسى...دمعة للفرح؛ إشكالية مصطلح "الإبيجراما".. إلى روح الراحل الكبير عز الدين إسماعيل) نشره في صحيفة الدستور، ومما قاله: "ويبدو أن إبيجراماته التي بدأ بنشرها منذ منتصف الثمانينيات من القرن

العشرين في المجالات الأدبية قد شكّلت إغراءً لعددٍ لا بأس به من شعراء الجيل الأخير في ذلك القرن، الحداثيين وما بعد الحداثيين، شعراء قصيدة التفعيلة، وشعراء قصيدة النثر على السواء. هذا الإغراء الذي جعله يكسر عزوفه عن نشر مجموعات شعرية سابقة، ودفعه إلى نشر هذا النص الشعري ووضعه بين أيدي القُرّاء. ويلاحظ أنّه يؤكد انتماء أشعاره "إلى النص" لا إلى "العمل" وهذا يعني أن الكتابة الإبداعية متحركة ومفتوحة، وليست ثابتة ولا مغلقة. كما يلاحظ أنّه يقدّم في "دمعة للأسى.. دمعة للفرح" مائة وست وأربعين (إيجراما) لكنّه يطلق على مجموع هذا العدد كلمة (نصّ) لا نصوص. ويلاحظ أن الفصل الواحد ينطوي على ألوان وأطياف متنوعة، وأنّ عناوين الفصول تُشعّ بدلاتين: دلالة ظاهرة، وأخرى ضمنية، والأولى توحى بالثانية، وإذا كانت الدلالة الظاهرة تتمثّل في عناوين الفصول، وهي: فصل للذات، فصل للعالم، فصل للأيام، فصل للبشر، فصل للمرأة، فصل للصمت والكلام، فصل للمعنى، فصل للحجارة، فصل للموت، فصل للعبث، فإن الدلالة الضمنية يمكن أن تتمثّل في: الآخر، والحياة، والزمن، والمجتمع، والحب، والحرية، والنضال، والماء وراء، والغموض.. الخ" (انتهى كلام د.شكري الماضي).

وبعد خمسة أعوام من دراستي في المعهد تشرّفتُ بأن كان أستاذي رئيساً لجلسة علمية شاركتُ فيها مع الزميلين الباحثين: محمد الأَكْسَر، وعلي عِرْجَاش، في المؤتمر العلمي الأول للباحثين اليمنيين بالجامعات

المصرية المنعقد في 17- 18 مايو 2005م. وكان مؤتمراً علمياً ناجحاً ورائداً شارك فيه عددٌ كبيرٌ من الباحثين اليمنيين، كما حضره من قيادات السفارة والجالية اليمنية بالقاهرة عددٌ أكبر، وكانت تلك الجلسة وذلك اللقاء آخر عهدي به، جزاه الله عن طلاب العلم والقرّاء خير الجزاء. وفي هذا المقال القصير لابدّ لنا من الإشارة إلى التكوين المعرفي والثقافي لأستاذنا، ورصد بعض جهوده، وكتبه، وشيء من إسهاماته المختلفة.

الأستاذ الدكتور "عز الدين إسماعيل عبد الغني" من مواليد القاهرة، (1929 - 2007)، تلقى تعليمه في القاهرة، حيث حصل على درجة الليسانس من قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة القاهرة (جامعة فؤاد الأول سابقاً)، سنة 1951م، ثم الماجستير في جامعة عين شمس، سنة 1954م، والدكتوراه سنة 1959م، ثم رُفّي إلى درجة الأستاذية في الأدب والنقد، سنة 1972. وقد تولى عمادة كلية الآداب بجامعة عين شمس في الفترة من 1980 إلى 1982، وعُين أستاذاً متفرغاً بقسم اللغة العربية في الكلية ذاتها بعد بلوغه الستين، سنة 1989.

درّس في جامعات عربية كثيرة منها جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان، وجامعة بيروت العربية بلبنان، وجامعة محمد الخامس بالمغرب، وجامعة الملك سعود بالسعودية، وجامعة صنعاء باليمن، كما قام بزيارات علمية قصيرة إلى كلٍّ من الأردن، والعراق، والإمارات، والكويت، وتونس، وألمانيا، والبحرين.

وفي المناصب الإدارية عَمِلَ مديرًا للمركز الثقافي العربي في "بون" بألمانيا الغربية (1964 - 1965م)، كما رأس مجلس إدارة الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة 1982م، وعُيِّن أمينًا عامًا للمجلس الأعلى للثقافة، سنة 1984م، ثم رئيسًا لأكاديمية الفنون، سنة 1985م.

وأما عن عضوية الجمعيات الأدبية والثقافية فقد كان عضوًا في كلٍّ من: جماعة الأماناء (1951)، والجمعية الأدبية المصرية (1954)، والجمعية الدولية لدراسة السَّرديات الشعبية (1980)، والجمعية المصرية للنقد الأدبي (1988)، وجمعية محبِّي الفنون الجميلة (1989)، وأتيليه القاهرة الفني والثقافي (1991) واتحاد كُتَّاب مصر، والمجمع اللغوي في دمشق، وغيرها.

ومن مشروعاته الكبيرة ذات الأثر العظيم، وهو المؤسَّس الرائد، أنَّه أسَّس مجلة (فصول) عام 1980م، وترأس تحريرها حتى 1991م، وهي من أهم المجلات النقدية العربية، ومجلة (إبداع) 1983، ومجلة (عالم الكتب) 1984، وأسَّس (المعرض الدولي لكتاب الطفل)، و(المعرض الدائم للكتاب) 1984م، ومجلة (القاهرة) 1985م، وأسَّس (جمعية النقد الأدبي) 1988م، وغيرها، وهو بذلك يذَّكرنا بمقولة "هلدرين": (إنَّ ما يبقَى يؤسَّسُهُ الشُّعراء).

وأما عن مشروعه النقدي والأكاديمي والإبداعي، فإنَّ له عددًا من الكتب التي صارت علامات بارزة، وبالنقدِ هم يهتدون في الدَّرس العلمي والكتابات الأكاديمية، فما تكاد تخلو رسالة علمية محترمة من الإحالات

المتعددة إلى كُتبه في مشرق الوطن العربي ومغرب، لما تمتاز به كتاباته من رصانة في الطرح، ومنهج علمي منضبط في التناول، ولغة مميزة واضحة خالية من التقعر أو الغموض، بل هي لغة عميقة الطرح واضحة البيان. ومن كُتبه المهمة نذكر:

- (1) الأدب وفنونه، دراسة ونقد (1955م)، كتابه الأول، وهو في مرحلة الماجستير).
- (2) الأسس الجمالية في النقد العربي، عرض وتفسير ومقارنة، (رسالته للدكتوراه 1955م)
- (3) قضايا الإنسان في الأدب المسرحي المعاصر.
- (4) التراث الشعبي العربي في المعاجم.
- (5) التفسير النفسي للأدب (تأليف).
- (6) الروائع من الأدب العربي (تأليف).
- (7) الزبير باشا ودوره في السودان في عصر الحكم المصري (تأليف).
- (8) الشعر العربي المعاصر، قضايا وظواهره الفنية والمعنوية (تأليف).
- (9) الشعر القومي في السودان.
- (10) الشعر المعاصر في اليمن، الرؤية والفن (تأليف).
- (11) الشعر قيمة حضارية.
- (12) الفن والإنسان (تأليف).
- (13) القصص الشعبي في السودان.

- 14) دراسة في فنية الخطابة ووظيفتها (تأليف).
 - 15) المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي (تأليف).
 - 16) أوبرا السلطان الحائر: مأخوذة عن مسرحية توفيق الحكيم (تأليف).
 - 17) عشرون يومًا في النوبة (تأليف).
 - 18) في الشعر العباسي: الرؤية والفن (تأليف).
 - 19) قضايا الإنسان في الأدب المسرحي المعاصر: دراسة مقارنة (تأليف).
 - 20) نصوص قرآنية في النفس الإنسانية (تأليف).
 - 21) راضية، عن الحكاية النبوية/ تأليف إبراهيم شعراوي، تقديم عزالدين إسماعيل.
 - 22) قصص من مصر، تأليف سهير القلماوي، تقديم ونقد: عزالدين إسماعيل.
- هذا بالإضافة إلى عددٍ آخر من الكتب المشتركة مع آخرين، ومنها:
- 1) حي بن يقظان وروبينسون كروزو، دراسة مقارنة (بالاشتراك مع آخرين).
 - 2) اللغة العربية ومدخل برنامج دراسي لطلبة الجامعة للتعليم من بعد (بالاشتراك).
 - 3) كتاب البلاغة والنقد (بالاشتراك).
 - 4) البلاغة والنقد (بالاشتراك).

5) مأساة الإنسان المعاصر في شعر عبد الوهاب البياتي (بالاشتراك).
هذا فضلاً عن مئات البحوث والمقالات العلمية المنتشرة في دوريات، ومجلات، ومؤتمرات علمية مختلفة، يضيق بنا المقام عن حصرها، ولعلّ باحثاً يرصدها، وينهض بدراستها في بيليوغرافيا وببليومتريا تليق بالأستاذ وبمشروعه.

أمّا في الشعر والإبداع فلأستاذنا:

1) محاكمة رجل مجهول (مسرحية شعرية، 1986).

2) أوبرا السلطان الحائر.

3) دمعة للأسى.. دمعة للفرح (ديوان شعري، 2000م).

4) هوامش في القلب (2007م) صدر بعد وفاته.

وفي الترجمة له:

في ترجمة الأعمال الإبداعية:

1) رحلة إلى الهند، للروائي الإنجليزي "إ.م. فورستر".

2) السفينة دميرينت، للروائي الطاجيكي "يوري كريموف".

في ترجمة الأعمال النقدية:

1) نظرية التلقي لروبرت هولب (1994).

2) فرديناند دي سوسير لجوناثان كولر (2000).

3) مقدمة في نظرية الخطاب لديان مكدونيل (2001).

وقد أتته الجوائز مُنقادةً إليه تجرُّرُ أذيالها، ومنها: جائزةُ القلم الذهبي (يوغوسلافيا، 1984)، وجائزةُ مؤسَّسة التقدم العلمي (الكويت، 1984)، وجائزةُ الدولة التقديرية (مصر، 1985)، ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى (مصر، 1990)، وجائزةُ الملك فيصل العالمية في اللغة العربية والأدب (السعودية، 2000)، [مناصفة مع الدكتور عبد الله الطيب المجذوب] وجائزةُ مبارك في الآداب (عن المجلس الأعلى للثقافة، مصر 2007م).

* (فصلُ الخطاب) *

"كان يرى في موته حرّيته
وفي حلول الموت لحظة الخلاص
وحينما أحسَّ بالسَّهم يشقُّ صدره
اغرورقت عيناه بالفرح.
"غابة"

"لا أمضي خطوات حتى تقطع خطوي الأجسام
تصدمني، توشك أن تحرقني
أو أسقط بين الأقدام
وكأنّا في يوم الحشر

الغابة لا تعرف إلا الطرق المتلفة...@ عز الدين إسماعيل: (دمعة
للأسى.. دَمعة للفرح).

تَحِيَّة

(إِذَا شِئْتَ أَنْ تُدْرِكَ الْفَرْقَ بَيْنَ الْأَنَامِ
فَفَتِّشْ عَنِ الْهَمَّةِ الْخَالِدَةِ
عَنِ الرُّوحِ
حِينَ تَسَافِرُ فِي كُلِّ سَفَرٍ عَظِيمٍ
عَنِ النَّفْسِ
وَهِيَ تَعَانِقُ سِرَّ الْحَيَاةِ
تَحَلُّقُ فِي الْمَخْتَلَفِ
وَتَهْرُبُ مِنْ طِينِهَا اللَّالِزِ الْمُنتَهِي
تَقَاوُمُ كُلِّ الْيَبَابِ،
وَعَصْفُ الثَّرَابِ،
وَضِيقُ الْحُدُودِ
لِتَصْنَعَ مِنْ ذَلِكَ الْمُسْتَحِيلِ الْخُلُودَ!).



(16) الأستاذة الدكتورة نبيلة إبراهيم

(عميدة الفنون الشعبية، وذاتُ الهمةِ في القرن العشرين)

من الجميل أن نستهل هذا العام 2020م بحديثٍ عن ضمير الأنثى (هي) بحضورها الذي يمثّل حضور القيمة، وعظمة السيرة، وسحر الحكاية، لا شكَّ أنَّ الحكاية أنثى، والقصة أنثى، والحياة أنثى، و"شهرزاد" التي كانت أستاذةً ومعلّمةً لضمير الـ(هو) علّمته معنى الجمال، وعالجته بالتشويق والدهشة، وروضته بالحكاية وعوالمها ليكون إنساناً وديعاً، وتلميذاً مطيعاً بعد أن كان وحشاً كاسراً حين كسرتة أنثى أخرى غيرها بجهلها، ورمتها (هي) بعلمها، وحكمتها، وحكاياتها، فكانت تحكي لتعيش، وكان يستمع ليُشفي، وسواء أكانت "شهرزاد" حقيقةً أم خيالاً، ولا فرق إن كانت رمزاً أو واقعاً، فعلى الجملة فقد كانت سرّاً من أسرار البيان، ورائعةً من روائع ما أنتجه خيال الإنسان، وهي دُرّةٌ بديعة من ثقافات الشرق كان لها أثرها الذي لا يُنكر لدى الغرب، وكانت الحكاية وعاء ذلك السحر، ومدار ذلك السر، وأداة تلك الدهشة، بما احتوته - وما زالت تحتويه - من مناجم الخيال، وأساليب الرواية، وغواية الحديث، ولذة السرد.

حديثنا اليوم عن رائدة من رواد الأدب الشعبي، والدراسات الأكاديمية الشعبية، أستاذة قديرة كانت امتداداً طبيعياً لجيل من الأستاذة الكبار، فهي طالبة نجبية للدكتورة "سهير القلماوي" التي كانت بدورها تلميذة أنجب لعميد الأدب العربي "طه حسين" ولا بدَّ أنها أخذت عن الدكتور المتميّز "عبد الحميد يونس". إنها وارثة ذلك الجيل المؤسس

للدراستات الشعبية التي تحوّلت بفضل جهودهم إلى عِلْمٍ يُعْتَدُّ به، وكيانٍ يُنَافِسُ غيرَه من العلوم الأدبية الأخرى التراثية، والتقليدية، والنخبوية.

حديثنا عن أستاذتنا الدكتورة نبيلة إبراهيم سالم (1929-18 يناير 2017م) أستاذ كرسي الأدب الشعبي بجامعة القاهرة التي يصادف هذا الشهر الذكرى الثالثة لرحيلها، وهي من أبرز أساتذة الأدب الشعبي والفولكلور في الجامعات المصرية والعربية، كنتُ قد تتلمذتُ على بعض كتبها ودراساتها في دراستي الجامعية الأولى حتى جاءت الفرصة للتلقّي المباشر على يدها في معهد البحوث والدراسات العربية، وذلك في الفصل الثالث التخصصي من السنة الثانية 2000/2001م، حيث درّستُ لنا مقررًا عنوانه (أدب روائي) وكان الكتاب الذي بدأنا بدراسته معها هو كتابها الأكاديمي المميّز (نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة) دار غريب، القاهرة، ط1، 1986م، وفيه الكثير من المعارف التي اطلعتُ عليها لأوّل مرة؛ حيث ركّز ذلك الكتاب بمنهجية علمية على أثر الدراسات اللسانية الحديثة في دراسة النصّ الروائي، وذلك من خلال الحديث والمقارنة بمجهود "دي سوسير" في الدرس اللغوي وأثره على تحليل الرواية بوصفها فنّا اجتماعيّاً متكاملًا، وكذلك ما قدّمه "ليفني شتراوس" في علوم الإناسة وأثرها على البنيوية، وأهمية البنيوية التي أفادت من تلك الدراسات اللغوية، وبرز بوضوح في ذلك الكتاب المنهج الواقعي والبنيوي،

وكيف ارتبط المنهج الواقعي بالقصة التي تعدّها أقرب الأشكال الأدبية إلى الواقع.

كما تعلّمنا من ذلك الكتاب كيف يعتمد المنهج البنيوي في دراسة الأدب على النظر للعمل الأدبي كبناء متكامل، يركّز فيه النقّاد على اللغة مستخلصين الوحدات الوظيفية الأساسية التي تُدير العمل وتشكّله، وعلى الرغم من تعدّد وجهات النظر لدى أصحاب المنهج البنيوي إلا أن "شترأوس" يعدّ من أشهر علمائه، وفي تحليلاته من العمق ما ركّز فيه على مجموعة من الثنائيات الضدية، وقد بدأ بدراسة الأسطورة، ونجح إلى حدّ كبير في تغيير المفهوم الحضاري لها وعنّها.

وكتاب أستاذتنا في مجمله دراسة نظرية حول وظيفة اللغة الأدبية في التواصل من خلال التشكيل الفني والجمالي، كما يقدّم نموذجاً تحليلياً للغة التأليف القصصي بدءاً من الكلمة بوصفها إشارة، ثم العبارة بوصفها تركيباً، وانتهاءً إلى العمل كلّ بوصفه بناءً مكتملاً.

وبذلك يتضح مدى التأثير الذي أحدثته الدراسات اللغوية في الدرس النقدي بشكل عام وفي دراسات الأدب الشعبي بشكل خاص، ومن هنا كانت همّة ذات الهمّة في مشروعها الذي تأثّرت فيه بتلك الشخصية العظيمة من شخصيات السير الشعبية، وهي شخصية البطلة العربية الأميرة ذات الهمّة التي لُقِّبت بهذا اللقب لأكثر من سبب منها: شجاعتها وإقدامها وقيادة الجيوش، ورعايتها فيما بعد لأبنائها الأبطال، ومنها أنها

نشأت في طيء وحاول كثير من الرجال الاعتداء على عفافها لكنها قتلتهم جميعاً، حتى تزوّجت بالحارث ابن عمها "ظالم" رغماً عنها وبواسطة الخليفة نفسه - كما في السيرة - لأنها كانت تقول: "إنّ سيفي جملي، والغبار كحلي، والحصان أهلي، فماذا أصنع يا أمير المؤمنين بالحارث وبغيره من العالمين".

وإذا كان الإنسان يتأثر بمجليسه أو بصديقه فإنّه أكثر تأثراً بموضوع دراسته، وبعلمه الأكاديمي، فقد درست أستاذتنا تلك السيرة الشعبية، وتعرضت بالتحليل لشخصية ذات الهمّة، ولعولم السيرة وأبطالها، وعلاقاتها بالغرب والبيزنطيين تحديداً دراسةً مقارنةً، وكانت تلك الدراسة في بعثة حصلت عليها من الدولة إلى ألمانيا، وكان ذلك مفتاحاً لانطلاقها في دراساتها الأكاديمية، وجهودها المختلفة في الترجمة، وفي الأدب الشعبي بشكل عام، وفي قضايا المرأة وعولمها في الوجدان الشعبي بشكل خاص.

وقد حصلت على الدكتوراه من جامعة "جوتنجن" بألمانيا عام 1966م، عن أطروحتها باللغة الألمانية، ثم طبعتها بعنوان (سيرة الأميرة ذات الهمّة: دراسة مقارنة) دار الكاتب العربي، القاهرة، 1968، وهي تقوم في جوهرها على المقارنة بين الأدب الشعبي العربي والأدب الشعبي البيزنطي، وترصد العلاقة بين العرب والبيزنطيين من خلال السيرة الشعبية.

ثم عادت الأستاذة إلى جامعتها، وبدأت رحلتها العلمية التي استمرت لأكثر من نصف قرن وبضع من سنوات تدريساً وتأليفاً وترجمةً، فملأت الحياة الفكرية والأكاديمية والبحثية والاجتماعية عطاءً وعملاً

حتى استحقّت مجدارة جائزة الدولة التقديرية في العام 2014م في العلوم الاجتماعية، وياجماع الأصوات والآراء.

بدأت حياتها العلمية من الشعر وانتهت إلى النثر والأدب الشعبي، حيث كانت رسالتها في الماجستير في آداب القاهرة عن (روميّات المتنبي) سنة 1954م، وقد وصف زوجها أستاذنا الدكتور عز الدين إسماعيل تلك الروميّات في كتابه في الشعر العباسي، وفي إطار حديثه عن الصراع بين العرب والروم "بأنها تشكّل موضوعاً قائماً بذاته في تاريخ الشعر العربي لا لكثرة هذه الروميّات فحسب، بل لقيمتها التاريخية والفنية كذلك، فهي في مجموعها تحمل نفساً ملحمياً لولا فقدانها للشكل الملحمي"، وقد كانت تلك الروميّات بالنسبة إلى الباحثة الشابة مدخلاً إلى دراسة العلاقة مع الغرب.

ثم اهتمت أستاذتنا بقضايا المرأة في التراث الشعبي منذ دراستها في مرحلة الدكتوراه، حين وقفت على سيرة الأميرة ذات الهمة، كما مرّ بنا، ثم قدّمت دراسات مبكرة في هذا الاتجاه منها: المرأة في الحكايات والخرافات الشعبية 1965م، واللغز في الأدب الشعبي 1965، وأمنا الغولة 1969، وقد كتبت الكثير من المقالات والأبحاث التي نُشر معظمها في مجلة الفنون الشعبية المصرية ومنها: قصص أسطوري عربي 1970، ومنشد الشعب 1970، والفولكلور في التراث الشعبي 1971، والحكايات الشعبية العربية 1971، والحكايات الشعبية في ضوء التفسير النفسي 1973، واليمين والشمال في التراث العربي 1977، والإنسان والزمان في التراث الشعبي

1978، والأسطورة؛ بحث معمّق نُشر ضمن الموسوعة الصغيرة، بغداد
1979، والسيرة النبوية بين التاريخ والأدب الشعبي، 1982، وعلمية التعبير
الشعبي، 1983، والقصص الشعبي: جمعه، وتصنيفه 1986، وخصوصية
الإبداع الشعبي 1992، والتّحاور الفني مع التراث 1994، والرمز والأمثولة
في التعبير الشعبي 1996، ودراسة شهيرة عن المنهج الوظيفي في دراسة حياة
الشعوب 2001، وقَدّمت عرضاً لمعجم الفولكلور لعبد الحميد يونس
2010، وغيرها.

إنّه عطاء مستمر بحثاً وتدرّساً وحياة علمية غزيرة الإنتاج لم
تهدأ يوماً إلا لتبدأ، ولم تنشغل إلا لتتفرّغ لبحث جديد أو كتاب أو
دراسة، وقد لَحِصت الكثير عن هذا الاتجاه في كتابها الذي يحمل عنوان
(دَرّة الغَوَاص في التعبير الشعبي) وهو على شاعرية عنوانه يحمل الكثير من
أفكارها، ومن طريقتها في الغوص، والبحث، والتنقيب، والاكتشاف.

تلك كانت بعض أبحاثها ومقالاتها، وقد عاشت متفرّغة للعلم ولم
تحفل كثيراً بالعمل الإداري على الرغم من أنها شغلت منصب عميد المعهد
العالي للفنون الشعبية بأكاديمية الفنون بالقاهرة (1987-1989) إلا
أنها أثرت العمل الأكاديمي، فكان عطاؤها متركّزاً في أعمال علمية
وترجمات نذكر منها تلك الأعمال الرائدة، والكتابات المرجعية، والترجمات
الرصينة التي أصبحت من أهمّ المراجع في الدراسات الشعبية في العالم
العربي، وليس أدلّ على ذلك من ترجمتها الرائدة لكتاب "جيمس فريزر"

(الفولكلور في العهد القديم) في مجلدين كبيرين، صدرت الترجمة العربية منه للمرة الأولى في عام 1972م، وقد ترجمته بتوصية من أستاذتها "سهير القلماوي" وهو للأنثروبولوجي "فريزر" الذي قام بتفكيك قصص التّوراة ليثبت من خلال مقارنتها بميثلاتها وبالعناصر الفولكلورية أن المصدر واحد؛ وهو الطبيعة الإنسانية المشتركة بين شعوب العالم، ولهذا تبطل مقولة: "إنَّ اليهود شعب الله المختار"، وهذا الكتاب من أهم المراجع في الدراسات الفولكلورية، وفي مناهجها وتطبيقاتها.

ثم كانت ترجمتها للكتاب الثاني عام 1987م وهو كتاب "فريدريش فون ديرلاين" (الحكاية الخرافية - نشأتها مناهج دراستها - فنياتها)، ثم جاءت ترجمتها الرائعة للكتاب الثالث (الماضي المشترك بين العرب والغرب - أصول الآداب الشعبية الغربية) لمؤلفه "أل.رانيلا"، وهو دراسة موسّعة في الأدب الشعبي المقارن صدر عام 1999م عن سلسلة عالم المعرفة بالكويت، تلك كانت أبرز جهودها في الترجمة.

وأما كتبها المؤلّفة فقد كان لها إسهامات متميزة في الدراسات الشعبية، ولا تخلو اليوم دراسة من الإحالة إلى تلك الكتب التي أصبحت عمداً يعتمد عليها، ومراجع يعتدُّ بها لما تحتويه من رؤية علمية رصينة، وتصنيف حصيف، وتحليل عميق، فمن الدارسين اليوم أو من الرسائل الجامعية والأبحاث المحكمة ذات القيمة لا يرجع إلى كتبها؟ من أمثال: - كتابها العمدة (أشكال التعبير في الأدب الشعبي) نهضة مصر، 1966.

- وكتاب (قصصنا الشعبي من الرومانسية إلى الواقعية) دار الفكر العربي، 1973.

- وكتاب (الدراسات الشعبية بين النظرية والتطبيق) مكتبة القاهرة، 1973.

- وكتاب (البطولة في القصص الشعبي) دار المعارف، 1977م.
- وكتاب (فنُّ القصّ بين النظرية والتطبيق) مكتبة غريب، 1990م، وهو من أوائل الكتب التي وظّفت المنهج البنيوي في دراسة القص، وفيه قراءة نقدية رصينة لرواية نجيب محفوظ (ليالي ألف ليلة).

وكذلك كتابها المبكر عن (نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة) الذي سبق الحديث عنه، أما عن دراساتها المستفيضة والمتخصّصة في السيرة الشعبية، وفي موضوعات الأدب الشعبي، ولذلك حديث يطول، وتكفي الإشارة إلى بعض كتبها القيمة، ومنها:
- كتاب (من نماذج البطولة الشعبية في الوعي العربي) ندوة الثقافة والعلوم، دبي، 1993،

- (البطولات العربية والذاكرة التاريخية) المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 1995م.

- (الإنسان والكون في التعبير الشعبي).
- (المقومات الجمالية للتعبير الشعبي) الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1996، وغيرها.

وكما اهتمت أستاذتنا بالسَّير الشَّعبية اهتمت بمن علَّمتها فكتبت عن أستاذتها "سهير القلماوي" سيرةً ذاتيةً علميةً أصبحت مرجعاً مهماً، كما أنها دوَّنت عن نفسها جانباً من سيرتها الذاتية في كتاب -هو آخر ما صدر قبل وفاتها- عنوانه "ذات الهمّة في القرن العشرين، يوميات د. نبيلة إبراهيم" 2015م عرضت فيه للحديث عن بيت العائلة الكبير، والنشأة الأولى والثانية، وتحدّثت عن سفرها للدراسة في ألمانيا، وختمت الكتاب بملحق للصور، وهو كتاب على صغر حجمه وقلة عدد صفحاته إلا أنه يحمل روحاً من روحها، وشيئاً من حياتها العامرة بالكتابة والبحث والتجربة الإنسانية لواحدة من نساء هذا العصر اللائي لم يكنَّ أقلَّ من أسلافهنَّ العربيات ذوات الهمّة والتاريخ المشرق الذي يصنع أجيالاً عربية قادرة على المنافسة، والعطاء، والخلود.

وبالمناسبة لم يكن اهتمامها بالمرأة وقضاياها اهتماماً عابراً أو لغرض البحث فقط، بل كان سلوكاً، وممارسةً، واهتماماً بالقيمة التي تمثله المرأة والرسالة التي تؤدّيها في مجتمع ذكوري في الغالب، وقد لاحظتُ ونحن معها في قاعة الدرس كيف كانت تهتم ببناتها من الطالبات اهتماماً خاصاً، وتدفعُ فيهنَّ روحاً من التشجيع، وبخاصّة أنه كان معنا زميلتان فلسطينيتان - رعاهما الله حيثُ حلَّتَا الآن - وهما: "عدلة أبو خوصة، ومروة طُويل"، فكانت كثيرة الاهتمام بهما وبمتابعتهما، والحقُّ أنهما كانتا من أفضل الطالبات والطلاب في الدفعة اجتهداً وتحصيلاً، وكان مستواهما

جيدًا جدًّا، ومما يحسب للمرأة الفلسطينية هذا الحرص على التعلُّم وترك الأهل والغربة من أجل العلم؛ لأنَّه في وعيهنَّ السبيل الحقيقي للمقاومة، والنضال، والعيش الكريم، فبالعلم يكون الانتصار على العدو الغاشم الجاثم، وبه سيكون التحرُّر - إن شاء الله - وليس بشيء سواه، وذلك هو إدراك الشخصية الفلسطينية كما لمسناه فيمن جمعنا بهم الدراسة في ذلك المعهد.

علَّمتنا أستاذتنا الدكتورة نبيلة إبراهيم معاني الجِدِّ والثقة بالنفس والمثابرة، وأنه لا شيء مستحيل أمام الإرادة الصادقة، والهَمَّة العالية، وكلُّ إنسانٍ مُيسَّرٌ لما خُلق له، ولا يتميَّز إلاَّ المجدُّون والمثابرون.

في مسيرتها العلمية والأكاديمية الفضلُ على كثير من طلابها في مراحلهم التعليمية المختلفة، ولا أحد ممَّن درس الأدب الشعبي في كلية الآداب جامعة القاهرة إلَّا ويذكر قدرها، ويشكر فضلها مع أساتذة هذا المقرر المهم أمثال أستاذنا القدير والمتميز الأستاذ الدكتور أحمد علي مرسى - حفظه الله - وسنقف معه في مقال قادم، إن شاء الله.

أشرفتُ أستاذتنا على عدد من الأطروحات الأكاديمية سواء في الأدب الشعبي أو فيما يتعلق به من التخصُّصات الأخرى أو يتعلَّق معه، وقد بدأت ذلك الإشراف على رسائل الماجستير منذ وقت مبكر في العام 1970م، وتنوَّع إشرافها على عدد من الطلاب العرب من الجزائر، والعراق وغيرها فضلًا عن مصر، وقد أصبح بعضُ طلابها أعلامًا يملؤون بحضورهم

وجهودهم الحركة الثقافية والعلمية في الجامعات العربية والعالمية عطاءً وعلمًا، نذكرُ منهم، على سبيل المثال لا الحصر، الأستاذ الدكتور "عبد الحميد بورايو" الذي أشرفت عليه في الماجستير عن دراسته حول القصص الشعبي في منطقة بسكرة دراسة ميدانية عام 1970م، والدكتور "فتوح أحمد فرج" الذي كانت دراسته عن المأثورات الشعبية الأدبية للطفولة والأطفال، دراسة ميدانية بالسنبلاوين، عام 1986م، وله كتابٌ مهمٌ عن القصص الشعبي في الدقهلية، والأستاذ الدكتور "صبري مسلم" الذي كانت رسالته في الماجستير عن أثر التراث الشعبي في رسم الشخصية في الرواية العراقية الحديثة عام 1978م، وقد عمل أستاذًا ورئيسًا لقسم اللغة العربية في جامعة دمار مع زوجته الدكتورة وجدان الصائغ وقد أثريا المشهد اليمني نقدًا ودراسة وتدريسًا، فسلام الله عليهما، وهما يعملان الآن في الأكاديمية العربية بالدانمارك.

ومن الأجيال اللاحقة عددٌ من الأساتذة الجامعيين والباحثين في الأدب الشعبي، منهم صديقي وزميلي أ.د. خالد أبو الليل أستاذ الأدب الشعبي بجامعة القاهرة، ورئيس تحرير سلسلة الثقافة الشعبية بالهيئة المصرية العامة للكتاب، والذي حصل كتابه (التاريخ الشعبي لمصر في فترة الحكم الناصري: رؤية جديدة من وجهة نظر المهمشين) على جائزة الدولة التشجيعية في مجال العلوم الاجتماعية عام 2018م، وغيرهم كثير.

وكما بدأنا حديثنا بضمير الـ(هي) نختم به، وبما أن الشيء بالشيء يذكر، فبالإضافة إلى أستاذتنا الدكتورة الفاضلة نبيلة إبراهيم، فقد درّست في حياتي العلمية الجامعية على يد ثلاث أستاذات أخريات هنّ: الدكتورة "أمة الرزاق علي محمد" التي درّستنا مقرّر (مناهج وطرق التدريس) في كلية التربية جامعة صنعاء، وكانت حينها رئيسةً لقسم الدراسات العربية والإسلامية بالكلية، وهي أستاذة قديرة أصبحت فيما بعد وزيرة الشؤون الاجتماعية والعمل، وقد استمرت في الوزارة طويلاً لثلاث دورات وزارية منذ العام 2006 حتى 2014م.

ودرّستنا كذلك المعيدة أمة السلام جحاف، وكانت حينئذٍ متدرّبة ومعيدة متعاونة مع الدكتور "محمد الخياط" في مقرر أصول التربية، وهي في بداية حياتها العلمية، وأصبحت الآن أستاذ علم الاجتماع التربوي في جامعة صنعاء، وجامعة الملكة أروى، ولها العديد من الأبحاث والمؤلفات المهمة.

والثالثة هي الأستاذة الدكتورة "عزة غانم"، ابنة شاعر اليمن الكبير "محمد عبده غانم"، وقد درّست على يدها في المستويات الأولى مقرّراً اختيارياً هو (التربية الخاصّة)، وهي متمكّنة من تخصّصها وجادّة في أدائها، فجزى الله الجميع خير الجزاء ممّن علّمنا من ذكر أو أنثى.

* (فصلُ الخطاب) *

"هناك مشكلةٌ تثار عند دراسة الأدب الشعبي خلاف مشكلة دوافعه الشعبية، تلك هي مشكلة تأليف هذا الأدب، فمن ذا الذي يؤلف هذه الأنواع الأدبية بأشكالها المحددة؟ أهو الشعب كله أم هو فردٌ بعينه؟ وهل من المعقول أنَّ الشعبَ كله يمكن أن يجتمع ليؤلف أسطورةً أو حكايةً خرافيةً أو شعبيةً على سبيل المثال؟ أو هل يمكنه مجتمعاً أن يؤلف نكتة بشكلها الموجز المليء بالمغزى والسُّخرية؟! إن هذا لا يمكن أن يحدث بطبيعة الحال. ولم يبقَ سوى أن نفترض الأصل الفردي للإنتاج الأدبي. وهذا الفرد الخلاق لا يعيش حياةً ذاتيةً بعيدةً عن المجموع، وإنما يعيش حياةً شعبيةً صرفاً. وهو بما له من نشاط إبداعي خلاق يخلق الكلمة المعبرة التي سرعان ما تلقى هوىً بين أفراد الشعب جميعه، إذ تكمن فيها روحه وتجاربه ومشكلاته" @نبيلة إبراهيم (أشكال التعبير في الأدب الشعبي).

تَحِيَّة

(يا بنتَ الاجوادِ يا مَنْ عِشْتَ في القِمةِ
يا رمزَ الامجادِ في الإخلاص والحكمةِ
العلمُ يزدادُ بالإتقانِ في الكلمةِ

والفضلُ ينقادُ مِن ذمّةٍ إلى ذمّةٍ
الخير ألوانٌ وأنواعُ الأدبِ أجناسُ
واخترتِ عنوانُ غدا للمجتهدِ مقياسُ
ما خابَ إنسانٌ سعى بالتّور بينَ الناسِ
يا ذاتُ الأعيادِ وذاتُ العلمِ والهمة).





(17) الأستاذ الدكتور عاطف جودة نصر

(ناقدُ الصوفيّة الذي لا يحبُّ الأضواء، وقارئُ الشّعْر بنظرية "الهرمنيوطيقا")

قد يُبهرَكَ شخصٌ ما بهيئته، وحسنِ هندامه، وجلالِ حضوره
وسَمَتِهِ الذي يُشعِرُك بالوقار، ويدعوك إلى الاحترام والإدراك بأنك أمام
شخصية وقورة ومحترمة، ولكنه إذا تحدث ربما تقلُّ تلك الدهشة، وتذكر
مقولة سقراط: "تكلم حتى أراك" أو قول الإمام علي بن أبي طالب -رضي
الله عنه- "الرجالُ صناديق مغلقة، مفاتيحها الكلام"، ولكن حين يرافق
ذلك الجلال حسن المقال، وروعة البيان حينها تدركُ بأنك تقف أمام
شخصية رصينة تحملُ علماً غزيراً، وكلما اقترن ذلك البهاء والمهابة -
وبخاصة في تخصص الأدب- بحسن الحديث وعمقه، وإتقان اللغة وإجادتها،
كان ذلك أدعى للجمال والجلال، كما أن مجلس العلم وقاعة الدرس حينها
تكون ذات جدوى، وفيها حضور حقيقي للعلم، وتقدير لمكانة العالم
والمتعلم معاً.

وحين يصحب كل ذلك طرْحٌ مختلفٌ وجديد وليس مُعاداً أو مُعاراً
أو مكروراً، ولم يسبق لك المعرفة به، ولا بموضوعه؛ حينئذٍ تُدركُ أنك
بالفعل في حضرة عالمٍ جليلٍ، ومتخصصٍ حصيفٍ، يليقُ به أن يُحاضر في
قلعةٍ علميةٍ وثقافيةٍ وأكاديميةٍ عريقة، هي معهد البحوث والدراسات
العربية، كما أنه يليق بك -أيضاً- أن تتلمذ على يده في مرحلة دراسية
جديدة، كُلُّ ما فيها يدعو إلى القراءة، والجِدِّ، والبحث في زوايا العلم
الواسعة، ولو كانت تلك الزوايا في إطار التخصص الواحد، ولكنه يظهر لك

في الوقت ذاته، وَيَبِينُ مقدار جهلك بالعلوم المتعددة، وتتمثل على الفور قول أبي نواس:

"فقل لمن يدعي في العلم فلسفة.. حَفِظْتَ شيئاً وغابت عنك أشياء".

حديثنا اليوم عن أستاذنا الدكتور عاطف جودة جاد نصر (1938-

2015م) رحمه الله وغفر له.

أستاذٌ جليلٌ، وعالمٌ وقورٌ، وباحثٌ مُجيدٌ على قلة كُتبه وآثاره المطبوعة لكنها ذات تأثير كبير في الدرس النقدي والأدبي، وفي الدراسات الأكاديمية على وجه الخصوص، تُعدُّ كُتبه مراجع لا غنى للباحثين عنها، وسنعرض لها بعد قليل.

وقبل ذلك أحديثكم عن أوّل لقاء لي به في مقرر (الشعر العربي الحديث) حيث حضر إلى قاعة الدرس بالمعهد أستاذٌ مهيبٌ يرتدي "بدلة" رسمية في منتهى القيافة والأناقة والتناسق والשיاقة، ويوجد على (الصديري) الذي من لون البدلة وتفصيلها سلسلة مربوط في نهايتها ساعة تذكرك بساعات "البشوات" -جمع باشا-، وما كنّا نشاهده في المسلسلات المصرية القديمة. ثم يبدأ حديثه عمّا سنأخذه في دراستنا معه عن الشعر العربي، ويتحدّث بمصطلحات لأول مرة تفرع مسامي من مثل: الأنطولوجيا، والفينومينولوجيا، والهرمينوطيقا، والسيميولوجيا، ونظرية التأويل، والتفسير، وكمية من المصطلحات الجديدة، وبعض الأسماء الشعرية الغربية وغيرها، ولولا أنني أدرك أنّ الرجل يحدثنا عن

الشعر والأدب العربي، وأن زملاء الدفعة من الطلاب العرب واليمنيين معي في القاعة نفسها لظننتُ أنني في قاعة أخرى أو لدى أستاذ متخصص في مجال آخر.

انتهت المحاضرة الأولى وأحالنا الأستاذ -بطلبٍ من الزملاء كالعادة- إلى كتابه الذي يحمل عنوان "النص الشعري ومشكلات التفسير"، وبعدها خرجتُ مع زميلٍ مصري أزهرى التكوين والدراسة، كان يعرف دار النشر التي أحالنا إليها الدكتور، وهي الشركة المصرية العالمية للنشر - مكتبة لبنان ناشرون التي يقع أحد منافذ البيع منها في وسط البلد، فذهبنا لنشتري منها الكتاب المقرر، وفي الطريق لم يكتفِ الزميل امتعاضه من تلك المصطلحات وصعوبة نطقها فضلاً عن معناها، ولكنه كان متخوفاً أكثر مما يجب، وتجادبنا في الطريق أطراف الحديث والتعارف الذي كان ثمرةً للقاءات أخرى وتواصلٍ مستمرٍ عبر التلفون حتى بعد أن انتقلتُ إلى جامعة القاهرة فيما بعد دراستي في المعهد، وقد حضر مناقشتي للماجستير، ولكنه للأسف ربما لم يكمل دراسته وتوقف بعدها لظروفه الخاصة.

قرأنا الكتاب وحضرنا مع أستاذنا المحاضرات المتتابعة التي كانت مفيدةً للغاية، وأدركنا ما يحتويه ذلك الكتاب القيم من قضايا على قدر كبير من الأهمية، فبمجرد تجاوز إشكالية المصطلح ومعرفة مفهومه، يتضح بعد ذلك عمق القراءة، وتمكَّن أستاذنا من تحليل النصوص الشعرية القديمة والمترجمة في ذلك الكتاب الذي يطرح مشكلات التأويل في الثقافة

العربية والغربية، ويتابع تجلياتها في توثيق النصوص، وفي مشكلة اللفظ والمعنى، وفي مناقشة نظرية التَّظْم عند عبد القاهر الجرجاني والدائرة الهرمنيوطيقية، ويعالج مناحي التأويل المختلفة من خلال نصوص شعرية، قديمة وحديثة اختارها بعناية للكشف عن تعدد المعاني والرؤى في مساقات التأويل.

ومن أهم ما في ذلك الكتاب هو أننا أدركنا معنى (الهرمنيوطيقا) التي تدلّ -فيما تدل من معانيها- على (نظرية التأويل) وعمليات الفهم، ولهذا تركز (الهرمنيوطيقا) على فهم الفهم، ثم عرضها ذلك الكتاب عرضاً تأصيلياً ابتداءً من أفلاطون ووقفاً عند أهم المنظرين والنقاد القدامى والمعاصرين وصولاً إلى (جادامر).

وأصل المصطلح ذي الفعل اليوناني "Hermeneuein" ويعني الفعل "يُفسَّر"، وكيف أن الفعل والأصل يتعلقان بـ"هرمس" وهو رسول آلهة الأولمب الرشيقي الخُطى الذي كان -بحكم وظيفته- يتقن لغة الآلهة، ويفهم ما يحول بخاطرها، ثم يترجم مقاصدها، وينقلها للبشر، ويظهر ذلك لدى من اطلع على الإلياذة والأوديسة أن "هرمس" كان ينقل الرسائل من "زيوس" -كبير الآلهة- إلى كل من عداه وبخاصة من جنس الآلهات الأخرى، وينزل بها إلى مستوى البشر، وهو بذلك يعبر المسافة الشاسعة بين تفكير الآلهة وتفكير البشر، بحسب زعمهم، هذا الكلام لم يكن يُعجب صديقي الأزهري بالطبع، وكذلك تبدو علامات التعجب على بقية الزملاء

في القاعة، ولكن حين يتجاوز أستاذنا ذلك التأصيل ويقترب من مفهوم التفسير الذي ارتضاه في عنوان كتابه لقربه من ثقافتنا العربية ودلالات التفسير المتعددة فيها، حينها يتضح التحليل لنا جميعاً، ويدخل في معنى (الشرح)، وهو الاتجاه الثاني لمعنى التأويل في الاستخدام القديم ومعناه (أن تشرح) وهو اتجاه يؤكد البعد التفسيري للفهم، وليس مجرد التعبير، لأن الكلمات بعد كل شيء لا تقول ما تقوله فحسب، بل تفسره، وتشرحه، وتوضحه. فقد يعبر الإنسان عن موقف ما دون شرح. وهنا يكون التعبير في ذاته شكلاً من أشكال التفسير والتأويل.

وتمضي بنا المحاضرات في (نظرية التأويل) وفي اختيار أستاذنا لنصوص من الشعر العربي يقوم ببيان إشكالات التفسير فيها من وجهة نظر عربية، وفي ذلك محاولة لتجديد قراءة شعرنا العربي وفق المناهج الحديثة والنظريات الأدبية المعاصرة. والكتاب مفيد في تلك القراءات، وفيه عمق فلسفي ربما يحتاجه المتخصص المتمكن أكثر من طالب مرحلة الماجستير المبتدئ، ولكنها همم العلماء من أستاذتنا الذين كانوا يخلقون بنا عالماً لأنهم لا يتنازلون عن المستوى العلمي الذي وصلوا إليه، بل يستثيرون همم طلابهم في التطلع لفهم عميق، وهم يحسنون الظن في طلابهم، ولهذا كنا نجهد كثيراً في الفهم، ولكن -والحق يقال- بأن ذلك الجهد، وتلك الصعوبة هي ما تبقي في الذاكرة، وما خلد في الأعماق لأنه لا يبقى إلا ما صاحبه الألم، وما خالطه التحدي والإصرار، وتلك طبيعة العقل الذي لا

يرضى من الأمور إلا بأعلاها، وإن أوهمك أنه يخلد للسُّهْل أو يستكين للمعلوم، ولكنَّ حقيقته أنه يطمح للمجهول، ويأنس به ويؤنسُهُ أكثر من المألوف المعروف. فجزى الله أساتذتنا خير الجزاء بما قدموه لنا، وما حرصوا على تنويعه من المعارف والأفكار والاجتهادات التي هي جزء من حياتهم وتكوينهم الثقافي والمعرفي، واشتغالهم العلمي، ومن هنا كان ممَّا يحمّد لمعهد البحوث والدراسات العربية ومنهجهُ أن كلَّ أستاذ يقرّر كتابه ويعطي من علمه وبذلك تتعدد المدارس وتتنوع المعارف بحسب تنوع أساتذتها، ولكل شيخ طريقته - كما يقال - ولهذا لم نجد تكراراً فيما تعلمناه، بل تعدّدت المشارب والطرّاق بتنوع أساتذتنا الأجلاء وتعدّدهم.

بعد أن انتهيتُ من مرحلة الدبلوم والدراسة في المعهد بقي في خاطري واهتمامي أن أطلع على كُتُبِ أستاذنا الدكتور عاطف جودة نصر اطلاقاً خارج المقرر، فقرأتُ في كتابه المرجعي المهم (الخيال: مفهوماته ووظائفه) وهو من أهم الكتب في بابهِ وأكثرها إتقاناً وتجويداً لأنه عمّقها بالجانب الفلسفي من ناحية، وبالبلاغة والنقد وقواعدهما من ناحية أخرى، ودرس الخيال عند علماء الفلسفة وعلماء النفس، حيثُ درس الخيال والإدراك، وعلاقة الخيال بالذاكرة والوهم، ثم أفرد باباً للمقارنة بين الإشرافية والعرفانية الصوفيّة، موضحاً كيف كان أصحابها يهتمون بالخيال، ورصد كيف انتقل هذا الاهتمام إلى مباحث البلاغة والنقد في التراث العربي، وما ينطوي عليه الخيال من طاقات الإبداع، وما يتعرض له

من التركيب الجدلي للظاهرة، ولمفهومها عند الصوفيين من حيث اتصال الخيال بالوحي وتعبير الرؤى، ثم وقف في الختام عند المشكلات البلاغية والنقدية فيما يتعلق بالخيال ونظرية المحاكاة الأرسطية في تراث الفلسفة الإسلامية، ونظرية الخيال في تراث الدراسات البلاغية والنقدية، والخيال الرومانتيكي بين النظرية والتطبيق، وختم كتابه بالحديث عن الخيال الإبداعي والصورة الشعرية.

نلاحظ اهتمام أستاذنا بالفلسفة وبالجانب الصوفي في أغلب كتبه وأبحاثه التي منها مثلاً: "شرح مشكلات الفتوحات المكية"، و"أدب السلوك الصوفي في خطاب أبي مسلم الشعري" الذي شارك به في (ندوة الخطاب الديني في شعر أبي مسلم البهلاني الرواحي) في سلطنة عمان في 6 يناير 2003م، أو حتى في كُتبه الأخرى مثل كتاب "أصوات من التراث" الصادر عن دار الكتب والوثائق القومية، 1998م، وربما يرجع سبب ما كنّا نجده لديه -رحمه الله- من عمق في كتاباته وحديثه؛ قد يصل بنا إلى حد الصعوبة في الفهم أحياناً؛ يرجع ذلك إلى تكوينه الفلسفي والثقافي المتصل بالترجمات من ناحية، وكذلك يحيل على تخصّصه في مرحلتي الماجستير والدكتوراه من ناحية مقابلة؛ وهما بلا شك من أهم مراحل التكوين العلمي في حياة كلّ باحث؛ حيث جاء ذلك التكوين وتلك الدراسات مرتبطة بعوالم الصوفية ودراسات التصوّف بمعناها الفلسفي الموغل في التخصصيّة؛ حيث كانت رسالته في الدكتوراه التي نشرها في كتابه (الرمز

الشَّعري عند الصُّوفية)؛ وقد حصل بها على مرتبة الشرف الأولى في قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب، جامعة عين شمس عام 1977م؛ وطبع الكتاب في العام التالي عن دار الأندلس ببيروت.

وهو من الكتب الرصينة والمرجعية في دراسة الرمز بشكل عام وفي دراسة شعر الصوفية بشكل خاص، راصدًا الظاهرة من خلال أولئك الشعراء الذين اتخذوا الرمز علما مَوَّارًا في أغراضهم ولغتهم على حدٍّ سواء بما حملوه من دلالات لا تنتهي إلا لتبدأ على معاني مختلفة ومتوالدة وجديدة، ومن هذا الباب كان كتابه محاولة علمية رصينة تناول في الباب الأول مستويات الرمز، في ثلاثة فصول هي: الرمز الأسطوري، ورمزية اللغة، والرمز الشعري، وفي الباب الثاني تحدث عن الرموز الشعرية التي انتظمت في رمز المرأة، ورمز الطبيعة، ورمز الخمر، وكان الباب الثالث تنمة للرموز التي تمثَّلت في رموز الأعداد والحروف، والرموز المسيحية مبيِّنًا موقف العرفانية من اللاهوت المسيحي، وقد أكَّـد على أنَّ رمزية الشعر الصوفي ذات طابع عرفاني، وهي من هذه الوجهة رمزية عرفانية لا يتأتَّى معها عزل التعبير الشعري عن مقوِّمات التجربة الصوفية، لأنهما في نهاية الأمر يحيلان على تضاييف بين البناء الشعري في رمزيته الوقائية، وبين التَّصوُّف بوصفه علاقة دينامية حيَّة بين الإلهي والإنساني.

وكانت تلك الرسالة امتدادًا لانشغال أستاذنا بموضوع الشَّعر الصوفي من خلال كتابه المهم الذي نشره بعنوان (شعر عُمر بن الفارض؛

دراسة في فنّ الشعر الصوفي) وهو في أصله رسالة الماجستير التي كانت موسومة بـ(الخصائص الفنية والصوفية في شعر ابن الفارض)، وقد دافع عنها عام 1972م في جامعة عين شمس، في قسم اللغة العربية وآدابها القسم الذي أصبح بعد سنوات رئيساً له، وفي كتابه المذكور هذا يؤكد على ثنائية الخصومة والجدل في شخصية ابن الفارض نفسه الذي بدا واضحاً في شعره، حين يقرّر أنه لا تفتأ الخصومة التي تثيرها الشخصية، والجدل الذي تنمّيه بضروب نشاطها دليلاً على تناميها ونُضجها. وهكذا كان الجدل الذي أثاره شعر (ابن الفارض) دليلاً على نمو شخصيته وامتدادها في صميم الروح الإسلامية. وشعر ابن الفارض الذي تناوله الكتاب جاء نتاجاً مكتمل التكوين من الناحيتين الفنية والصوفية حتى لقد عدّه بعض الدارسين أستاذ الفن الصوفي في الشعر العربي.

"قلبي يُحدّثني بأنّك مُتلفي.. رُوحِي فداك عرفت أم لم تعرف
لم أقضِ حقَّ هَواكَ إن كُنْتُ الذي.. لم أقضِ فيه أَسَى، ومِثْلِي مَنْ يَفِي
ما لي سِوى رُوحِي، وباذِلْ نَفْسِي.. في حَبِّ مَنْ يَهوَاهُ لَيْسَ بِمُسْرِفٍ
فَلَنْ رَضِيَتْ بِهَا، فَقَدْ أَسْعَفْتَنِي.. يا خِيبَةَ المَسْعَى إِذَا لَمْ تُسْعِفِ..."

نُرى هل تخصص أستاذنا في الصوفية وعوالمها؛ على الرغم من حاله الظاهرة بعدم التصوف -بلا شك-، هل تراها كانت سبباً في ذلك العُزوف عن المناصب، وعن الظهور الإعلامي الذي كان يتمتع به أستاذة آخرون، بل ويسعون إليه سعياً؛ وهم ربما لم يكونوا أكثر منه معرفةً، ولكنهم أكثر

منه قدرةً على تسويق أنفسهم، وعلى الحضور الإعلامي الذي ساعدهم على الانتشار والظهور بشكلٍ لافتٍ، وغاب هو بشكل واضح، وهذا يقودنا إلى سؤال مهم ربما ينسحبُ على الكثير من علمائنا وأساتذتنا على امتداد الوطن العربي، وعلى اليمن بشكل خاص، هل الإخلاص للبحث والتركيز على العلم وحده لا يُعطي العالم حقَّه من الظهور الذي يناله من هم أقلُّ علمًا، ومعرفةً واجتهادًا؟، وهل يؤثر التخصص تأثيرًا لا شعوريًا في وجدان صاحبه حتى وإن اقترب منه لأغراض علمية محضة؟.

ربما يكون كذلك، ولكن أستاذنا عاطف جودة نصر كان أستاذًا وعالمًا بكل ما تعنيه الكلمة، كما أنَّه كان كاتبًا قديرًا، وشاعرًا، وباحثًا مدققًا لا يسع من يقرأ كتبه إلا أن يحمّد له تلك الروح العلمية الرصينة، وذلك الأسلوب المتمكّن، والجهد الأكاديمي الذي يشكّل علامة واضحة وفارقة تدلُّ على جيلٍ من العلماء كان من التّمكّن بمكان، ومن الأستاذية بمكانة.

* (فصلُ الخطاب) *

"تعدُّ الصورةُ في الشّعْرِ تحقّقًا جوهريًا للخيال وهو يمارس إبداعه في حرية منعزلة عن مقولات العلل الكافية، ولن ينجو قُرّاء الشعر من سوء الفهم وسطحية التلقي ما لم يضعوا في الاعتبار أن الصورة ليست كما تظن

الفلسفة الماديّة نسخةً يتدهور فيها الأصل المدرك ويتحلل، وأنها ليست بالنسبة للواقع الخارجي كياناً سلبياً لاحقاً، أو مجرد انطباعات تفسر بالإحالة على ترابطية ساذجة، وذلك أن الصورة الشعرية لا تُردُّ إلى معيار خارجي ثابت، وإنما تتأمل بنوع من المباطنة، لأنها ذات كيان نفسي يفتح صوب الوجود...@د.عاطف جودة نصر (كتاب الخيال: مفهوماته ووظائفه).

تَحِيَّة

(مَعَ الْعِلْمِ لَا شَيْءٌ سِوَاهُ يُصَاحِبُهُ
وَلَا شَيْءٌ يَهْدِيهِ إِذَا ضَلَّ صَاحِبُهُ
وَكَمْ يَرْفَعُ الْعِلْمُ الْمُنِيرُ مَقَاصِدًا
سَمَتْ فِي خُطَى الْإِخْلَاصِ نُورًا يَقَارِبُهُ
وَكَمْ يَطْرُدُ الْعِلْمُ التَّقْيُّ شَوَائِبًا
عَنِ النَّفْسِ تَصْفُو فِي الْمَعَالِي مَشَارِبُهُ
وَقَدْ يَرْهَدُ الْإِنْسَانُ عَنْ كُلِّ غَايَةٍ
سِوَى الْعِلْمِ تَعْلُو فِي النَفُوسِ مَآرِبُهُ
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي طَالِبِ الْعِلْمِ رَغْبَةٌ
فِيَا حَسْرَةً الْمَسْعَى إِذَا خَابَ طَالِبُهُ)



(18) الدكتور عبد الوهاب راوح

(اللغويُّ ذو الوزارات.. والمهتمُ بالشَّبابِ وتنظيمِ البعثات)

عالمٌ وقورٌ وأستاذٌ أكاديميٌ قديرٌ، تستطيعُ أن تعدَّ كلامه عَدًّا أو تكتب كلماته أثناء الشرح، وتتابع حديثه دون أن يتعبك في سرعته أو يصيبك بالملل في تأخره، كأنه في رزاقته، وهو يحاضرنا، قادمٌ من عالم اللغويين الكبار أمثال أبي عمر بن العلاء، وعنبسة الفيل، ويحيى بن يعمر، وعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي وغيرهم، ولكنَّه بعد أن أخذَ عنهم رصانة اللغة وجودتها، وحرصَ المنهج ودقته قد مرَّ بعالم اللسانيات الحديثة "دي سوسير" وأخذَ عنه علمَ اللغة العام، فأتى يحدثنا بصوته الهادئ، ونبرته المميَّزة عن السِّياق (Context)، والأصوات (Phonetic)، والوحدات الصَّوتية الفونيم (Phoneme)، والمورفيم (Morpheme)، والفروق بينهما، والمعاني الدلالية للألفاظ، (Semantics)، وغيرها من المصطلحات والمفاهيم اللسانية الحديثة.

ثم شرعَ يحدثنا كيفَ عالجت اللسانيات اللغةَ ووصفتها في ذاتها ومن أجل ذاتها؟ وما طموح علم السيميولوجيا؟ أو علم اللسانيات الاجتماعية الذي أراد أن يكون لغة الحياة الاجتماعية القادمة، كما تنبأَ بذلك "دي سوسير"، وما تزال محاضرات أستاذنا راوح المخطوطة التي منها مثلاً المحاضرة الخامسة والمؤرخة بيوم السبت 11/4/1992م بعنوان "السيميولوجيا/السيميوطيقا الحقل العلمي الذي تنتمي إليه الألسنية" ضمنَ أوراقٍ التي أعتزُّ بها، وبالحفاظ عليها.

أتذكّر ذلك الأستاذ الآن بعد مرور أكثر من ربع قرن، وهو جالس على الكرسي من أول المحاضرة حتى نهايتها يضع يده على خده أحياناً، وهو يتأمل ما يقول، ويشرح درسه في وقار وعطاء، كان جاداً الملامح، رزين السمّت، تخالط وجهه مسحة ابتسامة خفيفة هي إلى الجِدِّ أقرب منها إلى الضحك الذي لا أتذكر أنه ضحك يوماً أو تبسم بسمّة حقيقية في محاضرة إلا "إن كان قد تبسم ذات محاضرة كنت فيها غائباً؛ مع أنني لم أغب يوماً" على حدّ تعبير زميلي وصديقي الأستاذ علي القادري.

الحديث اليوم عن أستاذنا الوزير واللغوي التّحرير الذي شغلته الوزارة عن الإشارة، وأخذته الإدارة عن العبارة، وعن الدّرس الأكاديمي الذي خُلِقَ له، وسَيَّرَ إليه مجدارة، ولكنّه -وهو المخلص- قد أخلص للعمل الإداري حتى أثّر ذلك على العمل الأكاديمي والعطاء البحثي والكتابي، فيما يبدو.

إنّه الأستاذ الدكتور عبد الوهاب راوح السياسي والأكاديمي اليمني المعروف، وابن قرية العدوف، مديرية صَبِرِ المoadم، محافظة تعز، والمولود فيها عام 1952م.

باحثٌ متخصصٌ في علوم اللغة العربية، وبالتحديد في (اللسانيات الحديثة)، نال درجة الليسانس بامتياز من كلية الآداب - جامعة صنعاء عام 1977م، ثم عيّن مُعيداً في الكلية نفسها، قبل أن يوفد للدراسات العليا في جمهورية مصر العربية، فالتحق بكلية الآداب، جامعة عين شمس، ونال

منها درجة الماجستير في الدراسات اللغوية عام 1981م، ثم الدكتوراه في اللسانيات عام 1986م. وشغل خلال عمله في جامعة صنعاء عدّة مناصب أكاديمية، بدءًا بوكيل كلية الآداب، فوكيلًا لعمادة الدراسات العليا والبحث العلمي بالجامعة، فعميدًا لمركز اللغات، إلى أن رُقّي إلى درجة أستاذ مشارك عام 1993م.

حين كان وكيلًا لكلية الآداب جامعة صنعاء في العام 1992م كان يُدرّس لنا مقررَ (علم اللغة)، وكَم استفدنا منه ومن محاضراته التي كان يكتبها بخطّ يده، وما تزال محفوظةً بين أيدينا حتى اليوم كعلامةٍ مضيئةٍ في سيرة الأستاذ الجامعي المهتم بما يقدّم لطلابه، وبما يعطيهم من خلاصة علمه وفكره، لم يعتمد على تصوير المذكرات، ولم يحلنا إلى كتاب جاهز، بل كان يكتبُ المحاضرة بيده في صفحات تكون ما بين (3-5) صفحات تقريبًا، وبعد المحاضرة يضعها في مكان معلوم ومكتبة معلومة هي "مكتبة الشروق" خارج سور الجامعة في كلية الآداب جامعة صنعاء، فنذهب لتصويرها وقراءتها والاستفادة منها، وهكذا كانت عادته.

وكذلك كان أسلوبُه في مقرر آخر درسناه لديه هو (مصادر أدبية ولغوية)؛ حيث كان يتّبع الطريقة نفسها على الرغم من وجود كُتبٍ مؤلّفةٍ في هذا المجال من أشهرها كتاب د. عز الدين إسماعيل "المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي" الذي كان موجودًا ضمن الكتب المتوفرة وبأعداد كبيرة في مكتبة كلية الآداب والمكتبة المركزية - كما أذكّر - وغيره من

كتب من الأساتذة الجامعيين عن تلك المصادر الأدبية واللغوية لكونها من المقررات الأساسية في جميع الجامعات العربية تقريباً لكنه لم يخلنا إليها، بل كان يكتبها بيده وما تزال محاضراته التي خطّها عن تلك الكتب ومن المصادر والمراجع موجودة لدينا في مذكرة مصوّرة، وكانت تلك المذكرة مقسّمة بحسب الموضوعات، ومنها مثلاً: في المحاضرة الأولى حديثٌ عن (حركة التدوين في الحضارة العربية والإسلامية في فجرها الأول).

ثم يتحدّث في محاضراته عن كتب اللغة مثل: "المخصص، والمحكم والمحيط الأعظم" لابن سيده الأندلسي، و"تهذيب اللغة" لأبي منصور الأزهري، و"تاج اللغة وصحاح العربية" لأبي نصر الجوهري، و"لسان العرب" لابن منظور، و"القاموس المحيط" للفيروز آبادي، وغيرها، فيحدّد مناهج تلك الكتب، وتقسيماتها، ومكانتها، وتيسير البحث عن المواد اللغوية فيها، وهكذا يمضي في شرح كُبريات المصادر اللغوية، ثم ينتقل إلى الأدبية، ومنها مثلاً: "كتاب الدّخيرة في محاسن أهل الجزيرة" لابن بسّام، وغيره، ثم يتحدّث عن كتب التراجم والسّير مثل (طبقات فحول الشعراء) لابن سلام الجمحي، وتأتي المحاضرات بعد ذلك عن المصادر الجغرافية وكتب الرحلات مبيّنة العوامل التي دفعت العرب إلى التأمّلات، والملاحظات الجغرافية.

ويمضي في طرح أهمّ الأمّات من كتبها أمثال كتاب "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" للمقدسي، وغيرها، ولا تخلو تلك المحاضرات

من الحديث عن (محاولة مجمع اللغة العربية بالقاهرة في تأليف معجمي قومي للغة العربية)، ويقول ضمن تلك المحاضرة "ولما يئس المجمع من إكمال مشروع (فيشر: August Fischer) أخذ في تأليف معجم آخر أطلق عليه اسم (المعجم الكبير) الذي نشر منه عام 1956م جزأين في نحو (500) صفحة، ومن أهم ما جاء في هذا المعجم هو تصوّره الذي جاء مغايرًا تمامًا للتصوّر التقليدي حول (الضوابط) العامة التي تحكم سياسة هذا الفن...".

ولم تغفل تلك المحاضرات الحديث عن مدونات الحماسة كحماسة أبي تمام، وحماسة ابن الشجري وغيرهما، وكذلك الحديث عن كتب الثقافة العامة كما سماها مثل: "البيان والتبيين، والحيوان" للجاحظ وغيرهما، وجميع تلك المحاضرات عن أمّات المصادر اللغوية والأدبية والثقافية، قد جاءت ملخّصةً ومعرضةً بمنهجية واضحة انتهجها أستاذنا في التعريف بالكتاب وبكاتبه وبمكائنتهما في عالم اللغة أو الأدب أو الثقافة، وكما وصف منهجية الكاتب وطريقته، وأهمية الكتاب وفائدته، وأثره بوصفه مصدرًا من المصادر الرئيسة في التراث العربي الكبير، وكأنّ تلك المذكرة كانت مشروعًا لكتاب بدأه أستاذنا بالمحاضرات لتنتهي به بعد التجويد والتمحيص والاختبار لدفعات من الطلاب المتعاقبة على دراسة المقرر إلى أن يصبح كتابًا مطبوعًا فيما بعد، مثله مثل محاضرات علم اللغة وملخصاتها المفيدة التي كان يكتبها بيده - كما أشرنا - لتكون ذات

خلاصة مهمة تُقدّم للطلاب للدراسة بشكلٍ فيه روح المنهج وأسلوب الأستاذ وطريقته، وخبرته وخلاصات قراءاته ومعرفته، وبخاصّة أنّه يتحدث عن علم اللغة الحديث والدراسات اللسانية وفق أحدث ما وصلت إليه، وفي وقتٍ مبكرٍ نوعًا ما في جامعة صنعاء، ولكن يبدو أنّ انشغالاته بعد ذلك واستغراقه في العمل الإداري، والشأن الوزاري قد صرّفه عن استكمال مشاريعه التأليفية والبحثية.

كانت لأستاذنا طريقته الخاصّة في المحاضرة وفي كتابتها، كما كانت له مهابته، وكان ذا "كاريزما" ملفتة في سَمَتٍ وعِلْمٍ، ورزانة وثبات، كما أنّ له عباراته التي وقرت في القلب بعد أن أطلقها في كلمات موجزة سهلة، وكأنّها أحكام نهائية دالّة على خلاصة من القراءة، وعلى مستخلص من التدريس والبحث، أذكر من تلك العبارات على سبيل المثال قوله: "إنّ الدرس النحوي والتأليف فيه كان مشروعًا أكملته مدرستا البصرة والكوفة، ثم ما تبعهما من مدارس أخرى بغدادية، ومصرية، وانتهت أندلسية بآبن مالك صاحب الألفية كتتويج للمشروع، ثم ما جاء بعد ذلك كلّهُ كان صيانةً لذلك المشروع وتوصيفًا له، ودخل في ثنائية (المتن والشرح) التي ربما عَطَلَت الدرس النحوي لقرون طويلة، وما زالت".

ومن أقواله المنحوتة في العقل أيضًا قوله في إحدى المحاضرات في مقرر (علم اللغة)، وهو يحدثنا عن جهود "دي سوسير" وعوالم اللغة الحديثة واللسانيات المعاصرة: "إنّ الدرس الأكاديمي العربي اللغوي منه

والنقدي اليوم يعيش على مائتين: مائة التراث، ومائة الغرب، ولم يستطع أن يخرج بمائدته الخاصة والمعاصرة حتى الآن".

وغيرها من المقولات المركزة والخلاصات الدالة التي كانت تصادف من طلابه المتعطشين للعلم عقولاً صافية وقلوباً خالية، فتمكّن منها، وترسم ملامحها، وتخطّ قناعاتها بحكمة عارف، ورزانة عالم.

شَغَلَ أستاذنا الدكتور عبد الوهاب راوح مناصب عدّة، وكان ذلك بعد تخرّج في الجامعة بعام، وعمره في ذلك التاريخ (42) عاماً تقريباً، وهو في قَمّة العطاء الفكري والعلمي، وفي عمر الشباب الفتي؛ حيث عُيّن وزيراً للشباب والرياضة في أكتوبر 1994م، واستمر فيها حتى 2001م، ثم عُيّن وزيراً للخدمة المدنية والتأمينات من عام 2001م حتى عام 2003م، ثم شَغَلَ منصب وزير التعليم العالي والبحث العلمي من عام 2003 حتى عام 2006م. وفي ذلك العام عُيّن رئيساً لجامعة عدن، وفيه انتخب رئيساً لنادي التّلال في عدن، وهو أحد أشهر الأندية الرياضية في الجمهورية اليمنية، بل إنه النادي الأقدم تأسيساً على مستوى الجزيرة والخليج، حيث كان تأسيسه عام 1905م. وفي يوم 15 يونيو 2008 عُيّن عضواً في مجلس الشورى، واستمرّ فيه حتى الآن.

أَخَذَتْهُ تلك الوزارات وعوالم المناصب واستنفدت جهده ووقته؛ وذلك أمرٌ طبيعي؛ ولعلّه ابتعد بسببها عن طلابه، وعن قاعات الدرس، وعوالم الكتاب كثيراً، وفيما يبدو أنّ مشاريعه البحثية وكتبه قد أُجّلت إلى

أجلٍ غير مستى، وما كان أحوجُهُ إلى التأليف، وهو الأبقى، وكَم كُنَّا نتوقُّ إلى أن نقرأ لأستاذنا صاحب العبارة المكثفة والفكرة الصافية والمنهج المنضبط كتبًا غير أبحاثه المتفرقة هنا وهناك لغرض الترقية ونحوها.

ومن ذلك الابتعاد أننا ما كنَّا نراه إلا لما قد يحضرُ مناقشةً علميةً ما، يكون أحد أعضائها أو مشرفًا على طالب فيها أو طالبة، وما تكاد تنتهي تلك المناقشة أو الفعالية حتَّى يغادر المكان محفوفًا بالجنود من كلِّ مكان ومحاطًا بالسرعة، وكأنهم يختطفونه اختطافًا، فيغادر المكان سرعًا. وحتى حين أصبحت أستاذًا في جامعة صنعاء لم أستطع أن ألتقي بأستاذي أو أسلم عليه إلا ذات مرة وبالصدفة، وأنا في مكتب صديقي وزميل دُفعتي الدكتور حسين الزراعي الذي كان قد أصبح رئيسًا لقسم اللغة العربية وآدابها في كلية الآداب التي تخرجنا فيها معًا؛ حين قَدِمَ أستاذنا عبد الوهاب راوح لأمرٍ ما يتعلَّق بتوقيع رسالة أو شيء من هذا القبيل، فما كاد يسلم حتَّى ودَّع، وربما أنَّه لم يتذكَّر أحدًا منا.

وهنا يمكنُ أن نشير إلى قضية مهمة في علاقة الأستاذ الجامعي بالقاعة، وبالكتاب، وبالعمل الإداري أو بالوزارات التي قد يُعيَّن فيها، وهي قضية على غاية من الخطورة والحساسية لا يكادُ يفلتُ منها أستاذ إلا من رحم ربك، وذلك أنها تأخذه من جامعته، وتبعده عن عالمه الخاص الذي من أجله دَرَسَ، وتخرَّجَ، وحَقَّق ذاته بيده وب عقله وبفكره وبجهده، وبين

القرار السياسي الذي يُعيّنه بأمرٍ رئاسيّ أو ملكي أو نحوهما، وقد يعزله بالأمر أو القرار ذاته ولو بعد حين.

ولعلّ من أساتذة الجامعة ومن النماذج التي وجدتها مختلفةً عن هذا السياق الغالب، والقاعدة العامّة، واستطاعت الموازنة بين الأمرين - والشّيء بالشّيء يذكر - هو نموذجٌ مصريّ حيويّ حَضَرَتْ إحدى مناقشاته للدكتوراه وأنا طالب في جامعة القاهرة، ذلك هو الأستاذ الدكتور "أحمد فتحي سرور" الذي شغل منصب رئيس مجلس الشعب المصري لمدة (21) عامًا، وفي تلك الجلسة العلمية أدهشتني قدرته على المناقشة بعلميّة ومنهجية فاقت من هو متفرّغٌ للجامعة فقط من لجنة التحكيم بجواره، كما أدهشني وهو يناقش موضوع تلك الرسالة التي كانت في عام 2008 عن موضوع الإرهاب أنّ الباحث قد أشار إلى مرجع مُهم واعتمد عليه من تأليف الدكتور سرور نفسه بعنوان (المواجهة القانونية للإرهاب)، وهو صادر في العام نفسه 2008م نشرته مكتبة الإسكندرية، كما أن لديه أكثر من (18) كتابًا في تخصّصه في القانون الجنائي منذ أن ناقش رسالته للدكتوراه في جامعة القاهرة عام 1959م، ولم يتوقّف عن التأليف، كما أنّه لم يبتعد عن التدريس، ولم يترك محاضراته الأسبوعية في قاعة التدريس في الجامعة على الرغم من مناصبه المهمّة، ومشاغله الجسيمة.

ولعلّ في ذلك درسًا مهمًّا نتعلّمه، وقد فطِنَ له الرجل، وهو أنّه ما ترك القاعة، ولم يبتعد عن الطالب؛ ولذا استمرّ في التأليف والتجدّد

والعطاء، وذلك لأنَّ رسالته هي فيما يجدُ نفسه فيه، وقد بذلَ في تلك الدرجة وفي الحصول عليها جهده، وحقَّق بها مكانته العلمية التي نالها بجهده وبغرق عقله، ولم تأتِ إليه بقرارٍ سياسيٍّ جاء ذات صباح، ويمكن أن يذهب أيضًا ذات مساء بقرار عزل. ومن هنا فهو حريصٌ -وأمثالُه- على القاعة والجدول والطالب لأنها الأبقى والأقرب إلى نفسه، ولأنَّه المنصب الذي لا يمكن لأحدٍ أن يعزله منه، كما لا يستطيع أحد مهما علا شأنه أن يمنحه إياه إلا بحقِّه من البحث والكتابة والعلم الذي يأتي على جسرٍ من التَّعب.

تعلَّمتنا من أستاذنا الدكتور عبد الوهاب راوح أنَّ الوزير الأكاديمي تحديدًا يجب أن يترك شيئًا استراتيجيًا ذا بالٍ يُحسبُ له، ويكون ضمن إنجازاته الفارقة والمتميزة، وقد فعل، لأنَّه بوعيه الفكري وبُعد نظره الأكاديمي والعلمي يدرك أهميَّة وضع مثل تلك الآفاق والاستراتيجيات بعيدة المدى، ومن هنا يُحسب له خلال قيادته لوزارة الشباب والرياضة أنَّه أسَّس (صندوق رعاية النشء والشباب)، وهو الصندوق الذي قدَّم الكثير من المشاريع الوطنية المهمة، ومن أبرزها جائزة رئيس الجمهورية للشباب التي اكتشفت المواهب، وكشَّفت عن قدرات الشباب في عموم اليمن، وشجَّعتهم وكرَّمت إبداعاتهم، فأصبحوا أدباء اليوم وأديبائه، ورموز الوطن من شباب الشعراء والقاصين والفنانين التشكيليين وغيرهم من أصحاب المواهب والإبداعات في المجالات المختلفة.

كما يُحسب له أيضاً (تجويدُ نظامِ البعثات والمنح الدراسية) لخريجي الثانوية العامة، وفق المفاضلة على مستوى كلّ محافظة، ومن هنا تساوى الطلابُ في إمكانية الابتعاث، ونالوا شيئاً من حقهم في الحصول على البعثة بدون تمييزٍ أو إقصاءٍ لأحد، وذلك لأنَّ العلمَ ينتقي الأفضل، ويسعى إليه العدوُّ، وهذه رؤية أكاديميٍّ حصيف، ووزيرٍ يتوخَّى العدل والإنصاف لجميع أبناء المحافظات اليمنية من موقع مسؤوليته.

شكراً لك (أبا أيمن) أيُّها الأستاذ القدير والوزير الجدير، ورئيس جامعة عدن على جهودك التي بذلتها في كلّ المواقع الإدارية، وهي -إن شاء الله- في ميزان حسناتك وميدان أعمالك، وإن كنّا نأمل الآن في أن تفرَّغَ لكتاباتك العلمية، وتخرجها بما يليقُ بك وبها، وبالدرس العلمي والأكاديمي.

فالله الله! والبدارَ البدار! فما يزالُ في العمر بقية، وفي الوقت سعة، والله يراك!

* (فصلُ الخطاب) *

"إنَّ الجامعات اليمنية اليومَ بخير، وفي عافية، وتعمل في محيطٍ من الحرية الأكاديمية والحرية الفكرية والحرية السياسية ما يجعلها تتعامل من موقع المسؤولية ومن موقع الوظيفة التي يجب أن تتمتع بها كجامعة، ليس هناك

أي خروقات أو تدخلات في شؤون الجامعات وفي وظائفها وفي رسائلها، وإذا كان هناك بعض الجوانب المتعلقة بما هو مالي، فذلك يعود الى أن الاعتماد العام للموازنات يأتي من الدولة، وحيثما كانت الدولة هي الممول الرئيسي لهذه الجامعات - كما أشرنا - بنسبة تصل إلى (98%) سيبقى تدخل الدولة قائماً، غير أن الدولة لا تتدخل على الإطلاق - وبمسؤولية علمية - فيما يخص ما هو أكاديمي، وما له علاقة بالحرية الأكاديمية، ومن كان له رأي معارض لنا في هذا الحديث فنحن بانتظاره، أقول ذلك لأشير إلى حقيقة، وهي أن روح الجامعة لا يتمثل في المبنى والتجهيزات، فدينا جامعات إقليمية تمتلك بُنى تحتية لا تتوفر لدى بعض الجامعات الأوروبية، غير أنها تفتقر إلى الروح الأكاديمية، وتفتقر إلى الرسالة العلمية الحرة. جامعة عدن كغيرها من الجامعات اليمنية تمتلك الحرية الكاملة في تعاملها مع رسالتها، ومع محيطها انطلاقاً مما توجبه عليها مسؤوليتها العلمية والأكاديمية" @ د. عبد الوهاب راوح، من حوار صحفي منشور في صحيفة (الأيام) بتاريخ: 2006/8/23م.

****تَحِيَّة****

(لِلْعِلْمِ نَبْضٌ وَفِي الْأُرُوجِ أَرْوَاحُ

تَعِيشُ فِينَا وَصَوْتُ الْحُبِّ صَدَاخُ

وَلَا يَضِيعُ مِنَ الْمَعْرُوفِ أَصْغَرُهُ

مهما اختفى فَلَهُ فِي الدَّهْرِ شَرَّاحُ

هَلْ تَذْكُرُونَا كَذِكْرَانَا لَكُمْ أَبَدًا؟

فَرُبَّ ذِكْرَى هِيَ الْقُرْبَى لِمَنْ رَاحُوا

إِنْ خَيَّمَ الْجَهْلُ أَحْيَانًا لِيَتَعَبَنَا

فَإِنَّهُ الْعِلْمُ لِلْأَفْرَاجِ مِفْتَاحُ).



(19) البروفيسور فهد عَکَام

(أستاذُ منهجِ التَّأويلِ التَّكاملي للنصِّ شعراً وسرداً)

لا يُقاسُ العِلْمُ بكثرةِ المؤلفاتِ ولا بتعددِ الكتاباتِ، ولا بتسويد الصفحات؛ في أحيانٍ كثيرةٍ، وإلا لكان مقياسُ العلمِ في هذه الحالة مقياسًا كميًّا سطحيًّا، ولكنه يُقاسُ بتقديم الجديد المختلف في الفكر، وفي المنهج، وفي الموضوع، ويقاس بوضوح الرؤية، وبقاء الأثر في الباحثين والمتلقين، ألم يكن مؤسس علم اللغة العربية "الخليل بن أحمد الفراهيدي" (ت175هـ) صاحبَ منهج؟ وبسببه كثُر طلابُه، وحَقَّقوا بفضل منهجه حضورَهم العلمي وإضافتهم المعرفية، كما حَقَّق هو نفسه ذلك التميُّزَ والثقلَ النوعيَّ في الدراسات العربية التي نعتزُّ بها حتى يوم النَّاس هذا، لأنَّه كان صاحبَ منهج تحوَّل إلى مدرسة قائمة الأركان متعددة المصطلحات، متكاثره الأبناء والتلاميذ، وبذلك أثر تأثيرًا كبيرًا في أجيال علمية مختلفة منذ القرن الثاني الهجري، وتعدَّدت آثاره متمثلةً في طلابه، ومن اهتموا إلى منهجه، وساروا على هُداه، ثم ألم يكن مؤسس علم اللغة الحديث "دي سوسير: Ferdinand de Saussure" (ت1913م) في مطلع القرن العشرين هو أيضًا صاحب منهج؟ على الرغم من أنه لم يجمع محاضراته سوى النابهيْن من طلابه، ولكن ذلك الكورس أو ما ترجم إلى (محاضرات في علم اللسان العام - COURSE DE LINGUISTIQUE GENERALE)، كانت سببًا في تغيير خارطة الدَّرس اللغوي والنقدي فيما بعد وحتى الآن. ولعلَّ المثل اليميني الشَّعبي يُلخِّصُ بإيجاز الفكرة في قوله: "الهندوانة بنانة، والحديد أرطال" ولعلَّ معناه واضح في سياقه المحلي.

ما دعا إلى قياس العلم بالمنهج هو حديثنا اليوم عن أستاذٍ قديرٍ وأكاديميٍّ كبيرٍ، وصاحبٍ منهجٍ متميّزٍ، لكنّه ظلم كثيراً- هو ومنهجه- ونالهُ عقوبٌ واضحٌ وجودٌ مقصودٌ ليس من جيله فقط، ولا من محيطه الاجتماعي والثقافي والأكاديمي الذي عاصره وخبره، وأدرك قيمته الأكاديمية، وهَمَّتْه المنهجية، ولكن ذلك العُقوق ربما امتدَّ- للأسف- إلى طلابه ومريديه إن جهلاً وإن عمداً إلا ما ندر منهم ممن يحفظُ الجميلَ، ولا ينكرُ المعروف، وقليلٌ ما هم!

وقفتُنا اليومَ مع الأستاذ الدكتور محمد فهد عكّام (1932-1999م) (أبي نورس) المولود في دمشق، والمتكوّن من طينها وروحها، وباسمينها وجمالها وإصرارها، وأفراحها وأحزانها، واختلافها وتميزها، والمتخرج في جامعتها (جامعة دمشق)، والمصقول -علمياً وتأهلياً- في (جامعة باريس) التي أخذ منها شهادته للدكتوراه بإشراف المستشرق الفرنسي الشهير "بلاشير: Régis Blachère" (ت1973م) عن أطروحته (أبو تَمَام مُبدعُ الإغراب لدى العرب: نظرته النقدية، وفنّه الشعري).

أبو تَمَام (ت231هـ) الحداثيُّ المتميّز والمختلِف الذي سيظلُّ رفيقَه الأثير، وصديقَه الوفيَّ في أبحاثه اللاحقة، ودراساته المتعددة فيما بعد. ومن (جامعة باريس) أخذ رَحابةَ العلم، ودقّةَ المنهج، وانضباطَ المصطلح، وأفقَ الرؤية، ثم عاد لينشر علمه ومنهجه، ويبني أجيالاً معرفيّة

راهنَ عليها كثيرًا، ولكن ربما أنَّ مكسبه من ذلك الرهان لم يكن كبيرًا كما رام، ولا يُعرفُ السَّببُ حتى الآن، ومضى يدرّسُ في جامعة دمشق، وفي جامعة البعث في حمص، وفي جامعة صنعاء التي قَدِمَ إليها لأوّل مرة عام 1987م؛ وغادرها في العام 1995م-وقد عاد خلالها لعام دراسي واحد فقط إلى سوريا- ثم رجع إلى جامعة صنعاء أستاذًا في قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب، حتى العام 1994م؛ حيثُ نُقِلَ إلى مركز اللغات بجامعة صنعاء، ثم غادرنا عائداً إلى بلده، ثم عاد قاصداً التعاقد من جديد في جامعة صنعاء، ولكنه مرض، وأدركته المنية، ودفن في صنعاء التي أعطاهها جسده كما كان قد أعطاهها روحه وحَبَّه.

عرفته في جامعة صنعاء، وهو في مطلع العقد السادس من عمره تقريباً، أستاذٌ رصينٌ وقورٌ، تملؤه النظرة المتأملّة الشاردة المهيبة، والعبارة الدقيقة الموجزة العالمة. كان ذلك في السنة الجامعية الثانية 1990/1991م، حينَ درّسَ لنا مقرّر (النقد الأدبي القديم)، وفي السنة الثالثة تلقينا على يديه مقرّر (الأدب الأندلسي) وكان مميّزَ الأداء، متقن العطاء، كان يدرّسُ لنا (النقد الأدبي القديم) وقضاياه المعروفة، ولكنه يبدأ تلك القضايا بالحديث عن صديقه الأثير، وبنظرة عامّة بعنوان (بانوراما التفكير المعاصر عند أبي تمام)، ويمضي بعرض المعطيات النقدية على شكل ما يسميه بـ(شَميلة) يتحدث فيها عن اختيارات أبي تمام وحماسه واصفاً منهج تلك الاختيارات بأنها بداية التحوّل من المختارات إلى التراجم،

وعارضاً لمنهج أبي تمام في الاختيارات بالقياس إلى منهجه في الشعر بأنه كان - كما وصفه المرزوقي من قبل - "يختار ما يختار لجودته لا غير، ويقول ما يقوله في الشعر بشهوته"، ويوضح ذلك بتشبيهه: "والفرق بين ما يُشتهى وبين ما يُستجاذ ظاهر بدلالة أن العارف بالبرّ (الثياب من الكتّان والقطن) قد يشتهي لبس ما لا يستجيده، ويستجيد ما لا يشتهي لبسه، وعلى ذلك جميع أعراض الدنيا من العقلاء العارفين بها في الاستجادة والاشتفاء". ويضع ذلك التشبيه في معادلة عُرفَ بها أستاذنا وباستخدامها وبمصطلحاتها ورموزها التي سنوضحها بعد قليل، فيضع ما سبق في هذه الترسّمة:

[ش.ت: حال أبي تمام في قول الشعر وفي اختياراته]=[ش.ص: حال التقني العارف بالبرّ].

وهذا يقود إلى توضيح بعض مصطلحاته الخاصّة ورموزه التي تبنّاها، وتميّز بها في تحليله ومنها: (ش.ت) المشبه المراد تصويره، و(ش.ص) هو المشبه به أي (الشيء المتخذ صوّة) (والصوّة: حجرٌ يُنصبُ في الطريق علامةٌ يستدلُّ بها المسافر، وجمعها صوَى، وأصواء، وهو مصطلح سيميائي مهمٌ يحسب لأستاذنا)، وأداة التشبيه (مش) فهي عنده (المشبك)، وأما وجه الشّبه، فهو (نقطة التلاقي) ويرمز لها بالحرفين (ن.ت)، والمشارك أو العلاقة التي قد تكون بين المشبه والمشبه به هي إما علاقة مشابهة أو علاقة تماهٍ وتماثل أو علاقة تضاد، ويرمز لكل علاقة من تلك العلاقات برمز رياضي خاص وهي على التوالي: [□]، =، #] ويخصّص العاطفة بالحرفين

(عأ). وفي الصورة الاستعارية يستخدم الرموز (م.ت)، و(م.ص) وغيرها من الرموز والاختصارات. وربما كانت هذه الرموز تُقلِّقنا -ونحن طلاب- ولكن بمجرد أن فككنا شفراتها، وأدركنا دلالاتها انجلي الجهل بها، وانقشع القلق منها.

ثم تَستمرُّ محاضراتُ (النقد الأدبي القديم) عن أهمِّ المقولات والأحكام النقدية، وأبرز الكتب الأدبية والبلاغية القديمة مثل: طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي، والشعر والشعراء لابن قتيبة، والبيان والتبيين للجاحظ وغيرها، وكذلك عن قضايا الشعر المطبوع والمصنوع، والوضوح والغموض، وسواهما من قضايا النقد الأدبي القديم المعروفة، ثمَّ قسَّم النقد القديم إلى النقد التصنيفي، والتاريخي، والانطباعي، والأيدلوجي، ليختم بالمعركة بين القدماء والمحدثين.

كانت تلك محاضرات (النقد الأدبي القديم) وهي مفيدةٌ -بلا شك- في الإثراء المعرفي، لكنَّها قليلةُ الأثر إذا ما قيسَت بالتجليِّ الحقيقيِّ لمنهج أستاذنا ولطريقته التي تلقيناها بكلِّ اندهاش وتأثُّرنا بها وبه، وبأسلوب شرحه للنصوص، واستمتعنا بلذَّة النَّصِّ التي يمكن أن تكون سببَ الغواية الحقيقية لنا ولجيلنا المتعطِّش للمعرفة، ولتحليل النَّصِّ الشعري - خاصةً - وكان التطبيق على عصرٍ من أخصبِ العصور الأدبية جمالاً وإدهاشاً ألا وهو مقرر (الأدب الأندلسي)، وميزة ذلك الأمر أن أستاذنا فهد عكَّام - رحمه الله - لم يكن يتعامل مع هذا المقرر تعاملًا جافًا أو وظيفيًا آليًا

لتقديم معرفة أو معلومات جاهزة فقط، بل كان يتعامل معه تعامل الفنان الذي يرسم لوحاتٍ جماليةً من خلال تطبيق منهجه الأثير على نفسه ذلك المنهج الذي ارتضاه لنفسه منهجاً تأويلياً تكاملياً يعلنه لنا من أول لقاء يجمعنا به، بقوله: "يمكننا في هذا المقرر تناول النصّ من جهاتٍ عدّة (أسلوبية - اجتماعية - نفسية) ويوضح الطريقة بقوله: "نحو تأويلٍ تكامليّ للنصّ في الشعر والقصة الخرافية وغيرها". ومن هنا أصبح واضحاً لدينا بأنّه يجد نفسه في هذا المنهج، ووجدنا نحن فهد عكام المتألق المتأمل المختلف الفنان المنهجي في هذا المقرر.

لا أنسى طريقته وجلسته في القاعة، حيث كان يضع على الطاولة شنته الأنيقة المليئة بالكثير من الأدوية وبالقليل من الأوراق، ثم يخرج علبة السيجار وبعض الأوراق التي كتبت عليها النصّ الشعريّ، ثم يبدأ بقراءته قراءةً متقنةً ولكنته الشاميّة المحببة، وكان يلثغ بحرف الرّاء كما يفعل الفرنسيون، ثم يتناول رشفةً من قهوته التركيّة المركّزة، وهو في جلسته الرصينة كمن يخاطب النصّ، ويعيش عوالمه، وينطلق في تأملاته وشرحه، وهو لا يحب أن يقاطعه أحدٌ حتى ينتهي، ولغزارة تلك المحاضرات وقيمة ما يُقدّم فيها من معلومات، ومن تحليل وتأويل، طلب إليه الطلاب السّماح بتسجيلها، فأذن بذلك، وقد سجّلت بمسجلٍ صوتي قديم وخاص بالزميل علي الفقيه، وتبنّت الفكرة جمعية الدراسات العربية بكلية التربية، وقام بتفريغ تلك المحاضرات التي بلغت (18) محاضرة أصحاب

الخط الجميل، وهم: الزراعي، والدريب وأبو طالب، وشارك معظم الزملاء في الدعم المادي، وفي تغطية التكاليف، كما نصّت على ذلك (كلمة لا بدّ منها) وضعها رئيس الجمعية على آخر ورقة في تلك المحاضرات المؤرخة بـ 1/2 / 1992م.

ومن هنا يمكننا القول إن تلك المحاضرات المسجّلة، ثم المكتوبة بأقلام الزملاء، والمفعمة بأرواحهم وطموحهم وبصماتهم، هي ما أخذناه روايةً وتلقياً مباشراً عن أستاذنا فهد عكّام كما كان يُتلقّى العلم قديماً عن الشيوخ بالرواية المباشرة، ويحيزُ لهم الشيخ روايتها عنه بوصفه قد وافق على تسجيلها، ولا غرو أن تلك المحاضرات من أهمّ ما شكّل وعينا العلمي، وبثّ فينا المعرفة والتحليل وفهم النصوص والتعامل معها تعاملًا مختلفًا يقفُ عند جمالياتها، ويحدّد آفاقها ولذّتها، فقد كان منهجُ أستاذنا التأويلي التكاملي الذي يبدأ بالأسلوب، ويعالج المجتمع المحيط بالنص، ويتعرّض لنفسية الشاعر هو ما سارت عليه محاضرات المقرر حتى نهايتها.

ولكنّه في المحاضرات الأولى منها في بداية الفصل الدراسي التي بدأت في (16/10/1991م) قد رسم لنا صورة العصر الأندلسي ابتداءً من فتح الأندلس، وأهم الأحداث المصاحبة للفتح، والعناصر التي سكنت الأندلس قبل الفتح العربي متحدثاً عن (قبائل البسك والسّلت والجلالقة) وغيرهم، ثم العوامل المساعدة للعرب على الفتح التي كان أبرزها الضرائب الباهظة وظلم الفقراء وغيرها، وفي المحاضرات التالية بيّن الحياة الفكرية

والعقلية، وأثر البيئة على الأدب. ثم تحدّث عن موقف العامّة والخلفاء من الفلسفة، وكيف أنّه لم يظهر شاعر متفلسف في الأندلس مثل أبي العلا المعري في المشرق، وتأخّر ظهور الفلاسفة عندهم حتى القرن السادس الهجري؛ حيث ظهر ابن باجة (ت533هـ)، ويحيل ذلك إلى عدة عوامل منها النزوع البدوي، والمذهب المالكي، وتقرب الخلفاء من العامّة بإقضاء العلماء أصحاب الفلسفة، وربما باتهامهم بالزندقة -بوصفها تهمة جاهزة- وإحراق كتبهم كما حدث لابن رشد (ت595هـ) وغيره.

ثم يمضي في الحديث عن بعض الظواهر التي كان لها شأنٌ في إنتاج الأدب الأندلسي وتميّزه ومنها: جمال الطبيعة، يقول ابن سفر المريني: في أرض أندلس تلتدّ نَعْماء.. ولا تفارقُ فيها القلبُ سراءً وكيف لا تبهر الأبصار رؤيتها.. وكلّ روض بها في الوشي صنعاء... ومن تلك الظواهر الغناء، وظهور فن الموشحات، وتحول الغناء إلى صناعة من الصناعات، وأثر (زُرّياب) (ت243هـ) في المجتمع الأندلسي وغيرها.

ثم يمضي في بيان أسباب الانسياق والتأثر بالشرق، ويطرح عددًا من الأسباب منها الارتحال إلى المشرق وأخذ كتبهم ونقلها وروايتها، والتأثر بالحياة الفكرية والأدبية المشرقية، ورواية دواوين الشعراء المشاركة في المغرب حيث كانوا يرتحلون إليها قصداً، ويأخذونها، ثم يروونها وينشرونها في بلاد الأندلس. ثم يعدّد أستاذنا الكتب المشرقية في الأندلس، وتأثّر

مناهج تأليفهم بها كما في كتاب (العقد) لابن عبد ربه وغيره، وكيف برزت تلك الآثار حتى في ألقابهم كمتني المغرب، وخنساء المغرب، وأسماء معتمدٍ فيها ومعتضدٍ، وكذلك في التأليف فرسالة ابن شهيد (التوابع والزوابع) متأثرة برسالة الغفران للمعري، وهكذا تمضي المحاضرات في عرض العصر الأندلسي وقضاياه حتى المحاضرة التاسعة.

وتبدأ المحاضرة العاشرة بتحليل النصوص الشعرية والمقطوعات، مُتَّبَعَةً أبرز شعراء الأندلس، مبتدئة بمقطوعة لابن عبد ربه (ت327هـ) يعارضُ فيها صريحَ الغواني مسلم بن الوليد (ت208هـ) والتي يقول في مطلعها:

(أديرا عَيَّ الرَّاحَ لَا تَشْرِبَا قَبْلِي.. وَلَا تَطْلُبَا مِنِّي عِنْدَ قَاتِلَتِي ذَحْلِي)

ثم يشرح نصَّ لابن هانئ الأندلسي (ت363هـ) يصف به أسطول المعز لدين الله الفاطمي، ومطلعه:

(أما والجواري المنشآت التي سَرَتْ.. لقد ظاهرتها عدةٌ وعديدُ)

ثم نصَّ لابن درَّاج القسطلي (ت421هـ)، ثم نصَّ لابن شهيد الأندلسي (ت436هـ). ثم يقفُ وقفةً أطول لدى بعض الشاعرات اللاتي ظهرنَ في عصر ملوك الطوائف، ويبينُ كيف اهتَمَّ بنو عبَّاد بالأدب؛ لأنهم كانوا أنفسهم شعراء وبلاطهم منتدو للأدب، ويرصد أهم النساء الشواعر، ومنهنَّ: الرميكية زوج المعتمد، وبثينة ابنته، ومُهْجَة القرطبية، وحسَّانة التميمية، وأم العلاء بنت يوسف الحجازية، وأم الكرام بنت المعتصم بن

صمادح التي كانت تنظم الموشحات، ونزهون الغرناطية، والغسانية البجانية، وحفصة بنت حمدون، وحمدة بنت زياد المؤدب، وولادة بنت المستكفي، ويعلّق أستاذنا على تلك الشاعرات، وكأنه يوحى إلينا بموضوعات تصلح للدراسة مستقبلاً بقوله: "ألا تلاحظون أنّ ثمة أدباً يمكن أن يُطلق عليه اسم (الأدب النسائي) يمكن أن يُدرس لنتبين إلى أي حدّ تميّز الذات الشاعرة الأنثوية عن الذات الشاعرة التي يمثّلها الرجال؟"، ثم يعرض لمقطوعتين لـ (حمدة بنت زياد المؤدب)، ويقف بالتحليل عند مقطوعتها التي ربما نازعها النسبة فيها شاعرٌ مشرقٌ هو المنازي (ت437هـ)، ولم يُحسم الأمر، ولكن أستاذنا حملها على أنها من أقوالها، وهي من أجمل المقطوعات التي تجلّى فيها منهجُ أستاذنا في التحليل والإدهاش في الربط بين المناهج المختلفة -وسنختم في آخر هذا المقال بتحليل آخر بيتٍ منها- وهي مقطوعةٌ مكوّنةٌ من سبعة أبيات تقول:

(وقانا لفحة الرمضاءِ وإِدِ	...	سقاءُ مضاعفُ الغيثِ العميم
حللنا دوحه فحنا علينا	...	حنو المرضعاتِ على الفطيم
فأرشقنا على ظمأٍ زلّالاً	...	ألدّ من المدامةِ للنّديم
يصدّ الشّمسُ أتّى واجهتنا	...	فيحببها ويأذن للنسيم
يروعُ حصاهُ حالية العذارى	...	فتلمس جانبَ العقْدِ التّظيم).

وتمضي بنا المحاضرات لتحليل نصّ للشاعر ابن خفاجة
(ت532هـ) الملقّب بالبستاني، وهو المهتم بشعر الطبيعة، فنقفُ وقفةً
مطوّلةً مع قصيدته في وصف الجبل:

(وأرعن طمّاح الذؤابة باذخ.. يطاول أعنان السّماءِ بِغَارِبِ)

ونص آخر في وصف نهر:

(للهِ نهرٌ سَالَ في بطحاء.. أشهى ورودًا من لَمَى الحسناءِ)

فنستمع إلى تحليلٍ لهُذين النصّين من أستاذنا كأن لم نقرأ من قبلٍ
تحليلًا، ولم نتلذذ بفهم للشعر كما كان معنا في تلك المحاضرات التي ما كنّا
نريدُ لجمالها أن ينقضي ولا لمحطاتها أن تنتهي لولا محدوديّة الفصل
الدراسي، وأن آخر تلك المحطات كانت مع ابن زيدون (ت463هـ) في وصفه
لضاحية الزهراء، وهو يتذكّر محبوبته (ولادة)، ويبثّها أشواقه:

(إني ذكرْتُكِ بالزهراءِ مُشتاقًا.. والأفقُ طَلَقَ ومرأى الأرضِ قد راقا

وللنسيم اعتلالٌ في أصائلِهِ.. كأنّه رَقَّ لي فاعتلَّ إشفاقًا).

ولولا خشيّة الإطالة - في هذا المقام - لمضيتُ أحدثكم عن جمال
الشرح والتأويل والتحليل الذي زاد من جمال تلك النصوص ورونتها
وروعتها واعتلاها كأنها النّسيمُ الذي كُفِّمَتْ روائِحُه، وهلّتْ نسائِمُه،
كانت كالذكريات تبعثُ النفس شوقًا وبوحًا، وتشعل في الرّوح انتعاشًا
ورَوْحًا.

علّمنا أستاذنا فهد عكّام كيف يَستغرقُ البحثُ الباحثَ، وكيف يُخلّصُ لقضيةٍ ما أيامًا، بل وربما شهرًا في التأمل العميق، والبحث الهادئ للوصول إلى جذوة الأمر والاطلاع على أسسه ولبّته، ومن هنا لم يكن يُكثر من الهذر، ولا يستكثر من الكمّ في بحوثه ومؤلفاته، بل يهتم بالكيف، ويخلص للتأويل الذي قد يستغرق فهم عقده، وفكّ شفراته زمنًا طويلاً، ولكنّه لا يتركه حتى يفتح مغلقه بصبرٍ وتأنٍ منقطع النظر، وكلّ ذلك لا يطيقه إلا صاحبُ بصيرةٍ، ومالكٌ منهجٍ، ومُتبني قضية.

ترك أستاذنا عددًا من الأبحاث القيّمة التي تُعبّر عن منهجه، وترك خلاصة فكره ونقده وتوجّهه، منها المؤلّف، ومنها المترجم، وقد نشرها ابتداءً من عام 1971 حتى العام الذي توفّي فيه عام 1999م، وهي موزّعة في أكثر من مجلةٍ ودوريةٍ رصينةٍ، نرصدها على النحو الآتي:

(1) تقنية الرواية عند نجيب محفوظ بقلم المستشرق أندريه ميكل (مترجم) (مجلة المعرفة)، 1971م.

(2) بحثًا عن رؤية كونيّة في شعر أبي تمام (مجلة التراث العربي)، 1982م.

(3) علم الاجتماع الأدبي: بعض من مراحل تاريخية، بقلم جاك لينهارت (مترجم) (مجلة المعرفة)، 1983م.

(4) نحو معالجة جديدة للصورة الشعرية - بنية الصورة في شعر أبي تمام (مجلة التراث العربي)، 1983م.

- (5) أيمكن أن يُقالَ عن لسانٍ ما: إنه جميل؟ بقلم أندريه مارتينييه (مترجم) (مجلة المعرفة)، 1984م.
- (6) نحو معالجة جديدة للصورة الشعرية - أنماط الصورة في شعر أبي تمام (مجلة التراث العربي)، 1985م.
- (7) نحو معالجة جديدة للصورة الشعرية - من أسلوبية الصورة إلى نسقيتها (مجلة التراث العربي)، 1985م.
- (8) اللغة في شعر أبي تمام (مجلة عالم الفكر)، 1986م.
- (9) نحو تأويل تكاملي للنصّ الشعري (مجلة فصول)، 1989م، وفيه تحليل للقصيدة البحرية لنزار قباني، وقد نشرها أيضًا في مجلة كلية الآداب بجامعة صنعاء، عام 1993م.
- (10) من قضايا الإبداع في التراث العربي (مجلة فصول)، 1991م.
- (11) في تأويل النص الغنائي - الحياة - لأبي القاسم الشّابي (مجلة الموقف الأدبي)، 1997م.
- (12) نحو تأويل تكاملي للنصّ القرآني أنموذج من السُّور المكية (مجلة التراث العربي)، 1998م.
- (13) قضايا نقدية بين المعاصرة والتراث (مجلة الموقف الأدبي)، 1999م.

وأما الكتب فله منها ثلاثة: الأول مُترجم عن الفرنسية التي كان يجيدها، وهو كتاب (النقد الأدبي والعلوم الإنسانية) لجان لوي كابانس، دار الفكر، دمشق، ط1، 1982م.

والكتابان الآخران مؤلفان، هما: كتاب (نحو تأويل تكاملي للحكاية الخرافية، نموذج من كيلة ودمنة، باب القرد والغيلم)، دار ملهم، حمص، ط1، 1995م.

وكتاب (الشعر الأندلسي نصًا وتأويلًا)، دار ينابيع، دمشق، ط1، 1995م.

ومن الكتب التي اشترك فيها مع غيره: كتاب (النص المفتوح؛ قراءة في شعر عبد العزيز المقالح)، دار الآداب، بيروت، ط1، 1991م، وله فيه فصل بعنوان (الفينيق شاعر الأرض السَّعيدة "تجربة التحيز المرئي")، ويحتوي الكتاب على دراسات كتبها كل من: د.مصطفى ناصف، د.كمال أبو ديب، د. يمني العيد، د.وهب رومية، د.جليل كمال الدين، د. فهد عكَّام، د.شكري عزيز الماضي، د.محمد رحومة، زاهر الجيزاني، عبد الودود سيف.

وكذلك كتاب (العربية لغير المختصين): الكتاب الثالث، الجزء الثاني، والكتاب الرابع، الجزء الثاني لأقسام اللغات الأجنبية، (د.حسام الخطيب، د.سليمان أحمد، د.فهد عكَّام، د.جمال شحيد، منشورات جامعة حلب، 1986م).

واجهتني عند كتابة هذه المقالة مشكلتان، الأولى: هي النبش في الذاكرة عن أستاذٍ تفصّلني عنه ثلاثة عقودٍ تقريباً -فأراه كأنّه أحلامٌ- لكنّه قارٌّ فيها، وعميقُ الأثر في تكوينها، والأخرى مُشكلةُ الحصول على صورةٍ شخصيةٍ واحدةٍ له على الأقلّ بالرغم من الفضاء المفتوح والتقنية المعاصرة، و(محرك قوّل) الذي يأتي بالشيء قبل أن يردّد إليك طرفك، إلا أنّها جميعاً لم تُسعفني، وأدركتُ أن التقنية أيضاً مارستُ العقوق لهذا العالم العَلَم، حينها استعنتُ بكلّ الأصدقاء الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم من سوريا الشقيقة، ابتداءً بالصديق الأكاديمي أ.د/راتب سُكر الذي لم أجد لديه أية صورة، وبحثُّ لدى الصديق الأديب بيان الصّفدي، ومنه إلى الشاعر عبد القادر الحصني، الذي لم تكن لديه صورة، واقترح عليّ الانتظار حتى يعود اتحاد الكتاب العرب لعمله، فربما كان لديهم صورةً له، ولكنّه مشكوراً أمدّني بقصيدته في رحيل عكّام التي منها:

"يا صديقي، يا أبا الحرف الذي.. هزّه الإبداعُ صرفاً فانبرّي

يُجدلُ النورَ دُؤاباتٍ على.. قِمْمِ الشّعِرِ دُرّاً فوقَ الدُّرا

نَمْ قَرِيرَ العَيْنِ، لَا نَامَتْ رُؤْيٌ.. مَنَعَتْ عَيْنِيكَ مِنْ طَعْمِ الكَرَى".

واستمرّت رحلَةُ البحثِ عن [صورةٍ شخصيةٍ للدكتور فهد عكّام] حتى وصلتُ أخيراً إلى أحدِ طلابهِ الأوفياء، وقد أصبحَ صديقَه بعد ذلك، ورغبَ في عدم ذكر اسمه، وهو الوحيد الذي مدّني ببعض الصُّور الخاصّة بأستاذنا لمراحلٍ عمريةٍ مختلفة.

وأنا في البحث خَطرَ لي أن أسأل أستاذنا الدكتور عبد الله البار، وهو بلا منازع وريثه الأوّل في اليمن الذي تعلّم منه كيف يُحلّل النّصّ بمنهج التأويل التكاملي، فكتبَ في ضوئه دراسات عن شعراء اليمنيين منهم المقالح، وكتبَ رسالته للماجستير عن المعلقات العشر وفق ذلك المنهج، وهو ثاني ثلاثة يعدّهم آباءه الذين يباهل بهم الآخرين - كما أباهل أنا بهما؛ بالبار وعكّام - وقد أنجز البار عن مشروع فهد عكّام النقدي دراسةً أوّليّةً مهمّةً شارك بها في مؤتمر عقدته جامعة حضرموت، ونُشر في مجلّتها بعنوان (النقد الأدبي: من الحداثة المنهجية إلى الدراسات البينيّة)، وفيه عرّض شاملٌ لمنهج الأستاذ وأبحاثه وكتبه، وفيه أيضًا من الوفاء والإنصاف ما يدلُّ على أنّه - حقيقةً - بارٌّ كاسمه بأستاذه، ولم يكن من العاقين له.

وصَفَه بقوله: "كان له القِدْحُ المعلّى من حيث القدرة على جلاء لغة النّصّ، وبيان رؤيته، وتبيان مميّزاته الأسلوبية مفردةً وتركيبًا وصورةً وإيقاعًا. لكنه مُذ انتصف به العَقْدُ التاسع من عقود القرن العشرين مالَ به الوعي النقدي إلى دائرة (التأويل) منهجًا، وغدا انشغاله بفهم ما يقوله النّصّ يزاحم إدراكه لكيفيات تشكيل لغته. فصارَ (تأويلُ النّصّ) - أيًّا كانت صفته - شاغلُهُ، واستهواه من نظرية تأويل النصوص (الهرمنيوطيقا) ما ذهب إليه شلير ماخر...".

ولعلّ من القلّة القليلة الذين وجدتهم قد تحدّثوا عن أستاذنا فهد عكّام بكلّ حُبٍّ ووفاء الدكتور (شوقي المعري) في مقال له بعنوان (فهد

عكّام النورس الجريح) نُشر في صحيفة البعث بعد موته بتاريخ 15 / 4 / 1999م، وضمّنه في كتابه (أحاديث شبه ثقافية، دار الرحاب، 2001م)، وكذا الدكتور (عبد النبي اصطيف) الذي قال عنه: "وَهُمْ فَهْدٌ أَنَّ السَّبِيلَ إِلَى إِصْلَاحِ مَا أَفْسَدَهُ الدَّهْرُ الْغَشُومُ فِي دِرَاسَةِ نَصُوصِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ قَدِيمِهَا وَوَسِيطِهَا وَحَدِيثِهَا هُوَ هَذَا النِّقْدُ الشَّارِحُ الَّذِي يَتَّخِذُ مِنَ التَّأْوِيلِ التَّكَامِلِيِّ لِلنَّصِّ مَذْهَبًا فِي تَدْبِيرِ النُّصُوصِ، وَوَهُمْ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَنْشُرَهُ بَيْنَ طَلَبَتِهِ فِي دِمَشْقَ (فِي قِسْمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَدَابِهَا، وَفِي قِسْمِ النِّقْدِ وَالْأَدَبِ الْمَسْرُوحِيِّ فِي الْمَعْهَدِ الْعَالِيِّ لِلْفَنُونِ الْمَسْرُوحِيِّ)، وَحَمَصَ (فِي قِسْمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَدَابِهَا فِي جَامِعَةِ الْبُعْثِ) وَصَنَعَاءَ، وَفَاتَهُ أَنَّ كِبَارَ النُّفُوسِ وَحَدَهَا قَادِرَةٌ عَلَى اجْتِرَاحِ مَعْجَزَةٍ كَهَذِهِ، وَأَنَّ قِلَّةً مِمَّنْ يَزْعُمُونَ حُبَّ الْفَنِ الشَّعْرِيِّ كَانُوا مُسْتَعِدِّينَ لِإِرْهَاقِ أَجْسَادِهِمْ فِي تَحْقِيقِ مَرَادِهَا، وَأَنَّ طُلَّابَ الْمَعْرِفَةِ الْمُحَدِّثِينَ مِمَّنْ تَيْسَّرَتْ لَهُمْ نِعْمَةُ الْمَعْرِفَةِ بِأَقْلِّ الْجُهِودِ كَانُوا يَبْحَثُونَ عَنْ مَعَادِلَاتٍ سَحَرِيَّةٍ سَرِيعَةِ الْمَفْعُولِ تَقُومُ بِمَهْمَةِ تَدْبِيرِ النُّصُوصِ، وَمَا كَانَ حُبُّ الْفَنِ لِيَبْرِي أَجْسَادَهُمْ فِي يَوْمٍ، كَمَا بَرَى حَبَّهُ جَسَدَ فَهْدِ عَكَّامٍ".

(فصلُ الخطاب)

(يَرُوعُ حَصَاةَ حَالِيَةِ الْعَذَارَى ... فَتَلْمَسُ جَانِبَ الْعَقْدِ التَّظِيمِ)

عادت الشاعرة (حمدة بنت زياد) من جديد لتحدثنا عن الوادي، لأنَّ حصى هذا الوادي هو الحصى الموجود في الماء ذاته، يَرُوعُ: يُفْرِغُ،

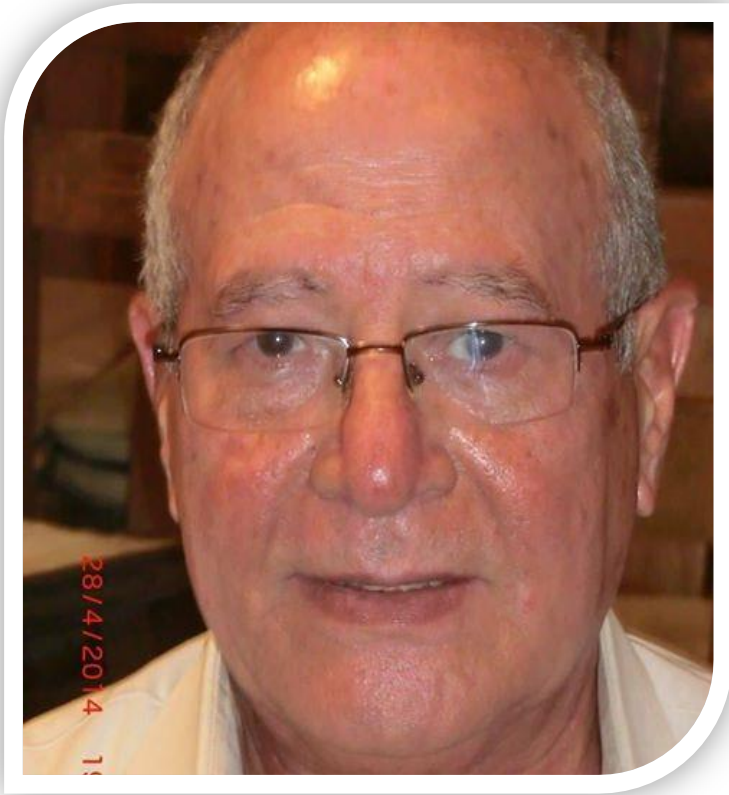
ويخرجُ الفَرْعُ هنا من معناه المعجمي ليؤدّي معنى الفِتْنَةِ، بمعنى أن هذا الحصى إنّما كان يفتنُ هذين العاشقين حتى درجة الفَرْع، واللفظُ في الشعر يخرجُ عن معناه المعجمي ليؤدّي معنى آخر. (حالية العذارى) الفتاة التي لبست الحلى والتي تتجرد من الحلى تُسمّى (العطل) كما تُطلق كلمة (العطل) على المجرّد من السلاح كهيئة "عمر عندما راع صاحب كسرى، وهو عطل بين راعيها". ويفتن اللابسات الحلى لدرجة أن هذه العذراء إنّما كانت تلمسُ العقد الموزون بأصابعها "فتلمسُ جانب العقد النظيم؛ لأنها تتخيّل أنّ هذا الحصى إنّما هو حبّاتُ اللؤلؤ التي رُصّعت في هذا العقد. بتعبير آخر لدينا صورة خفيّة في شكل من التشبيه، تقيم (علاقة توحّد) بين حصى الوادي الذي يسيلُ فيه الماء الصافي والعقد الذي نُظمت فيه اللآلئ. [ش.ت: حصى الوادي]=[ش.ص: العقد الذي نظمت فيه اللآلئ] وحين رأت الحصى يتلألأ في الماء الصافي افتتنت، وهذه الفِتنة تمثّلت في حركة يدها حين لجأت إلى لمس اللآلئ المنتظمة في عقدها، وذلك حين خيّل إليها أنّه تبعثر في الماء. والبيت في منتهى الروعة على مستوى التخيل، وقيم دليلاً على ما نسّميه (المحاكاة الإبداعية) بمعنى آخر هنا ما يمكن أن نطلق عليه اسم (التناص) بمعنى أنّ نصّاً قديماً يؤثّر في نصّ لاحقٍ - هناك نصّ للبحري وهو يصفُ معركةً بين البيزنطيين والفُرس صوّرت في لوحةٍ رآها على جدارٍ في أنطاكية يقول:

(يَغْتَلِي فِيهِمْ ارْتِيَايَ، حَتَّى ... تَتَقَرَّاهُمْ يَدَايَ بَلْمَسِ)

وبيت الشاعرة التي حملها التخيل أن تمدَّ يدها إلى الحصى،
والميدانان مختلفان، فالبحتري يصف معركة، وهي تصف الطبيعة، وهي لم
تنسخ قولَ البحتري وإنما نظمت البيت على المعنى الذي وَرَدَ فيه في بيت
البحتري المشهور، والصورة منتزعةً من حياة الترف، ومن الطبيعة
الأندلسية. @د.فهد عكّام، محاضرات مخطوطة من (مقرر الأدب
الأندلسي).

تَحِيَّة

(طُوبَى لِرُوحِكَ! يَوْمَ عِشْتَ فَرِيدَا	...	تُهْدِي الحَيَاةَ تَأْمُلًا وَجَدِيدَا
الْعِلْمُ مَنَهْجُكَ الْأَثِيرُ رَسَمَتُهُ	...	بَيْنَ الْأَنَامِ تَأَلَّفًا وَنَشِيدَا
كَالزَّهْرِ يَبْعَثُ فِي الثُّفُوسِ بَرَاءَةً	...	تَهْوَى الْجَمَالَ وَتَصْطَفِيهِ مُرِيدَا
أَرَهَقْتَ نَفْسَكَ فَاسْتَبَانَ خُلُودُهَا	...	إِنَّ الْمَتَاعَبَ لِلْكَبَارِ وَقُودَا).



(20) الأستاذ الدكتور أحمد علي مرسى
(رائد الدراسات الميدانية الشعبية في الجامعات المصرية، ومستشار
الدبلوماسية الشعبية)

عندما يجْدُ الأدبُ الشَّعبي من يعتني به، وينافحُ عنه، ويحترمه، ويقدمه للنَّاس بما يليقُ به، ويدرك معناه الحقيقي وروحه العلمية، والثقافية، والإنسانية بفهمٍ عميقٍ واستيعابٍ دقيقٍ، وحبٍّ كاملٍ يصل إلى حدِّ اليقين بأهميته في الحياة وفحواه، وتجذُّده وجدواه، ويصل به في الدرس العلمي إلى تحويله إلى مادةٍ قيِّمةٍ محترمةٍ لا يُنتَقَص من شأنها، ولا يُنظر إليها بنظرةٍ دونيَّةٍ أو بعينٍ ناقصةٍ، أو يُقالُ عن الأدبِ الشَّعبي إنه مما لا يرتقي إلى مستوى الخاصَّة أو الطبقة العُليا من المتعلِّمين والمجتمع أو أنه مضادٌّ للسان العربي الفصيح أو يعتقد أنه ينزلُ بالدَّارس أو المؤلف أو الكاتب إلى مستوى العامَّة من النَّاس، وأنه مما لا يستحقُّ الدَّرَسَ تَرْفَعًا وادِّعَاءً بأنَّ ذلك قد يُقلِّل من شأن المهتمِّ باللغة الفصيحة أو مكانته أو مستواه العلمي أو الطَّبقي الذي يسعى إليه. عندما يجْدُ الأدبُ الشَّعبي مثل هذا الرجل، فإنه يغيَّر مفهوم كثير من الناس -الذين لم يستوعبوا بعد- عن معنى الفلكلور والأدب الشَّعبي الذي فَطِنَ إليه العربي منذ أقدم العصور، واعتنى به الإنسان الشَّعبي فحفظه وتداوله، وظلَّ حيًّا في وجدانه، وفي ضميره الجمعيِّ عبر العصور، واستطاع ذلك الأدبُ أن يعيش -رغم كل ظروف الإقصاء، والتَّجاهل، والانتقاص- في كل تفاصيل حياتنا اليومية لغَةً وفكرًا وعادةً وتقليدًا، بل وممارسةً نجدها في أغلب تفاصيل حياتنا، وكلماتنا، وتصرفاتنا، بل وتفكيرنا في أحيان كثيرة.

كما فَطِنَ إليه واهتمَّ به الغريُّ وأدرك معناه وجدواه على الرغم من أنَّ عُمَرُ الأدب الغربي أقصر عُمراً من أدبنا العربي، وأقلَّ مدونةً من مدونتنا العربية الشَّعبية، ومأثوراته لا تساوي مأثوراتنا على الإطلاق؛ لكن الغربي اهتمَّ به من وقت مبكر، وأنشأ له المعاهد والمتاحف والمراكز لدراسته واقتنائه وتصنيفه وتدوينه.

أقول حينَ يجدُ الأدبُ الشَّعبي مثلَ هذا الرجل فإنه يجد أُمَّةً من الرجال، وعَالَمًا من الهَمَّةِ التي لا تَفْتُر، ومن الثُّور الذي لا يخبو، ومن العزيمة التي لا تلين، رجلٌ بألف رجل، ما إن تَسَمَّعَ إليه وتدرَّك ثقافته الواسعة، ومعرفته باللغة -العربية والأجنبية- واستيعابه للتاريخ وفهمه للأدب وامتلاكه للقيم العالية، وتحسيده للروح الشَّعبية العريقة الأصيلة إلا وتحترم مسعاه، ويجعلك تُدرِّك أنَّ اللهَ يَقِيضُ لكلِّ أمرٍ جنودًا، ولكلِّ عِلْمٍ علماء، ولكلِّ حقٍّ معرفي رجالًا صادقين، وباحثين مخلصين.

حديثنا اليوم عن أستاذ كبير، وباحث قدير، ورجل شعبي أصيل، يحملُ روحَ مصر وجمالها، وصدق علمائها وإتقانهم، ويحمل قيم ابن البلد الأصيل الصَّادق، وطبيعة إنسانها المدني الأنيق، وصفاء جوهره البسيط الرفيع، إنه أستاذ كرسي الأدب الشَّعبي بجامعة القاهرة الأستاذ الدكتور أحمد علي مرسي (المولود في 1 يناير 1944م، بكفر الشَّيخ)، وارثُ الكبارِ من أعلام مصر أمثال أمين الخولي، وعبد الحميد يونس في الأدب الشَّعبي، وطه حسين، وسهير القلماوي، وشوقي ضيف، وشكري عياد، وأضرابهم في

الأدب العربي عمومًا، وأحد أقطاب قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة القاهرة، وكان الرئيس رقم (11) لقسم اللغة العربية وآدابها منذ خمسينيات القرن الماضي ممن تولى رئاسته حتى اليوم، ضمن كوكبة من أعلام مصر وأدبائها ونقادها الكبار، وهم على النحو الآتي -مع حفظ الألقاب-: (خليل يحيى نامى، سهير القلماوى، عبد الحميد يونس، شوقي ضيف، شكري عياد، حسين نصار، يوسف خليف، محمود مكي، عبد المحسن طه بدر، جابر عصفور، أحمد مرسى، عبد المنعم تليمة، محمود حجازي، سيد البحراوي، أحمد عبد العزيز، مي يوسف خليف، عوض الغباري، أشرف دعدور، خيرى دومة).

وكانَ أستاذنا أوَّلَ من أدخلَ الدِّراسات الميدانية في حقل الأدب الشعبي برسالته المبكرة في العام 1966م، حين بدأ بالنزول الميداني لجمع الأدب الشعبي من أفواه النَّاس، ودَرَسَ الأغنية الشعبية تحديدًا في منطقة (البرُّس) بمحافظة (كفر الشَّيخ).

رجلٌ منظَّم بكلِّ المقاييس، ومنه يتعلَّم طلابه النَّظامَ والحرصَ على الوقت وأهميته، فالزمن -بالنسبة إليه- عنصرٌ مهمٌّ في رسم إنجازاته ومسيرته العلمية والأكاديمية، وليس أدلَّ على ذلك من التأمل في سيرته الذاتية وتواريخ إنجازاته العلمية والعملية، حيثُ تخرَّج في قسم اللغة العربية في العام 1963م، بمرتبة الشَّرف، ثم أنجز رسالته للماجستير في العام 1966 بعد ثلاث سنوات من تسجيلها، وبعد ثلاثٍ أخرى أنجز

رسالته للدكتوراه عام 1969م، على الرغم من أن دراساته في الأطروحتين دراسات ميدانية، يجمع مادّته من أفواه النَّاس بما يُصاحبها من صعوبة وعناء ومشقة في التعامل مع أطيان كثيرة من البشر، وخصوصية الأخذ عن عيّنات محدّدة منهم، تمامًا كما كان يفعلُ العلماء العرب قديمًا أمثال الأصمعي، وأبي عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد، والتّضر بن شُميل وأقرانهم، بكلّ أمانة علمية، وانضباط منهجي، ثم يحرص على تحويل الشفهيّ إلى كتابيّ محافظًا على خصوصيته دون تفصيح أو تدخّل قد يشوّهه أو يلوي عنق المروي والراوي/ (الكلمة) و(المتكلم) معًا، بل ينقله بكل أمانة وشفافيّة وشفاهيّة، موظفًا الهاشمي لكلّ ما يستحقّ التوضيح أو الشرح أو التفسير، وكأنّ القارئ يسمّع ما نطقَ به الراوي أو صاحب الأصل ويراها رأي العين. وبذلك اختطّ لنفسه وللدراسة الجامعية الأكاديمية في الأدب الشّعي مدرسةً خاصّةً به، وطريقًا انتهجَه هو -أولًا- ومن بعده طلابه -ثانيًا- الذين سلكوا مَسلكه بإشرافه وتوجيهه، ونزلوا إلى الميدان بتشجيع منه ورعاية، وأنجزوا عشرات الدراسات -إن لم نقل مئات الأطروحات- للماجستير والدكتوراه، واستكملوا مشروعه العملاق، وما زالوا، حتى شكّلوا ظاهرةً واضحةً، ومدرسةً تُعرَفُ به، ويفخرون بالانتماء إليها، والانتساب إليه إشرافًا ومنهجًا، إضافةً إلى جهود أخرى -لا تُنكر- لأساندة أجلاء وباحثين أكفأ جمعوا ودَرَسوا الأدب الشّعي في عموم مناطق مصر، وقراها.

وكما كان مُنظِّمًا في إنجاز دراساته فهو كذلك منظمٌ في تربيته العلمية، فما تكاد تنتهي المدة القانونية حتى يكون قد أنجز أبحاثه، وحصل على تربيته أستاذًا مساعدًا (مشاركًا) عام 1975م، ثم أستاذًا في العام 1981م. هذا إضافة إلى أبحاثه الكثيرة والدائمة في الدوريات والمجلات العلمية المختلفة التي كان من أبرزها (مجلة الفنون الشعبية) الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب التي أعاد إحياءها بعد توقفها، وظل يبعث فيها الروح والتجدد طيلة رئاسته لها وما زال.

تَشَرَّفْتُ بإشرافه على رسالتي للماجستير (الموروثات الشعبية القصصية في الرواية اليمنية) مشاركًا مع أستاذي القدير د. عبد المنعم تليمة -رحمه الله- وممَّا تعلمتُ منه في طريقة إشرافه وأسلوبه -وقد أكَّدها يوم المناقشة- هو مقدار الحرية التي يتركها للطالب، ويجعله مسؤولًا عن آرائه وطريقته ومفاهيمه، ولكن شريطة أن يُتقنَ ويقدم الحجج والدفاعات اللازمة، ومما قاله بالنص يوم المناقشة، وما يزال قوله محفورًا في الذاكرة: "نحن لم ن تدخل على الإطلاق إلا في الإشراف، والتأكد من أن الطالب يروِّد الطريق مُسلِّحًا بما خَبِرَهُ، وبما استطاع أن يصل إليه من معرفة ومن علم... وفيما يخضني أنا، لم أضغط على إبراهيم في تغيير مصطلح (الموروثات الشعبية) إلى (المأثورات الشعبية) التي استخدمها، وأراه يختلف عني، وكان مجرد الإشارة من مشرف إلى طالب كفيلة بذلك،

لكننا في قسم اللغة العربية نحترم طلابنا، ونجعلهم يحترمون أنفسهم واختياراتهم، ولا نريد من طلابنا أن يكونوا نُسَخًا مكررة منا...".

هذا ما قاله أستاذي في المناقشة، ومما يقوله لطلابه - وقد حضرت له أوّل محاضرة في بداية فصل دراسي يُلقِيها على طلاب البكالوريوس في مدرّج كبير يضمّ المئات من الطُّلاب والطَّالبات في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة القاهرة- قال لهم معادلة ورثها عن أساتذته، ويورثها لهم: وهي أنّ (أ = ط + ز)، ومعناها وفكّ رموزها الذي فهمته من هذه المعادلة وتعلّمته أنّ الأستاذ هو حاصل جمع الطالب زائد الزّمن، وعلى الطالب أن يكون إضافةً لأستاذه وامتداداً له، لا أن يتوقّف عند ما قدّمه أستاذه، ليحقق التّقدّم في العلم، والتواصل بين الأجيال، وهذا شرط لا مناصّ منه، ولا محيص عنه، ولا كرامة لمن لم يُضَفْ أو يأتِ بجديد يُحرّك عجلة الدّرس العلمي والأكاديمي خطوةً إلى الأمام؛ لأنّ الإضافة والتراكم من شرط العلم اللازم، ومن طبعه اللازم.

ومما تعلّمتُ منه في تلك المحاضرة أيضاً ذلك الحضور الودود مع طلابه في القاعة، وجمال الأسلوب في خطابه لهم، ومقدار الديمقراطية معهم في اختيار الكتاب المقرّر، حيثُ طلب إليهم أن يقرؤوا في أيّ كتاب في الأدب الشّعبي يحقّق مفردات المقرر وأهدافه، وعلى الرغم من أنّ كتبه القيمة ودراساته الكثيرة تملأ السّمع والبصر، وتزخر بها المطابع ودور النشر؛ لكنه لم يطلب منهم أن يقتنوا أيّاً منها، بل أحالهم إلى كتاب "فنون

الأدب الشعبي" لأحمد رشدي صالح، وإلى كُتُب د. عبد الحميد يونس، وغيرهما.

حينَ انتهت المحاضرة اصطحبته، وفي طريقه إلى مكتبه في قسم اللغة العربية كم استوقفنا من الطلاب والأساتذة مُسلمين ومُحبين، وقال لي حين طلبتُ منه أن يوجّهني إلى أيّ كتابٍ أو مرجعٍ حتى أبدأ في أطروحتي، فقال: "اذهب يا إبراهيم، واشتغل، وتوكل على الله، أنت أدرى بموضوعك، وأقرب إليه".

زرتُه ذات مرةٍ في العام 2003م، وهو رئيس الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية لتوقيع يخصّ رسالتي عند إنجازها، وكان ذلك قُبيل مناقشتها، فتعلّمتُ منه درسًا عظيمًا في الأخلاقِ ومكانة الأكاديمي حين يتولّى مَنْصِبًا كبيرًا، فعلى الرغم من مشاغله والتزاماته الكثيرة تجاه مؤسسةٍ كبيرةٍ إلا أنَّ طلابه لهم الأولوية، والوقت اللازم، والضيافة المقدّرة من سكرتارية مكتبه، ولا يؤخّره طرفةٍ عينٍ إلا ريشما يخرج من هوليديه، بل ويُقدّمون فورًا على كلّ عملٍ أو أحدٍ، هنا تُدرِك قيمة العلم وطلابه لدى هذا الأستاذ العالم، ثم يستقبلُكَ كأعزّ ضيفٍ بكلّ ترحابٍ وبشاشة، فتدرِكُ أخرى أنّه صادق السُّلوك، نقي الأسلوب والروح، بلا تكلف.

وقد جمع إلى ثقافته الشعبيّة الأصيلة في روحها وبساطتها وسموّها، ثقافة العربي المُح الذي يرى (أنّ البَشاشة قِرى)، وهي إدامُ العلماء، وسجّيةُ الحكماء، وأنّ الابتسامَة وحسنَ العبارة للضيف ضيافةٌ كاملةٌ، فما بالك

بأن يكون المضيف هو أستاذك ومشرفك، وفي عمله الرسمي بفخامته ومكانته، لله دَرَك! أيها الأستاذ الكريم الأصيل الذي لا يتغيّر للمناصب، ولا يتكلّف لها لأنّه أكبر منها في كل أحوالها بما يمتلكه من العلم مكانةً وتمكّناً ومكاناً.

أستاذنا القدير رجلٌ إداريٌّ متميزٌ، حيثُ تولّى مناصبَ كثيرةٍ إداريةً ودبلوماسيةً، فلم تمنعه جميعها عن البحث العلمي والإضافة المعرفية، بل إنه كان يُسخر المواقع التي تولّاها -غالبًا- ليؤسّس لهدفه الممتد، ويبنى فيه لبننةً في مشروعه الكبير، ويضيف بصمةً إنجازٍ في كلّ موقع تولاه، وهو مؤسّس وصاحبُ رؤية واضحة وهدف كبير وطريق ثابت متجدّد.

وإذا ما استعرضنا تلك المواقع أدركنا ارتباطها برؤيته ومساره، ومنها: أنّه أسّس المعهد العالي للفنون الشعبية بأكاديمية الفنون وأنشأه، عام 1981م، وهو المعهد الوحيد من نوعه في العالم العربي، وأول معهد متخصص في مصر في الفنون الشعبية، وكان أوّل عميدٍ له، في الفترة من عام 1981 حتى عام 1987 حيثُ أرسى دعائمه، وفلسفته، ومناهجه.

وحقّي في مناصبه التي كان يتولّاها خارج مصر فهو يهتمّ بمشروعه ويقوم بمهامّه، نلاحظ ذلك في إنشاء المعهد المصري لدراسات البحر المتوسط بمدريد، عام 1991م. وإنشاء المعهد المصري للدراسات (الإيروأمريكية) بمدريد أيضًا، عام 1991م.

من أهم أعمال أستاذنا القومية المفيدة - في مسح مصر مسحًا ميدانيًا - إنشاء "الأرشيف المصري للحياة والمأثورات الشعبية" مع الأستاذ الدكتور أسعد نديم - رحمه الله - عام 2006م، ذلك الأرشيف الذي كان حُلْمَ الرُّوَادِ أمثال د.سهير القلماوي، ود. عبد الحميد يونس، ود. عبد العزيز الأهواني، وأحمد رشدي صالح، وتلاميذهم من بعدهم، وكانت البداية في عام 1957م بإنشاء مركز الفنون الشعبية ولجنة الفنون الشعبية بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية. وبإنشاء هذا المركز وتكوين اللجنة نشطت حركة جمع المأثورات الشعبية وثوثيقها، ومحاولة تصنيفها تمهيدًا لإنشاء هذا الأرشيف (الحلم) الذي يقوم على توثيق الذاكرة الشعبية والحفاظ عليها حتى تتحقق بسعيهم وجهودهم ومثابرتهم في العام 2006م، ومن مهام هذا الأرشيف المتميز الجمع، والتوثيق، والتصنيف، والدراسة، وشارك فيه الآن أكثر من 15 أستاذًا وخبيرًا، كما يعمل فيه أكثر من 40 شابًا وشابة من ذوي الخبرة في الجمع الميداني من الحاصلين على دبلوم الدراسات العليا من المعهد العالي للفنون الشعبية، والحاصلين على ليسانس آداب قسم اجتماع شعبة انثروبولوجي.

ومن أبرز أعماله التي تُذكر فيُشكر عليها أنه سعى إلى إدراج العناصر الثلاثة: (السيرة الهلالية، والتَّحْطِيب، والأراجوز) ضمن مشروع اليونسكو للحفاظ على "روائع التراث الشفاهي للإنسانية" وقد حصل مشروع جمع السيرة وتوثيقها على جائزة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان،

وغيرها، وتقوم الجمعية المصرية للمأثورات الشعبية التي يرأسها على تنفيذ المشروع بالتعاون مع اليونسكو. كما أنه تَبَنَّى مشروع توثيق وتنمية فنّ الثَّيِّ - (بضم التاء واللام المشدّدة المكسورة)، وهو نوع من التّطريز المصري الذي يستخدم الخيوط المعدنية الفضية أو الذهبية اللامعة- بتعاون بين المجلس القومي للمرأة والجمعية المصرية للمأثورات الشعبية. وشارك في إصدار أوّل أطلس للمأثورات الشعبيّة المصريّة، عام 2006م، وغيرها من الأعمال المهمة.

عمل أستاذنا وكان أستاذًا زائرًا في عددٍ من الجامعات العالمية والعربية منها: جامعة هارفارد، كامبردج بالولايات المتحدة الأمريكية، عامي 1975، 1976م، وجامعة تكساس، أوستن بالولايات المتحدة الأمريكية، عام 1983، وجامعة بنسلفانيا، فيلادلفيا الولايات المتحدة الأمريكية، عام 1987م، وجامعة كمبلوتنسي بمدريد، إسبانيا عام 1988 (وقد قرّرت الجامعة اعتباره أستاذًا فخريًا بقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية منذ عام 1989م)، ومن الجامعات العربية: جامعة الكويت، عام 1985م، وجامعة الإمارات العربية المتحدة، بالعين، عام 1994م، هذا فضلًا عن محاضراته العديدة والمتجدّدة في الجامعات المصرية، ومنها: جامعة عين شمس، وأكاديمية الفنون، بما يتبعها من معاهد مثل: المعهد العالي للفنون الشعبيّة، ومعهد الفنون المسرحية، ومعهد الموسيقى

العربية، وغيرها، وكذلك جامعة حلوان، وجامعة المنصورة، وجامعة الإسكندرية.

وقد ناقش وأشرف على عدد من رسائل الماجستير والدكتوراه كما أشرف على الأنشطة الطلابية والشبابية داخل جامعة القاهرة وخارجها لسنين عديدة أمدَّ الله في عُمره وعطائه العلمي.

ومن أعماله المهمَّة والخالدة أنَّه أسَّس الجمعية المصرية للمأثورات الشعبيَّة، وذلك للحفاظ على المأثورات الشعبيَّة وجمعها وتوثيقها وتصنيفها، وهو يشبه (بيوت الخبرة) لجمع التراث الشعبي والاهتمام به دراسةً واقتناءً، مادةً ومحتوى.

ظَلَّ أستاذنا يَكْتُبُ وَيَدْعُو- في مقالاته ودراساته، وفي الملتقيات الثقافية والمؤتمرات الكثيرة المحلية منها والدولية التي شارك فيها- إلى أهمية وجود أرشيف كبير عام يضم المأثورات الشعبيَّة بكل أصنافها وأشكالها وفنونها، وبالمادي منها والقولي، وقد سمعته ذات يوم في القسم، وهو يتحدَّث -بحرقة- عن كيف يصنُّع العالم بمأثوراته، وكيف يوثَّقها، ويهتم بها، بل وكيف يفعل العدو الصُّهيو في بمأثوراتنا العربيَّة، ويوثَّقها من خلال المواقع الإلكترونيَّة على أنها من تراثه، ويسجِّلها في منطَّمات وأرشيفات عالمية منسوبةً إليه، ونحن نتفرَّجُ على تراثنا ومأثوراتنا تُنسبُ لغيرنا، بل وتُنْتَهَبُ وتغتصبُ كما اغتصبت الأرض، ولا نحرِّكُ ساكنًا، ولا ندري عن ذلك شيئًا.

لأستاذنا سيرة ذاتية زاخرة وزاهرة بكل إنجاز وتنوع، على المستوى الأكاديمي والإداري والدبلوماسي، وهو صاحب الخلق الرفيع الأصيل، والدبلوماسية الشعبية العالية -إن جاز التوصيف- فهو إلى جانب علمه، وما صقلته به التجارب والأبحاث والخبرة يمتلك المعرفة بالناس، ويتلمس الجوانب الإنسانية والروح التقيّة في الإنسان المصري البسيط، ويدرك جوهره ومعدنه الأصيل، ومن هنا فلم تكن الدبلوماسية مرحلة من مراحل حياته الوظيفية فحسب، بل هي سلوك امتاز به، وسار عليه وتجسّد في حواراته، ومحاضراته، وأسلوبه، وتعامله.

ومن تلك المناصب الدبلوماسية التي شغلها نذكر أنّه كان مستشاراً ثقافياً بالسفارة المصرية، ومديراً لمكتب البعثة التعليمية بإيطاليا، 1979-1980. ثم مستشاراً ثقافياً ومديراً للمعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدير، إسبانيا، 1987-1992م، وكان مفوضاً عاماً ومشرفاً على الجناح المصري بالمعرض العالمي (EXPO92) بأشبيلية، إسبانيا، من عام 1988-1992م.

وقد نال الأستاذ الدكتور أحمد مرسى عددًا من الجوائز الرفيعة من أهمّها: جائزة طه حسين، عام 1964، وجائزة الدولة التشجيعية في الفنون من المجلس الأعلى للثقافة، عام 1985، ونوط الامتياز (مصر)، عام 1991، ووسام الاستحقاق المدني (إسبانيا)، عام 1992، ووسام الفنون الجميلة (إسبانيا)، عام 1993، وجائزة الدولة للتفوق في الآداب من المجلس الأعلى

للثقافة، عام 1999، وجائزة جامعة القاهرة التقديرية (جائزة نجيب محفوظ للإبداع الفكري والأدبي)، عام 2006، وجائزة الدولة التقديرية في الأدب من المجلس الأعلى للثقافة عام 2006م.

أمّا عن الأعمال الإدارية والمناصب الثقافية التي شغلها، فهي كثيرة نذكر منها: أنّه كان مديرًا لمركز الفنون الشعبية، بوزارة الثقافة من عام 1976 حتى 1978 بالانتداب، ومستشارًا لمركز التراث الشعبي لدول مجلس التعاون الدولي من عام 1984 حتى عام 2004، ورئيسًا لتحرير مجلة الفنون الشعبية بالهيئة المصرية العامة للكتاب منذ أعاد نشرها وبعثها من جديد في العام 1987، وما يزال حتى الآن. ومستشارًا لوزير الثقافة لشؤون التراث الشعبي عام 1997. ورئيسًا للهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية من عام 2003 حتى عام 2005م، وغيرها.

وعلى الرغم من كلّ تلك المشاغل والأعمال إلا أنّ شأغله الرئيس، وعمله الأوّل، واهتمامه الأكبر هو الكتاب، والبحث العلمي، والقاعة الدراسية، والطالب بشكل أساس هو ميدانه الذي ظلّ يُراهن عليه، ويستثمر فيه، ومن هنا فإنّ طلابه هم ورثته الحقيقيون وامتداده الطبيعي.

وأما عن كُتب أستاذنا وأبحاثه فقد أضحت مراجع في بابها، وطُبعت عدّة طبعات لأهميتها، ولا تكاد تخلو رسالة علمية أو بحث محكّم أو مقال أدبي ذو بالٍ من الإشارة إلى كُتبه بوصفها مراجع علمية رصينة، وليس لنا في هذه العُجالة إلا ذكر تلك الكتب، وبمجرّد حضورها

تتداعى حولها الاقتباسات، وتنداحُ في الذّاكرة البحثية الإشارات لهذه المراجع المهمة التي كان من أوّلها دراسته الميدانية التأسيسية في الماجستير عن (الأغنية الشّعبية: دراسة ميدانية في منطقته البرّس، عام 1966م)، ثم دراسته في الدكتوراه عن (المأثورات الشّعبية الأدبية: دراسة ميدانية في منطقة الفيوم، عام 1969م) التي درس فيها ميدانياً أغلب الفنون الشّعبية في منطقة الفيوم بوصفها - كما يرى جمال حمدان - "مصر الصّغرى" فكأنه بهذه الدراسة قد درس مصر بأكملها، ودرس العادات والتقاليد في مجتمع الفيوم المرتبطة بمجالات التحكيم العُرفية، وعادات الأفراح والموالد، وعادات الجنازات، والجزء الآخر من الدراسة عرض لموضوعات المثل ووظيفته وعلاقته بالأغاني والحكايات، ثم درس الأصل اللغوي للحِرز والاستعمال الشّعبي له ووظيفته وعلاقته بالحكايات الشّعبية، كما درس الأغنية الشّعبية وخصائصها الدينية، وأغاني العمل، وأغاني الأفراح والبكائيات، والموال الشّعبي، ودرس الحكاية الشّعبية وعلاقتها بالأسطورة وأنواعها مثل حكايات الجان، وحكايات الحيوان، وحكايات البطولة الخارقة، وغيرها بما قد ينوء بالعُصبة أولى القوة، حيث إنّ كلّ جنسٍ من هذه الأجناس تقومُ بها رسالةٌ مستقلةٌ، ولكنّها همُّ الرجال، وديدنُ الدراسات التأسيسية الرّصينة، ثم تتوالى مؤلفاتُ أستاذنا وإنجازاته البحثية متمثلةً في الكتب الآتية:

- دراسات في الفولكلور (مع آخرين)، عام 1971.

- الأغنية الشعبية، عام 1971.
- مقدمة في الفولكلور، دار الثقافة، القاهرة، عام 1975. (طبع مرارًا).
- الفولكلور والإسرائيليات (ط1)، عام 1976، وطبعة ثانية عام 2003م.
- الأغنية الشعبية: مدخل إلى دراستها، دار المعارف، القاهرة، عام 1982.
- المأثورات الشفاهية (ترجمة)، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، عام 1982، وطبع عدة طبعات.
- الأدب الشعبي وفنونه، وزارة الثقافة، الثقافة الجماهيرية، مكتبة الشباب، العدد (5)، عام 1984.
- أبحاث في التراث الشعبي (مع آخرين)، عام 1986.
- الفن الشعبي المصري (مع آخرين) مدريد، إسبانيا، عام 1987.
- عالم نجيب محفوظ (بالإسبانية) مع آخرين، مدريد، عام 1989.
- مصر مهد الحضارة (مع آخرين) مدريد، إسبانيا، عام 1992.
- المجتمع المصري (المجلد 9) من موسوعة مصر الحديثة، عام 1997.
- من مأثوراتنا الشعبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة)، القاهرة، عام 1998.
- كل يبكي على حاله (دراسة للعديد)، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، عام 1999.
- الأدب الشعبي وثقافة المجتمع، عام 1999.
- الأغاني الشعبية في صعيد مصر، عام 2001.

- الإنسان والخرافة (الخرافة في حياتنا)، عام 2003.

وأما عن الأبحاث العلمية المحكّمة فهي بالعشرات، وكذلك المقدمات للكتب التراثية والدراسات الميدانية والأدبية والمقالات في الدوريات والمجلات المهمة بالأدب الشعبي في مصر، والعراق، والكويت، والبحرين وغيرها من المنابر.

وكذلك الأوراق العلمية التي أُلقيت في مؤتمرات وملتقيات دولية ومصرية، فلا يتسع المجال لعرضها، وهي موجودة ومعروفة في مضانها، ونرجو من أستاذنا أن يجمعها في كتاب حتى يستفيد منها الباحثون، والدرس الأدبي الشعبي.

نفع الله بأستاذنا وبعلمه، وأمدّه من الخير بما هو أهله؛ جزاء ما علّم وألّف، وأعطى ودرّس، وباهتمامه بالأدب الشعبي وبروحه وجماله، وبما أفاد وأجاد، فأضاف ما يستحقّ الإشادة، وقدّم ما فيه التّفع والإفادة.

(فصلُ الخطاب)

"شغلّ موضوعُ العلاقة بين الأسطورة والخرافة والعلم كثيراً من الدارسين والباحثين في مختلف العلوم الإنسانية، ووقفَ معضّمهم موقفًا معاديًا شديد العداء للخرافة، وأنماط التفكير والسلوك المرتبط بها، مُقرّرين أنها مناقضة للعلم والعقل ناسبين إياها للمتخلّفين حضاريًا الذين

لا يأخذون بالعلم وأسبابه. والحقيقة أنَّ الخرافة تشترك مع العلم - رغم تناقضهما بالطَّبع - في تحقيق مجموعة من الوظائف المهمة التي يحتاجها الإنسان، إنهما يشتركان في تفسير الظواهر والأشياء الغامضة التي تُقلق الإنسان وتُحيرُه، وتقضُّ مضجعه، وتفقده الشعور بالراحة والأمن والطمأنينة؛ حتى يستطيع أن يمضي في الحياة، وأن يكون مهياً دائماً لتقبُّل ما لا يستطيع فهمه أو إدراكه أو التعامل معه في اللحظة الراهنة التي قد لا توفر له الأسباب الكافية والمقنعة للفهم. كما يشتركان أيضاً في إيمان الإنسان أنَّه عن طريقهما يمكنه أن يحقق حاجاته الإنسانية الطبيعية، فإذا لم ينجح بواحد منهما، ربما نجح بالآخر، وأن يحقق التَّفعَّ نفسه، ويجلب الخير له ولأهله، بالقدر نفسه الذي يمنع به عن نفسه وأهله الضرر، ويدراً الخطر... د. أحمد علي مرسى: كتاب الإنسان والخرافة (الخرافة في حياتنا).

تَحِيَّة

("يَصْبَحُكَ وَيَرَبِّحُكَ وَبَيْنَ الْعِبَادِ مَا يَفْضَحُكَ")

أَسْتَأْذِنُ الْعَلَّمَ الْعَلِيمَ

هَذِي تَحِيَّةُ صُبْحِهِ

وَصَبَاحُهُ الْأَمَلُ الْعَظِيمُ

#مَثَلٌ عَمِيقٌ #شَاهِدٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ

إِشْرَاقَةٌ تَأْتِي بِمَعْنَاهَا الْعَمِيقُ
قَوْلٌ حَكِيمٌ مُرْسَلٌ
يُنْبِي عَنِ الشَّعْبِ الْعَرِيقِ.
صَدَقَ الْحَدِيثُ شِعَارُهُ
رُوحُ الْبَيَانِ مَنْارُهُ
رَمْزُ التَّجَارِبِ وَالسَّلَامِ
أَيَقُونَةُ الْوُجْدَانِ فِي عَبَقِ الرَّحِيقِ
مَنْ الصَّدِيقِ إِلَى الصَّدِيقِ.
مَا أَجْمَلَ الْقَوْلَ الْمُنِيرَ إِذَا اكْتَسَى
بِالْعَقْلِ فِي حُسْنِ الْعِبَارَةِ وَالْعَمَلِ!
"يَصْبَحُكَ وَيَرْجَحُكَ..."
تَصِلُ الْعِبَادَ بِرَبِّهِمْ
وَصَلًّا هُوَ الزَّادُ الْفَضِيلِ
فِي كُلِّ يَوْمٍ نَنْتَظِرُ
إِشْرَاقَةَ الصُّبْحِ الْجَمِيلِ بِقَوْلِهِ:
"يَصْبَحُكَ وَيَرْجَحُكَ".





(21) الأستاذ الدكتور عناد غزوان
(الأكاديمي الموسوعي، وشيخُ النقاد العراقيين)

كانت صنعاء في وقت عافيتها وشبابها النَّاضر بالحياة وبالجمال حاضنة المروءة، وحافظة الوفاء لأنها جُبِلت عليه، وعُجنت من طينته، ونُقِشت من مائه، وقد استقبلته بكلِّ محبة وترحاب في العام 1997م أستاذًا زائرًا في جامعته برعاية واهتمام من رئيس الجامعة الأكثر حضورًا في تفاصيل سيرها وسيرتها، وهو الدكتور عبد العزيز المقالح -حفظه الله- الذي كان عهدُه من أزهى وأزهر عهود الجامعة عطاءً وتميزًا، وأستاذةً كبارًا بكلِّ معنى الكلمة، وكان ضيف حديثنا اليوم هو الأستاذ الدكتور (عِنَاد غَزْوَان) الذي سيُدْهشنا في محاضراته على الرُّغم من قِلَّتْها -ثلاث أو أربع محاضرات- في مقرر (دراسات في الأدب القديم) ونحن في مرحلة التمهيدى للماجستير وقد ألقى بعضها علينا في مقرِّ إقامته بدار الضيافة في مبنى جامعة صنعاء، وفي قاعةٍ ملحقة بالمبنى التقيناه أستاذًا وقورًا بشوشًا ذا صوتٍ جهوريٍّ إذاعيٍّ، ولم نكن نعرفُ الرجلَ، وما مستواه، ولا نعرف عن علمه وكتبه شيئًا -على الأقلِّ أنا- لكن الزملاء أثناء الانتظار في صالة دار الضيافة كانوا يتبادلون بعض الكلمات عنه، وكيف أنَّ رئيس الجامعة -وهو ممن كان يدرِّسنا أيضًا في تمهيدى الماجستير- وكذا رئيس القسم قد حرصا على أن يُعطينا الدكتور عناد بعض المحاضرات في تخصُّصه، لأنَّه قد درَّس المقرر لثلاثة عقود ونيف، وله فيه عدد من المؤلفات المهمَّة، كانت الدفعةُ مكوَّنةً من الزملاء الذين عدا أغلبهم اليومَ أساتذةً في جامعات مختلفة، وفي بلدان متباعدة هم -بحسب الألفبائية-: آمال جُبَّاري، وابتسام المقطري،

ومحدثكم، وأحمد المنصوري، وحسين الزراعي، وسُعاد الحدادي، وعبد الرحمن الصعفاني، والشاعر العقيد عبد الله معجب، والأستاذة القيادية فاطمة محمد بن محمد، وفاضل القعود، ومحمد جميح، وهدي الصّايدي، وكان التنافس على أشده، ولكن بما هو حقٌ للعلم وللمرحلة التي نخوضها، ومِنّا -يومئذٍ- من كانَ موظفًا كبيرًا كالأستاذة فاطمة، والعقيد مُعجب، ومِنّا من كان مُعيدًا، ومِنّا من ينتظر، وحين برزَ إلينا أستاذنا من مقرِّ إقامته رحّب بنا، ودخلنا إلى قاعة قريبة للمحاضرة.

وحين أتذكّرُ الجملَ الماثورة المصاحبة للقاءات الأولى "تكلّم نعرفك- والمرءُ مخبوء تحت لسانه" وأمثالها مما يتداوله البيان العربي أدركُ أهمية اللقاء الأول في رسم الانطباع، وكيف كان الرجل منذ أوّل عبارة نطق بها متمكّنًا من تخصصه، بارعًا في البيان، مركّزًا في العبارة، سهلًا في التوصل مع عمق في الطرح وخلفية موسوعية كبيرة في المحتوى، على الرغم من حالته الصّحية؛ حيثُ كان متعبًا من آثار عملية جراحية في البطن، وقد أخذنا بعيدًا في تفاصيل لم نكن نعرفها، وطرحَ لنا قضايا في الأدب القديم -نقديةً وإبداعيةً- لم نكن قد قرأناها في كتاب، ولم نسمعها من أستاذ، حينها أدركنا مقامه وحرصَ الجامعة ورئيسها على استضافة مثل هذا الأستاذ الكبير، والأكاديمي القدير.

وقد كان العامُ الذي جاء فيه عامًا حافلًا بالنسبة إليّ -على المستوى الشخصي- وعلى مستوى الدراسة والجامعة، فبالنسبة للجامعة كانت أشبه

بخلية حياة كبيرة عامرة؛ حيث كانت حاضنة لأساتذة عراقيين كثر وبخاصة أثناء حصار بغداد، فقد كان في جامعة صنعاء عددٌ كبيرٌ منهم - على سبيل الذكر لا الحصر - د. طارق نجم عبد الله - وكان حينها رئيس قسم اللغة العربية في آداب صنعاء - ود. إبراهيم السَّامرائي، د. علي جعفر العلاق، د. عبد الرضا علي، د. حاتم الصكر، د. عبد الإله الصائغ، د. رشيد ياسين، د. شاكر خصباك، وعائد خصباك، د. عَبدِ علي الجسماني، د. فلاح شاكر أسود، د. الراوي، ثم من بعدهم د. وجدان الصائغ، ود. صبري مسلم اللذين عملا في جامعة ذمار، وغيرهم الكثير والكثير ممن أثروا جامعة صنعاء بتدريسهم وعطائهم العلمي والإبداعي، وكان منهم وفيهم أستاذنا د. عناد غزوان الذي جاء، ولكنه لم يُطل المكوث؛ حيث غادر صنعاء سريعاً لارتباطه الإداري والأكاديمي بجامعته في بغداد.

وإذا ما اقتربنا من التعرُّف على أستاذنا عناد غزوان، وهو المعرَّف والمعرفة، والعَلَم الذي لا يزيد تعريفنا له إلا حَرَجًا لنا، فهو قامةٌ إبداعيةٌ ونقديةٌ وعلميةٌ وأكاديميةٌ وإنسانيةٌ كبيرةٌ، ولكن لا بدَّ من عرض بعض التفاصيل المهمة عن الرجل - رحمه الله - فهو الأستاذ الدكتور عناد غزوان إبراهيم الجنابي (1934 - 2004م)، أستاذ الأدب الجاهلي والنقد القديم في جامعة بغداد، أنهى دراسته الابتدائية والإعدادية والثانوية ثم الجامعية في بغداد، وحصل على شهادة (الليسانس) بمرتبة الشَّرف من قسم اللغة العربية في دار المعلمين العالية عام 1956م، ثم حصل على شهادة الدبلوم

العالي من جامعة (ريدنج - University of Reading) بإنجلترا عام 1959م، وعلى شهادة التعليم من الجامعة نفسها عام 1960م، وعلى دكتوراه الفلسفة في الأدب العربي من جامعة (درام - Durham University) بشمال إنجلترا عام 1963م، ومن هنا كان تكوينه العلمي يمتازُ بالأصالة والاهتمام بالتراث العربي وبالترجمات والتميّز المنهجي الدقيق الذي اكتسبه من التعليم في الغرب وبخاصة في بريطانيا، ولهذا كانت لغته الإنجليزية قوية ودقيقة ظهرت في ترجماته لعددٍ من الكتب المهمة التي سنقف عند ذكر بعضها.

وأما عن الجانب العملي والأكاديمي فقد ترأّس قسم اللغة العربية في جامعة بغداد لعدّة سنوات، وكان معاونَ العميد في شؤون الإدارة بكلية التربية عام 1967م، ثم أصبح عميداً لكلية أصول الدين عام 1973م، ورئيساً لقسم اللغة العربية بكلية الآداب 1990-1993م، ورئيساً لجمعية المترجمين للفترة من 1989م-1998م، ورئيساً مُنتخباً للمجلس الأعلى للجمعيات العلمية عام 1991-1993م، وكان رئيس الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق عام 2003م، وعضواً في رابطة نقاد الأدب، وغيرها من العضويات الأكاديمية والإبداعية والشرفيّة في العراق وخارجها.

مما تعلمتُ من أستاذنا عناد غزوان -وفي محاضراته التي ألقاها علينا- الدقّة في العبارة، والوضوح في طرح المقصود دون تطويلٍ ممّلاً أو

اختصارٍ مخلٍّ، يمتلك ناصيةً المعنى، ولا يخذله المبنى في حديث أو قول أو موقف، وعلى الرغم من محاضراته القليلة التي ألقاها علينا -وكنّا نطمعُ في المزيد- وقد جاءت متّوجّهةً ومعزّزةً لما كنّا قد تلقيناه في المقرر عند أساتذتنا الآخرين أمثال أ.د. عبد الملك مرتاض، ود. طه أبو زيد وغيرهما ممّن درّسنا وأعطانا بعض المعارف، والمناهج، والقضايا المفيدة عن دراسة الأدب القديم، لكن محاضرات هذا الأستاذ العالم كانت مختلفةً سهلةً ممتنعةً -إذا جاز التعبير- وهي تشبه أسلوبه في عمومها، فلم يكن يقرأ من ورقةٍ أو يملي علينا من كتابٍ، بل كان متدفّقاً لا يستعصي عليه الكلام متى أَراده، وكانت لغته الفصيحة طيّعةً -مع اللكنة العراقية المحبّبة- وكان ما يعرضه علينا في المحاضرات جديداً بمنهجٍ دقيقٍ، وزوايا رؤيةٍ تدلُّ على طول معاشيةٍ وبحثٍ وتدقيقٍ في النقد وقضاياها المهمة رابطاً لها بعصور الأدب القديمة واللاحقة، وبمناهج معاصرة في التناول والفهم، وكان يحاضر بلباقةٍ، ويحبُّ بنا التاريخ الأدبي القديم والحديث بمهارةٍ، وهو مطلّعٌ على النقد الأدبي والأدب المقارن وتاريخ الأدب بكلِّ مراحلها، وعلى معرفةٍ بالأدب العالمي لإجادته للغة الإنجليزية، وكان ينقلُ منه منتخباتٍ تدلُّ على رقيِّ معرفته، وعمق علمه حتى يحيلُ إلى طلابه أنّه متمكّنٌ من كلّ شيءٍ، ويمتلك كلّ شيءٍ.

ولا عجب في ذلك فحين تطلّع على سيرته تدركُ هذا الثراء، وتقترُبُ من مكامن التكوين المعرفي؛ لأنه واحدٌ من خريجي (ندوة الثلاثاء)

التي أسَّسها شاعر ثورة العشرين (محمد مهدي البصير)، وهي ندوةٌ كانت تستمدُّ وُعيها وفلسفتها وتميزها - في وقت مبكر من تاريخ العراق الحديث - من جمع المعاصرة بالتراث، والحداثة بالأصالة، والعالمي بالمحلي، وهذا ما ظهر لدى أستاذنا عناد غزوان ولدى من جالَّه وعاصره من خريجي هذه المدرسة (البصيريَّة)، وكان البصيرُ الشاعرَ والمعلِّم الذي أحدث بنيةً تواصليةً في قلب الثقافة العربية الأحادية في العراق، وقد تبعه تلاميذ ومريدون كُثُر من أبرزهم: د. علي جواد الطاهر، ود. جلال خياط، ود. عناد غزوان وآخرون.

ومن هنا تجد في تكوينه أنَّه يضعُ قدمًا راسخةً في التراث وقدمًا أخرى ثابتةً في المعاصرة، ويجمعُ في الخطى بينهما في صعيد واحد، فهو حين يكتب أطروحته للدكتوراه في مكانة القصيدة العربية بين النقد والرواية، كان في الوقت ذاته، والمرحلة نفسها يُترجمُ كتاب (ت. س. إليوت).

وحين مزجَ عناد غزوان في تكوينه بين هذه الآفاق، وعزَّزها بالاتصال المباشر بالغرب، وبتطبيق المناهج على التراث العربي، وقَدَّم للمكتبة العربية أهم ما يفيدُ من الترجمات صار صاحب رؤية خاصة، ومدرسة متمكَّنة، وهو من الجيل العراقي الذي رسم ملامح الازدهار المعرفي والمنهجي في الدَّرس الأكاديمي العربي في العراق في المراحل المهمة من تاريخ الجامعة العراقية، وكانت - حينها - قبله للدارسين من اليمن، ومن غيرها، ومن هنا كانت البعثاتُ تَتَرى، تنطلقُ من جامعة صنعاء إلى الجامعات

العراقية لوجود مثل هذا الأكاديمي القدير وغيره، وقد كنتُ واحدًا ممن يَمَمَّ عَزَمَه، وحزَمَ مقصدَه نحو العراق؛ كما فعل زملاؤنا د. أحمد المنصوري، ود. حيدر غيلان، ود. محمد العبيدي، ود. عبد الحميد الحسامي، وغيرهم من الذين أكملوا دراستهم العليا فيها، ولكنَّهم كانوا قد سبقوا بعام أو عامين، وشاء الله أن تكون قبلي العلمية بعد ذلك هي أرض الكِنانة مصر العربية، وكانت إرادة الله هي الخيار الذي يخفيه الله لعبده ويرضاه له، وكانت -بحمد الله- الأفضل، فقد حدث سقوط بغداد الثاني عام (2003م) على يد التَّار الجُدد، وعاد كثير من طلاب الدراسات العليا أو تفرَّقوا أو تأخَّروا بسبب تلك الأحداث، وأما بقية زملاء الدفعة السَّابق ذكرهم، فمنهم من أكمل الماجستير في جامعة صنعاء، ومنهم من توقف ولم يكمل، ومنهم مَنْ ابتعثَ إلى بريطانيا أو إلى المغرب العربي أو إلى مصر، وصاروا الآن أساتذة جامعيين وأكاديميين مرموقين يُشارُ إليهم بالبنان.

وكما قلتُ في بداية الحديث بأنَّ عام 1997م كان عامًا حافلًا على المستوى العام، والحراك الثقافي في صنعاء، ففيه كان تأسيس (النَّادي الأدبي اليمني) مع عددٍ من زملاء الدُّفعة، وكانوا أصحابَ همَّة عالية وطموح كبير، وبقيادة الطبيب المثقف والطَّموح د. علي المضواحي. وقد سافرنا في ذلك العام إلى العراق للمشاركة في مهرجان المربد مع الزميلين د. حسين الزراعي، ود. محمد جميع، ود. محمد ضيف الله الشَّماري، ممثِّلين عن النادي

الأدبي، كما شارك عن اتحاد الكتّاب والأدباء اليمنيين عددًا آخر منهم عبد الكافي الرحي، وهدى أبلان، وابتسام المتوكل، ومقبل نصر غالب، وغيرهم. كما كان السّفرُ بعد تلك الرحلة الثقافية إلى مصر للمشاركة في مهرجان المسرح التجريبي مع د. محمد ضيف الله، والممثل خالد مشوار رئيس فرقة المسرح بالنادي، وقد توجّ تلك المناشط جميعًا -على المستوى الشخصي، وكان الأهم- هو أنني تعينتُ معيدًا في جامعة صنعاء بعد رحلة معاناةٍ استمرّت خمس سنواتٍ عجافٍ في المعاملات، والمحاولات، والمكابدات.

وفي العام الثّالي شاركنا في (مهرجان بابل الدولي) في العراق، وأوّل زيارةٍ حرصنا عليها كانت زيارة دار الشؤون الثقافية العامة في بغداد تلك الدار العريقة التي كانت تطبعُ الدُّرَر والغُرَر من الكتب العراقية والعربية: المؤلّف منها، والمترجم، والمحقّق، وقد اقتنيتُ منها عددًا من إصداراتها التي كانت بالنسبة لي كنزًا ثمينًا أفادني بعد ذلك في دراساتي وأبحاثي، ومن ضمن ما اقتنيتُهُ كتاب أستاذنا (أصول نظرية نقد الشّعر عند العرب).

كما زرنا جامعة بغداد وجامعة المستنصرية، وفيهما التقينا بالزملاء الذين كانوا قد أوفدوا إليها وهم: د. المنصوري، ود. حيدر، ود. العبيدي، ود. أحمد الشّميري، وكذلك قابلنا د. غيلان حمود غيلان، ود. نجاة الفقيه اللذين كانا قد أوشكا على الانتهاء من الدكتوراه يومها، وكنا حريصين على لقاء أستاذتنا وبخاصة د. عناد غزوان ود. نبهان ياسين الذي

درّسنا النحو في مرحلة البكالوريوس، ولكن لم يتحقّق اللقاء للأسف بسبب ضيق الوقت، وسرعة الزيارة، وكان يا ما كان.

كان لأستاذنا عناد الكثير من الجهود في التعليم، فعلى يده تخرّجت دفعاتٌ كثيرةٌ ممن صاروا أعلامًا في الأدب والنقد والإبداع، كما كانت جهوده في الترجمة بارزةً، وبالتحديد في الكتب المهمة في تعزيز المناهج النقدية أمثال كتاب (لوركا مجموعة مقالات نقدية، إعداد وتحرير: مانويل دوران)، وكتاب (خمسة مداخل إلى النقد الأدبي، تأليف: ويلبريس سكوت) وغيرها، وقد راجع الكثير من الكتب الموضوعية والمترجمة، فكانت مراجعته وافيةً تُفيد القارئ والكاتب والباحث.

قال عنه د. حاتم الصّكر -وكأنّه يصفه بلسان حال طلابه أيضًا-: "ولكنَّ عَمَلَهُ كزائرٍ في جامعة صنعاء أواخر التسعينيات كان الفرصة الأكبر للتعرف على سجاياه الإنسانية والعلمية لفائض وقته، وقربه من سُكناي، فتعرّزت صورته التي لم تفارق مخيلتي: جادًا، متواضعًا، محبًّا للنّاس بدفق إنسانيته وبشاشته وتعامله الودود مع كل ما في الحياة من مواقف، فأنت لا تستطيع أن تستعيد صورته إلا بابتسامته المطلّة من وجهه المؤطر بنظارته، وبصوته المسبوق بضحكة صافية، وبنبرة فصيحة ذات أثر في النفس، فسرعان ما يشيع عناد غزوان المرحّ والبهجة في مجلسه، في قاعة الدّرس كما في مكتبه بالقسم أو في محاضراته الأدبية ومداخلاته النقدية".

وقد تخرّجت على يديه الكريمتين أجيالاً من طلبة النقد تعلّموا منه أولاً -وقبل كلّ علمٍ- أخلاقيات الباحث، وأمانة الناقد. وقد كان أستاذنا- بشهادة الكثير من طلابه- على الرغم من شهاداته العلميّة، ونبوغه المتفرّد، وعلمه الغزير، وحضوره الدّولي في مجال الترجمة مثلاً للكائن الإنساني البسيط، وأنموذجاً للتّواضع الهائل الذي يجعله يستمعُ إلى طلابه بكلّ محبّة، ويقدر آراءهم بكلّ ديمقراطية، ويقبل اختلافهم بكلّ سعة صدرٍ وبعْدِ أفقٍ، فيخجلهم بإنسانيته العظيمة، ويدهشهم بأستاذيته الحكيمة.

تعلّمتُ منه (أدبيّة العمل النقدي) وأنّ النقد فنٌّ قبل أن يكون علماً، بل هو فنٌّ يرتقي بالفنون الأدبيّة الأخرى وترتقي به، فالعملُ النقدي لديه هو عملٌ إبداعي؛ لأنّ النقد لا يصلح للتصدّي والمواجهة إلا بالوسائل نفسها التي يتوسّل بها العمل المتصدّي له، فالناقدُ المبدع هو الذي يبدع القواعد الجديدة دوماً وعن وعي وإدراك لجدارة تلك القواعد ومدى ديمومتها في الواقع الأدبي، لأنّ (أدب النقد) لا يختلف ولا يقلُّ -في مشروع أستاذنا- عن (نقد الأدب)، ولهذا فهو يعرفُ النقد في كتابه (مستقبل الشعر، وقضايا نقدية) بقوله: "النقد فنٌّ دراسة الأساليب وتمييزها وصولاً بها إلى تقويم فني قائم على أساس التحليل والموازنة"، ولهذا فالنقد فنٌّ يحمل أدبيّةً تضعه بموازاة أدبيّة النص المنقود، ويتحوّل إلى فعل إبداعي، وليس فعلاً جامداً يقوم على الآلية المتكرّرة عند أيّة ممارسة نقدية.

أغنى أستاذنا المكتبة العربية بوافر من إنتاجه الإبداعي في الفكر والحضارة والتراث والنقد الأدبي، وله أكثر من ثلاثين مؤلفاً؛ موزعة بين الدراسة، والنقد، والتأليف، والترجمة، والإبداع، وعدد آخر يفوقها من الأبحاث الأكاديمية المحكّمة والقيّمة، نذكر من كتبه المؤلّفة ما يأتي:

- (1) مكانة القصيدة العربية بين النقاد والرواة العرب، مطبعة النعمان، النجف، 1387هـ-1967م.
- (2) الشعر والفكر المعاصر، سلسلة كتاب الجماهير، منشورات وزارة الإعلام، بغداد، 1974م.
- (3) المراثاة الغزليّة في الشعر العربي، مطبعة الزهراء، بغداد، 1974م.
- (4) القصيدة العربية أصلها وخصائصها وتطورها إلى نهاية العصر الأموي، 1978م. (باللغة الإنجليزية)
- (5) التحليل النقدي والجمالي للأدب، دار آفاق عربية، بغداد، 1985م.
- (6) الشعر ومتغيرات المرحلة، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 1986م.
- (7) آفاق في الأدب والنقد، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 1990م.
- (8) مستقبل الشعر وقضايا نقدية، 1994م.
- (9) أصول نظرية نقد الشعر عند العرب، 1998م.
- (10) قراءات نقدية في الأدب العربي، 1998م.
- (11) نقد الشعر في العراق بين التأثرية والمنهجية، 1999م.

- (12) أصداء، دراسات أدبية نقدية، دمشق، 2000م.
- (13) مدخل إلى الشعر الجاهلي، 2000م.
- (14) أسفار في النقد والترجمة، دار الشؤون الثقافية، بغداد 2006.
- (15) دراسات في الشعر الجاهلي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، 2006.
- (16) بناء القصيدة في شعر الشريف الرضي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 2008م.
- ومن ترجماته:
- (17) (نُقَّاد الأدب)، تأليف: جورج واتسون، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1978م.
- (18) (لوركا: مجموعة مقالات نقدية)، إعداد وتحرير: ما نويل دوران، ترجمة د. عناد غزوان، جعفر الخليلي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1980م.
- (19) (الدراما والدرامية) تأليف: داوسون، 1980م.
- (20) (خمسة مداخل إلى النقد الأدبي: مقالات معاصرة في النقد)، تأليف: ويلبر ستيوارت. سكوت، ترجمة وتقديم وتعليق: عناد غزوان إسماعيل وجعفر صادق الخليلي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1981م.
- (21) (الإحساس بالنهاية، دراسات في نظرية القصة)، 1980م.

- (22) (المعجمية العربية: نشأتها ومكانتها في تاريخ المعجمات العام)،
تأليف: جون، هيوود، 2004م وغيره.
ومن مؤلفاته المشتركة:
- (23) النقد الأدبي (بالاشتراك مع الدكتور علي جواد الطاهر)
- (24) النقد التطبيقي.
- (25) تأريخ النقد العربي.
- (26) الأدب العربي.
- (27) مختارات من أدب الجاحظ.
- (28) دراسات أدبية باللغة الإنجليزية.
- (29) مرفأ الأمواج مباحث نقدية في الأدب العربي.
- ومن المؤلفات في المساقات التعليمية:
- (30) محاضرات في الأدب الإسلامي.
- (31) محاضرات في الشعر الجاهلي. وغيرها.

فصل الخطاب

كَتَبَ عن تجربة الشاعر علي جعفر العلاق في ديوانه (فاكهة الماضي) فقال: "شاعرٌ مبدعٌ، عميقُ الثقافة، وإنَّ معجمه الصُّوري يظهره شاعرًا صاحبَ تجربة عميقة الجذور بالعصر والإنسان والذكرى، إنَّ صورته الشعرية تدفعنا إلى الاعتقاد بأنَّه يرى القصيدة كيانًا فنيًا متكاملًا وسامياً

بلغته الشعرية الرمزية العالية التي تسمو على اللغة الإشارية، إن قدرته الفائقة في الجمع بين الوضوح والتجربة قد تبدو سمة فنية بارزة من سمات شاعريته المتدفقة فكراً وإحساساً. وهذا ما توضّحه هذه الصور الرائعة التي استمدها بإخلاص ومعاونة من تجارب حياته ذات النّسق الوجداني المرهف...@ د. عناد غزوان، كتاب (مستقبل الشعر وقضايا نقدية).

تَحِيَّة

(لَكَ المجدُ يا ابنَ العراقِ المجدِ
لَكَ الخلدُ والأمنيات
لأنّكَ من دجلة الحبِّ
جئتَ ومن نبعِها والفُرات
بتاريخ أياّمها الزاهرات
أُتيّت من العلمِ
عشتَ مع العلمِ
تصوغُ المحبةَ من حُسْنِها والثّبات
وتبني العقولَ بآثارِكَ الشّامخات
لهذا غدوتَ مع الخالدينَ
وصرتَ هُدى العارفينَ
فحصّنتَ مجدَكَ ضدَّ الممات).





(22) الأستاذ الدكتور سيد البحراوي

(الأكاديمي الشريف، وصاحبُ نظرية "محتوى الشكل")

أن يكون الأستاذ الجامعي حُرّاً في قناعاته، وتوجهاته، وآرائه الفكرية والنقدية والإبداعية دون أن يكون تابِعاً لنظامٍ معيّن أو توجّهٍ يقوِّده ويحرِّك كتاباته أو مواقفه سوى القناعات الراسخة لديه والتي اختارها واقتنع بها، ودافع عنها بكلّ بسالةٍ وإباءٍ، وبكلّ حَرَفٍ وموقِفٍ حتى وإن لقي في سبيلها العنَتَ أو التهميشَ أو السجنَ - أحياناً - كرادعٍ قوي في وجه الفكر والقناعة والدعوة إليهما، فتلك إذا غايَةُ قصوى يسعى إليها الإنسان، ويكرّس تعليمه وجهوده وكتاباته في سبيل الدفاع عنها وتجسيدها واقعاً وممارسة. وبذلك يحقق أستاذيته وإنسانيته معاً، ويمثّل تصالحاً مع الذات، وتوافقاً مع المجتمع الذي يسعى إلى تطويره وإلى الدفاع عن قضاياه، وعن الفقراء فيه - الذين نشأ واحداً منهم، وعاش منحازاً إليهم - كما قصد إلى تعليم ذلك المجتمع، وإلى فهمه وإفهامه بأنّ الحياةَ تعايشٌ وحريةٌ، وأنّ الإنسان له مطلق الاختيار لا إجبار عليه، ولا فرض على خياراته وخياله وحديثه سوى ضميره العالي، وعلمه النافع، واحترامه لنفسه وللآخرين.

وإذا ما تحقّق ذلك تحقّقت القناعة التي يمكن عندها أن يقول صاحبُها في آخر معاركه - بكل ثقة واطمئنان - وقبل الترجّل، والرحيل: "لستُ نادماً على أيّ شيءٍ فعلتهُ في حياتي، ومستعدُّ دائماً لتحمل النتائج".

حديثنا اليوم عن الأستاذ الدكتور السيد محمد السيد البحراوي (9 / 1 / 1953 - 16 / 6 / 2018م)، الناقد الدقيق، والمبدع المجوّد، والأستاذ

الجامعي الذي عمِلَ في عددٍ من الجامعات -فضلاً عن جامعته الأم؛ جامعة القاهرة- ومن تلك الجامعات: جامعة ليون الثانية بفرنسا، وجامعة القاهرة فرع الخرطوم، وجامعة حلوان، وجامعة الإسكندرية، وغيرها، وتولّى الإشراف على عشرات الرسائل العلمية للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه في مصر، والجزائر، وفرنسا، وقام بالتّحكيم للنشر في الدوريات العلمية للجامعات المصرية والأردنية والكويتية والعراقية والسعودية، وشارك في الكثير من المؤتمرات الدولية والعربية منذ عام 1979م، ونُشرت مقالاته في مختلف الصُّحف المصرية، والعربية، والفرنسية، وكتبَ عنه عددٌ من الباحثين والصُّحفيين في حياته وبعد مماته، ومنهم مجموعة من الباحثين عَرَضُوا للحديث عنه، وعن تجربته النقدية والإبداعية في كتاب بعنوان (النقد والإبداع والواقع.. نموذج سيد البحراوي) صدر عن دار العين، 2010م، مع مقدمة ضافية للأستاذ المغربي الدكتور محمد مِشبال.

عرفتهُ بدايةً وأنا في مرحلة الماجستير، وعند مناقشتي لها كان رئيساً للقسم (للعامين 2003 - 2004م)، وكان يُديره بكلّ جدية وعلمية، مصحوبةً بصرامته المعهودة، وهيبته الواضحة المعالِم، ولكنها الصرامة المكلّلة بروحه الإنسانيّة التي كانت تُطلُّ من وراء تلك الملامح الجادّة، والجسم التّحيف، والتّقاسيم المنويّة الأصيلّة التي تحمل وراءها

حياة إنسانٍ قادمٍ من رحم القرية التي أنتجت العظماء، ومن رحم المعاناة والفقر والمبادئ، كانت ولادته في مرحلةٍ فقدَ فيها والده كثيرًا من أمواله، ونشأ في أسرةٍ من الطبقة المتوسطة؛ حيثُ كان يعمل والده في التجارة البسيطة تلك التجارة التي وصفها في أحد اللقاءات (بأنها تجارة تقوم على المغامرة والقفزات غير الواعية والارتجالية حتى أسفرت إلى الإفلاس، وأصبحت الأسرة تعيش على قطعة أرض زراعية صغيرة بالكاد تغطي مصاريقها).

من هنا يمكن فهم شخصية أستاذنا التي عاشت (خمس وستين عامًا) تهتمُّ بتعليم أبناء هذه الطبقة، كما شكَّلت لديه تلك السنون فكرة العدالة الاجتماعية، والاهتمام بالفقراء الذين تعلَّم من أموالهم القليلة، وعاش بينهم، وهو جزء من هذه الطبقة، ولهذا ظلَّ يدفع ذلك الدَّين الذي أخذه، وينبغي عليه أن يردَّه إليهم في قريته، وفي غيرها.

وجد في الأفكار اليسارية مندوحته، وكان ذلك عُنصرًا حاكمًا ومهيمنًا في حياته حين عُرضت عليه مناصبٌ معينة ومهمة، وسفرات مغرية رفضها لأنَّه كان يَعدُّ ذلك نوعًا من الخيانة لأهله ولطبقة الاجتماعية التي ظلَّ مُندمجًا معها محلصًا لأبنائها، مقتنعًا بواقعها، يحاول تطويرها من داخلها لا الهروب عنها أو الانسلاخ من عباءتها التي ظلتْ بُردته، ولُبوس واقعه عن قناعه، كما كانت حقيقةً حاضرةً في ذهنه بوصفه

أستاذًا جامعياً من ناحية، ومتحقِّقَةً في وجدانه بوصفه إنساناً ريفياً من ناحية أخرى.

فهو ينتمي إلى طبقته وإلى قريته، متعاطفاً مع الفقراء، وأبناء الفقراء، وكان ذلك سبباً واضحاً في ترسيخ قناعاته للطبقة الوسطى، وليسار الذي غيّر نشأته الأزهرية البسيطة والعفوية التي كانت سائدة في أسرته وفي قريته - كحال معظم الأُسَر والقرى المصرية في السّتينيات من القرن العشرين - إلى الإيمان بحقّ هذه الطبقة في العيش الكريم، والسّعي بالعلم والأدب معاً لتجسيد مَطالِبها وحقوقها، ومن هنا -أيضاً- أدرك أهمية أن يكون هو متوافقاً مع ذاته وواقعه، ومع ثقافته العربية التي ظهرت -بعد ذلك- في كتاباته النّقدية وتوجهاته العلميّة في بلورة فكرة المعارضة لما أسماها بـ(التبعية الذهنية) التي وقع فيها المثقّف العربي تابعاً للسلطة منذ النهضة التي أرادها (محمد علي باشا) في مصر باستزراع أبناء الطبقات الكادحة، وتعليمهم وتربيتهم على طريقته، لكن -وهنا المشكلة العميقة التي وعّاها الأستاذ البحراوي- ليكونَ ولاؤها لولي التّعَم وللسلطة التي يراها المثقّف مَلادَهُ الآمنَ، وليس للشعب أو للطبقات التي قَدِموا منها وخرجوا من جِلبابها، وتلك -كما يراها أيضاً يحيى حقي- الكارثة الكُبرى التي تسبّبت في انعزال الطبقة المثقّفة عن الجمهور بصفة عامة، وجعلت

المثقف يسعى إليها ليأمن من ناحية، وليحقق مطامحه من ناحية أخرى، معتقدين أنها هي التي ستوصلهم لمصالح الجماهير أيضاً.

وهكذا كان الأمر واضحاً ومحسوماً لدى البحراوي في مسيرته النقدية والحياتية؛ حيث كان يرى أنه حين يكون تابعاً للسلطة معناها أنه سيكون مُنساقاً لهذه (التَّبعية الذهنية) والنقدية والثقافية، وبالتالي ظلّ يقاوم ذلك، ويدعو في حياته النقدية والإبداعية معاً إلى تبني نظرية عربية تخرج في مجملها عن تلك التبعية التي هي -في تعريفه ووعيه- بعيدة عن المصطلح السائد (التبعية الثقافية) وما يقصده البحراوي بهذه (الذهنية) -تحديداً- هو أنها مرتبطة (بالذهن) الذي يعني المنطقة التي تجمع بين العقل والوجدان، وعندما يُصاب الإنسان -وبخاصة المتعلم المثقف- بالخلل في هذه المنطقة، فإنه يكون عاجزاً عن الإبداع، وإن كان قادراً على التقليد.

وهذا ما أصاب -من وجهة نظره- المثقف الذي ينظر للنموذج الغربي كنموذج يجب أن يُحتذى ويُقلد ابتداءً من رفاة الطهطاوي، مروراً بطه حسين، ومحمد مندور، وعباس العقاد -ويرى البحراوي أنهم لم يضيفوا أي شيءٍ للنقد العربي- وغيرهم من رواد النهضة الحديثة في مصر والوطن العربي، لأنها نهضة سعت إلى الإحياء وفق النموذج الغربي، وليست نهضةً وفق النموذج والواقع العربيين. ومن هنا كانت دعوته لأول مرة -ربما في الأدب العربي- تلك الدعوة التي تبلورت في نظريته عن (محتوى

الشَّكل) وهي ببساطة وإيجاز- أرجو ألا يكونَ مَحَلًّا- تعني العلاقة بين وعي الكاتب ولا وعيه ومنطقة الوعي الجمعي للانطلاق من الظروف الخاصة بالأدب العربي وبفلسفته وفكره وواقعه وحياته لإنتاج نظريته الخاصة في التعامل مع النصوص الإبداعية- القديمة أو الحديثة- وظروفه الاجتماعية والسياسية والثقافية وغيرها، وبناءً على خصوصية هذا الأدب وشخصيته، وليس وفق نموذج مُعدَّ مُسبقًا أو مُطبَّق في مجتمعٍ مختلفٍ عنه في ثقافته، وتاريخه، وقناعاته، وفلسفاته.

وقد دعا إلى نظرية "مُحتوى الشَّكل"، وهو مؤمنٌ بِقُدرةِ العقلِ العربيِّ على إنتاجِ نظريةٍ نقديَّةٍ نابعةٍ من قِراءةِ مُعطيات ذلك العقل ورؤيته المستقلة وظروفه الحضارية وخصوصية مجتمعه وثقافته؛ لا من خلال المعطيات التابعة لأفكار الغرب الذي نعيش على نظرياته النقدية، ومذاهبه الفكرية والفلسفية إلى اليوم.

وهذه النظرية تُعدُّ ذات إشارة دالة وعميقة على توجُّهه الفكريِّ من ارتباطِ النقد بعلم الاجتماع، وأنَّ قضايا الفكرِ وتوجُّهاتهِ النقدية -في أيِّ مجتمع- يجب أن تكون نابعةً منه ومن وعي أفرادهِ ومشكلاتهِم وفلسفتهم الخاصة، بل حتى من طريقة عيشهم، وبناء مساكنهم، وألوانهم، وأذواقهم، وصولاً إلى قيمهم ومعتقداتهم التي ينبغي أن تكون مُدرَكَّةً ومستوعبةً في الإبداع الفني والأدبي والنقدي. محاولاً بذلك أن يقدِّم مساهمة عربية في

نظرية الأدب من خلال محتوى الشَّكل الذي سعى الدكتور البحراوي إلى تأسيسه خلال ثلاثين عامًا.

تعلمتُ من أستاذنا البحراوي، وقد ناقشني في الماجستير نقاشًا بدًا في ظاهره حادًا؛ ولكنه كان في حقيقته علميا وأكاديميا يحرص على تكوين الطالب، ومدّه بالأفق الأرحب لفهم النقد والنص معًا؛ لهذا كان تركيزه في المناقشة على التحليل الذي يراه من أهم ما يُميّز الباحث الجاد والمختلف عن غيره، كما يعلمُّ الباحث ألا يكون جزئيَّ القراءة حين يستشهد أو يقتبس، بل عليه أن يقرأ الكتاب أو البحث كاملاً، ويعرف محتواه بشكلٍ جيد، ثم يقتبس ما أَراده، حتى لا يأتي ما يقتبسه نشارًا عن الفكرة العامة للكتاب أو عن توجُّه صاحبه ومقصده، ولقد استفدتُ منه كثيرًا، ومن ملاحظاته لأنها تقوم على أسس نقدية وعلمية رصينة، وعلى قراءة متعمَّقة في النظرية والمنهج معًا.

كنتُ ألقاهُ في القسم، وأستمعُ إلى بعض حواراته مع زملائه أو مع طلابه، فألتمس فيها ذلك المبدأ الرافض للانصياع أو المستسلم للتبعية في تصرفات بعض زملائه أو مواقف المثقفين الذين أسلموا قيادهم لتبرير الأيديولوجيات التي ترعاها السُّلطة-أيّ سلطة- وتمريرها، وكان يعرفُ موقعه منها، ويدركه، ويؤمن أنَّ الأستاذ الجامعي ليس في حاجة إلى التكبُّب من مصادر أخرى أو التزلف لأحدٍ في السلطة أو خارجها،

ويرفض أيّ عمل لا يتوافق مع قناعاته سواءً في هيئات أكاديمية أو غير أكاديمية. وقد حدد علاقة المثقف بالسلطة -على الأقل في ممارسته وفي حديثه وواقعه- فلم ينساق وراء ما كان يصفه بـ(حضيرة المثقفين)، بل ظلّ خارج ذلك النَّسق يدعو للحرية ورفض التبعية الذهنية سواء كانت لفردٍ أو لسلطةٍ، وكذلك للنموذج الجاهز، ومنه النموذج الغربي الذي ارتكز عليه النهوض لمصر، وغيرها من المجتمعات العربية-من وجهة نظر المثقف الجامعي على الأقل- ولكنّه النهوض المقيّد بذلك النموذج، والمنقاد وراءه، بلا إبداع حقيقي، وبلا نقدٍ منهجي متجاوز، وبلا إنتاج خاص مستقل.

زرّته مرّةً إلى منزله في مدينة مبعوثي جامعة القاهرة، وهي سلسلة عمارات فيها شقق صغيرة، فوجدتُ كيفَ يعيش الأستاذ الجامعي الحقيقي المعتمد على راتبه، والمخلص لأبحاثه وأفكاره، شقّة متواضعةً محتواها الأغلب هو الكتاب الذي يُغطّي كلّ زاويةٍ منها بالأرْفُف، فالكتاب أُنّي اتجهتُ وجدته، يستولي على المكان مع بعض التُّحف والأثاث الأنيق القديم والحديث، منزلٌ يحفُّه العلمُ والكتابُ والمبادئ من كل اتجاهاته، ومن هنا يعيش بكل حريته وبكامل قناعاته وإرادته مرتاح الضمير، منطلق الفكر، متناغم الذات، أكرمني الرجل بضيافته المعهودة -كما في القسم- وهي الشّاي والحديث الودود والبشاشة التي اختلّفت في منزله عن مكتبه

في القسم، وعرفتُ أيضًا زوجته الأستاذة الجامعية القديرة أمينة رشيد ذات الأصول الأرستوقراطية (وهي حفيدة الباشا إسماعيل صدقي باشا، رئيس الوزراء في النصف الثاني من الأربعينيات، ولكنها كانت رفيقةً دربه وفكره، ومنحازة للفقراء ولقضاياهم، وقد شهدت ثورة مايو سنة 1968 الطلابية في باريس، وتم اعتقالها في سبتمبر 1981م، وفيه كانت خطبتها من سيد البحراوي، ودخل السجن معها كلٌّ من: (لطيفة الزيات، وشاهنده مقلد، وصافيناز كاظم)، ومئات المعارضين لسياسة الرئيس محمد أنور السادات، وقد شاركت في مظاهرات دعم مقاومة الشعب الفلسطيني، وفي تأسيس لجنة الدفاع عن الثقافة القومية، والمجموعة المصرية لمناهضة العولمة، وحركة 9 مارس لاستقلال الجامعات، وهي زميلته في كلية الآداب بجامعة القاهرة تعمل أستاذًا للأدب المقارن).

كانت تلك الزيارة لغرض تسليم رسالتي للماجستير التي أقرَّ القسم أن يكون البحراوي أحد أعضاء لجنة المناقشة والحكم عليها، وعندما ودَّعني الأستاذُ، وشيئني إلى الباب، أدركتُ مقدار ما قد يُخفيه الشكل الظاهري، والملاح الجادة من إنسانية متدفقة صادقة بمحبة الناس وبالطيبة الأصيلة في شخصية الرجل، ومقدار القيم التي تكتنز بها روحه، وعند الانصراف سألتُ اللهَ حُسنَ التوفيق، وأن يجد في رسالتي شيئًا مفيدًا حتى لا يعصرني يوم المناقشة عصرًا بما عُرِفَ عنه من شدة وصرامة وهجوم

-أحياناً- قد يجعل الطالب يَضْرِبُ أحماساً في أسداس بما يُضْرَبُ به من نقدٍ وملاحظاتٍ، وما ذاك إلا لأنه يقرأ الرسائل جيداً، ويدقق فيها، وفي منهجها ومحتواها، وفي مبناها ومعناها، ومنه تعلمتُ كيفَ أقرأ الرسائل، وكيف يجبُ على الأستاذ ألا يحوّل مناقشته للرسائل العلمية إلى محاضرة وتعميمات وعموميات، بل يجعلها -كاسمها- مناقشة حقيقية فيما كُتب، وما قيل، وما كان يجبُ أن يُكتب ويقال ويُبحث ويُحلَّل.

ذلك هو سيد البحراوي مع طلابه الذين يُشرفُ عليهم، كما أنه هو نفسه مع طلابه الذين يُناقش رسائلهم سواءً بسواء، وإن كان من زيادةٍ يظفرُ بها طلابه، فهي شدة الحرص، وكثرة الرفض لما قد يكتبون من كتابات هشة غير علمية، حتى يستقيم لهم البحث، وتحسُن لغتهم فيه، ويتضح منهجهم الذي يسرون عليه، حينها يكون الواحد منهم قد عبّرَ الخطرَ، وأدرك الظفر.

تعلمتُ من أستاذنا -كما تَعَلَّمُ غيري من قرأ له، وتعلمذ عليه- كيف يكون سلوك الناقد مع إبداعه بالصَّرامة نفسها مع نقده، فهو لا يكتبُ إلا ما يعيشه ويقتنعُ به، وفي مسيرته المنهجية الحافلة يتلازم لديه النقد والحياة، تطبيقاً وتفاعلاً، ولهذا فإنَّه في إبداعه من خلال قصصه ورواياته القصيرة -وهو بالمناسبة مُقلٌّ في الكتابة، وفي حجم أعماله الإبداعية أيضاً- لأنَّه لا يكتب إلا الخلاصات أو الزُبدة -كما يُقال- ولا

تجد في كتاباته الحشو الزائد الذي ربما يملأ به غيره الصفحات، ويسود به الكتب الطوال، أما البحراوي فلا يكتب إلا ما يحس به ويقتنع دون حشو أو زحافات كما كان دقيقاً في دراسته لعلم العروض وتدريسه؛ ولهذا فإن عباراته مركزة، وكلماته عميقة، وكتاباته قليلة دقيقة.

معظم تلك الكتابات تجسّد حياته، فمثلاً في رواية (شجرة أُمي) كانت رصدًا لذكرياته مع أمّه، ووصفًا للحظات موتها، وما قبلها وما بعدها، كتبها على شكل يوميات فيها المكاشفة والبوح، بما يؤكد على ما جاء في مقدمة الرواية من وصفٍ للعلاقة الإنسانية بين الابن وأمّه؛ حيث يقول: "هنا أتحدّث عن العلاقة الإنسانية.. كانت أُمي مُستغلّة، ولم يكن أحدٌ يستطيع أن يساعدها، وأنا أريد أن أنفي عنها وعني الاستغلال، وأن أقدم لها/ لي، ولأمثالنا مساعدتي" - وفي هذه الرواية عن طريق أسلوب اليوميات والمكاشفة شيء عن حياته كشذرات متفرقة من سيرته الذاتية، كما ظهرت في رواياته وقصصه الأخرى مثل: (ليل مدريد) و(هضاب ووديان)، و(طرق متقاطعة) و(ثلاثية كامل؛ قصص وقصائد)، وغيرها.

ولعل التجربة الأكثر خصوصيّة -لارتباطها بمرضه وتجربة التعايش مع مرض السرطان الخبيث، ووصف تجربة الألم التي عاشها وعانها- هي في كتابه (في مديح الألم) الذي كتبه بأسلوب التحدي القائم على فلسفة الحياة، والمعرفة، والألم في الوقت ذاته، وقد خرج بكتابٍ مهمّ

يعبر عن تلك التجربة من خلال المعاشة اليومية المباشرة، ويصف مواقفها الحياتية، ويقف هو ذاته أمام نفسه وقيمه وأفكاره، ويحدّد علاقته بالآخرين، وبقضايا عامة ومهمة، مثل: الحرية، والموت، والأسرة، والأصدقاء، وفيه يحاور الذات بكل شجاعة في مواجهة المرض، والوقوف أمام تفاصيله الدقيقة ومواجهته، بل وأسنّة ذلك الألم الذي مرّ به، وألمّ، وعاش دقائقه وثنائيه، واستطاع مواجهته، بل استطاع أن ينقله أيضًا إلى الأفق الإنساني الأرحب، والفكري الأوسع باستيعاب فلسفي، وفكري، وتحويله إلى معطى حيّاتي جعله قادرًا على تحفيز الحياة نفسها، والتمسك بها لا استلابها منه أو تسربها من بين يديه، إنه التّحدي الحقيقي، ومواجهة الموت لحظة بلحظة، لكنّها المواجهة مع مقاتلٍ عنيدٍ، ومفكرٍ صنيديٍّ يحوّل كلّ لحظةٍ وجعٍ، ونبضةٍ ألمٍ إلى دفقةٍ رُوحٍ، ونبضةٍ أملٍ، ومن هنا كان كتابه (في مديح الألم) تجربةً متفردةً في كتاباته؛ حيث جاء مُركّز العبارات دالًّا على المقصد والمقصود، وجعل الأصل في الحياة هو الألم، وأن السعادة التي قد تنتاب الإنسان ما هي إلا فرعٌ من ذلك الأصل.

كتب الدكتور البحراوي في مقدمة الكتاب فقال: "مثل كلّ البشر، عانيتُ في حياتي مختلف أنواع الألم، لكنني لم أنتبه لأهميته على المستوى الذهني. كنتُ أشعرُ به وأعيشُه حتى ينتهي، أو يتزاج مع غيره من المشاعر، أو يأتي ألمٌ جديدٌ، انشغلتُ بموضوع الألم، وشغفتُ به نحو عامٍ قبل أن أبدأ

علاج السرطان، ثم توقفتُ إجباريًا، وبعد انتهاء العلاج المؤلم، أعودُ إليه. أريدُ أن أُمجِّدَهُ، باعتباره قرينَ الحياة...".

نلاحظُ هنا كيفَ يغدو الألمُ ممجِّدًا لديه، وكيف يُصبحُ قرينَ الحياة، ويقول مؤكِّدًا على فلسفة التمجيد هذه والمديح للألم: "سَعِيَ البَشَرِ - إذن - إلى الراحة هو مجابهةُ الألم. ولولا الألم لما سعوا، ولما أبدعوا علمًا وفنًا". هكذا مضى الكتابُ بهذه اللغة المنسجمة والمنطقية وبأسلوب "الومضات المكثفة" دون استرسال؛ حيثُ جاءت الأفكار والملاحظات أقرب إلى التشتُّت منها إلى الترتيب، ويعلِّل ذلك في غير موضع بأن الكتاب "نتيجةٌ مباشرةٌ للمعاناة التي كان يعيشها في تلك اللحظات، ويجسِّد الشكلَ طبيعةَ المعاناة، وحالةَ الألم".

وحين يقتربُ من توصيف المرض وحالاته اليومية، ويضعُ خلاصةً عميقةً للحياة، يقول: "أحد الأطباء حين سألته: عمَّا إذا كان يمكن أن أُشفى، قال: هل يخلُقُ اللهُ الدَّاءَ دون دواء؟! هل يريد الخالق امتحان مخلوقاته بابتلاءات قدرةٍ تحمِّلُها؟ منطِقُ الطبيبِ معوجٌّ، ولعل كلمات صلاح عبد الصبور في كتابه (حياتي في الشعر) أكثر تعبيرًا ومنطقًا: "أن الله لا يعذبنا بالحياة، ولكن يعطينا ما نستحقه؛ لأنه قد أسلَمنا الكونَ بريئًا مادةً عُمياء نحن عقلُها". وقد قال البحراوي: "قالت الصديقةُ إنها لا تحبُّ الألم، وتخافُ منه، ولا تحبُّ الحديثَ حوله. قلت لها: هذا أيضًا نوعٌ

من الألم". ويقول واصفًا حالة الكتابة: "أكتب كأنني أنزف دمًا.. أحاول أن أستخرج أقصى ما بي، كي يمكن للآخرين أن يعيشوا ألمهم بصدق"، ويقول: "التأمل هو الصُّحبة الأفضل في حالة المرض"، ويقول بعبارة عميقة: "احتمال الموت يجعلك أكثر قدرة على مراقبة تمثيلات الأحياء لترتيب مستقبل حياتهم، وما فيها من سذاجة وطفولة".

الحديث عن أستاذنا البحراوي يطول لو مضينا نعدّد جوانبه النقدية، والإبداعية، والإنسانية، لأنّه من النماذج الصادقة البسيطة للإنسان العربي المعاصر المسكون بهموم أمته، وبالثبات على مواقفه وآرائه حين تغيّرت المواقف، وتشتت الآراء والاتجاهات، لكنّه ظل ثابتًا منذ كان في طليعة حركة اليسار المصري تلك الحركة التي دفعت ثمنًا فادحًا لمواقفها السياسية، حيثُ فُصلَ من الجامعة المصرية مع مثقفي اليسار المصري الوطنيين أمثال زميله في القسم وصديقه في القسم والفكر الدكتور عبد المنعم تليمة، وغيرهما ممّن عارض اتفاقية "كامب ديفيد"، والقرارات "الإصلاحية" التي عزّلت السياسيين والمفكرين عن المشهد السياسي المصري والعربي، دون أن يتراجع عن موقفه الراض للاتفاقية وتبعاتها قيد أنملة. وقد نذّر حياته للدفاع عن العدل الاجتماعي، والحريات العامة والخاصة، مُناديًا بالدولة المدنية الديمقراطية التي تقوم على أسس العلم والتكنولوجيا، واحترام حقوق الإنسان.

ترك أستاذنا - رحمه الله - أكثر من ثلاثين مؤلفاً ما بين النقد، والترجمة، والإبداع القصصي والروائي، بخلاف العشرات من الدراسات النقدية، والأبحاث، والمقالات في المجلات والصحف العربية، وشارك في لجان تحكيم أكاديمية وأدبية عدّة في مصر، والكويت، والأردن، والإمارات. ومن أعماله:

- 1) موسيقى الشعر عند شعراء أبوللو، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1986، ولها عدة طبعات، [وهي رسالته للماجستير].
- 2) كتاب العروض للأخفش، تحقيق ودراسة، مراجعة د. محمود مكي، دار شرقيات، القاهرة، 1988م.
- 3) في البحث عن لؤلؤة المستحيل، دراسة لقصيدة أمل دُنقل مقابلة خاصة مع ابن نوح، ط1 دار الفكر الجديد، بيروت، 1988م.
- 4) أمل دنقل كلمات تقهر الموت، بالاشتراك مع عبلة الرويني، كتاب الثقافة الجديدة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 1990م.
- 5) علم اجتماع الأدب، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، القاهرة، 1992م.
- 6) البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، 1993م.
- 7) العروض وإيقاع الشعر العربي؛ محاولة لإنتاج معرفة علمية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993م

- (8) محتوى الشكل في الرواية، النصوص المصرية الأولى، (سلسلة دراسات أدبية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1996م.
- (9) الإيقاع في شعر السيّاب، دار نواره، القاهرة، 1996م، والهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2011م. [رسالته للدكتوراه]
- (10) الحداثة التابعة في الثقافة المصرية، ط1، ميريت للنشر والمعلومات، 1999م.
- (11) المدخل الاجتماعي للأدب، دار الثقافة العربية، 2001م.
- (12) قضايا النقد والإبداع العربي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ديسمبر 2002م.
- (13) صنّاع الثقافة الحديثة في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، 2002م.
- (14) الأنواع النثرية في الأدب العربي المعاصر أجيال وملامح، الجزء الأول، مكتبة الأنجلو المصرية، 2003م.
- (15) مختارات الشعر العربي الحديث في مصر، آفاق، ط2، 2006م.
- (16) في نظرية الأدب "محتوى الشّكل مساهمة عربية"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 2008م.
- وأما أعماله الإبداعية فهي:
- (17) ليل مدريد، دار المدى للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2002م.

- 18) طرق متقاطعة، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، 2005م.
 - 19) هضاب ووديان، آفاق للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006م.
 - 20) شجرة أمي، آفاق للنشر والتوزيع، القاهرة، 2007م.
 - 21) صباح وشتاء؛ نصوص، دار النصر، القاهرة، 2009م.
 - 22) في مديح الألم، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، 2016م.
 - 23) ثلاثية كامل؛ (قصص وقصائد)، الكتب خان، القاهرة، 2016م.
- وفي الترجمة اشترك مع زوجه د. أمينة رشيد في:
- 24) الأيديولوجية: وثائق من الأصول الفلسفية لميشيل فاديه، ترجمة من الفرنسية بالاشتراك مع د. أمينة رشيد، دار التنوير، بيروت، 1982م.
 - 25) النقد الاجتماعي، نحو علم اجتماع للنص الأدبي، تأليف: بيير زيماء، ترجمة عايدة لطفي، مراجعة د. أمينة رشيد، ود. سيد البحراوي، تقديم سيد البحراوي، دار الفكر للدراسات والنشر، 1991م.
 - 26) المكان، رواية، آني إرنو، ترجمة أمينة رشيد وسيد البحراوي، دار شرقيات، القاهرة، 1994م.
 - 27) مداخل الشعر، باختين، لوتمان، كوندرايوف، دراسات مترجمة عن الإنجليزية والفرنسية بلاشتراك مع د. أمينة رشيد، سلسلة آفاق للترجمة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1996م.

(28) الأشياء، جورج بيريك، ترجمة: أمينة رشيد وسيد البحراوي، دار شرقيات، المركز الفرنسي، 2000م، وغيرها.

فصلُ الخطاب

"هذا الاتساقُ المنهجي... ليس قضية فردية، وإنما هو قضية اجتماعية في المقام الأول. ومن هنا فإننا نرى أن طرح قضية المنهجية في النقد العربي تتجاوز حدود الهم الأكاديمي الضيق إلى مجمل الحياة العربية بصفة عامة. ذلك أن منهجية فرع معرفي معين لا تنفصل عن منهجية الفروع المعرفية الأخرى، أو عن منهجية الحياة الاجتماعية في الوطن الذي تمارس فيه هذه الفروع المعرفية، وباختصار، إذا تحدثنا عن المنهجية، فإننا نتحدث عن مجتمع ناضج واعي بأهدافه، ويخطط لتحقيق هذه الأهداف تخطيطًا علميًا، يستخدم الأدوات المناسبة التي تضمن سلامة هذا التخطيط وقدرته على تحقيق الأهداف، ولا شكَّ أنَّ العقولَ التي تمارسُ هذه المنهجية تخضعُ لذات الشروط التي تخضع لها العقول التي تمارس المنهجية في النقد الأدبي أو في غيره من الفروع المعرفية...@د.سيد البحراوي، مقدمة كتاب (البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث).

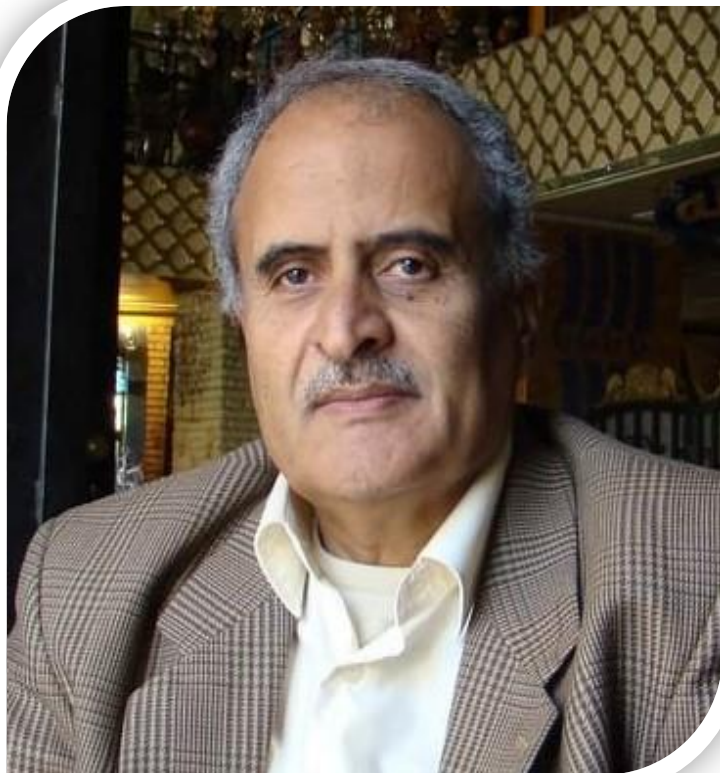
تَحِيَّة

(لم يُصالحْ
لم يُصَفِّقْ للمُصالحِ
لا، ولم يَمْضِ على دَرَبِ المَصالحِ
عاشَ للعلمِ نديماً
وعلى المَبْدَأِ يُعْطِي القَوْلَ صِدْقاً وَيُكَافِحُ
مثلاً أَعْلَنَهَا يَوْمًا (أَمَلٌ)⁽¹⁾
ذَلِكَ الصَّاحِبُ والشَّاعِرُ مَنْ عاشَ الأَلَمَ
حَتَّى النِّهَايَةِ
هَلْ مِنَ الصُّدْفَةِ أَنْ يَأْتِيَ الشَّبَهُ
هَكَذَا؟
لَهُمَا نَفْسُ المَسِيرِ
(مَحْتَوَى الشَّكْلِ)
لَهُمَا نَفْسُ المَصِيرِ
فَمِنْ الغُرْفَةِ الثَّامِنَةِ
تَخْرُجُ الأَوْرَاقُ وَفِي نُسَخَتِهَا
(فِي مَدْيَحِ الأَلَمِ).

(1) المراد به الشاعر أمل دنقل، وإشارة إلى قصيدته الشهيرة (لا تصالح).

يا تُرى
كيف يَتَفَقُّ الحُبُّ
والبحثُ عَن لَوْلُؤَةِ المُستحيلِ؟
مِن هُنالكَ مِـن لحظةِ الوعي حَتَّى الرَّحيلِ
نَمَّ!
فما ماتَ مَن خَلَدَ العِلْمُ عنوانَه
وما ضَلَّ مَن ظَلَّ مُستشهِداً بالدَّلِيلِ).





(23) الأستاذ الدكتور إبراهيم الصلوي

(أستاذ اللغة اليمينية القديمة)

من أبرز العلامات على الحضارات القديمة اكتمال قواعدها اللغوية ووجود نحوٍ وصرفٍ للغة يَضْبُطُ الحديث فيها، ويدلُّ على وعي أبنائها وثقافتهم، ومدى نضج لغتهم وتفكيرهم وحضارتهم، وإن كَانَ الأمرُ يبدو بعيدًا بسبب الفاصل الزمني الكبير بين تلك الحضارات وبين اكتشافها الذي لم يتحقق إلا مؤخرًا لكن جهود الآثاريين وعلماء التاريخ والتنقيب والحفريات قد استطاعت أن تفكَّ الكثير من شفرات تلك الحضارات وأسرارها، وأن توضَّح من خلال الفتح الكبير في معرفة لغاتها الكثير من الحياة وأسبابها ومعالمها، ومن أساليب العيش لدى أبنائها، وكذلك آثار الشواهد الدينية المتفرقة هنا وهناك، وآثار الملوك، وبقايا المعابد، وغيرها.

ولعل الحضارة اليمنية القديمة من أكثر تلك الحضارات اهتمامًا ودراسة من قِبل الباحثين اليمنيين منهم والعرب والمستشرقين -عمومًا- في معرفة الحضارة اليمنية والسعي إلى الاهتمام بها ودراستها، وفكَّ رموزها وشفراتها من خلال النقوش المسندية المرتبطة -كما هو معروف- بخط المسند والموجودة في عموم اليمن، وفي مختلف المناطق الحضارية والأثرية التي امتدت عبر التاريخ في الدول المتعاقبة من معين، وسبأ، وذبي ريدان، وحضرموت، ويمنة، وغيرها من الدول والحضارات المتتالية.

وقد استطاعت تلك الآثار أن تقاوم الزمن وتتغلب على تجريفاته، وتعرياته الطبيعية منها وغير الطبيعية، وصعوبات تقلباته ومحجرات

أحداثه لتظل بارزة شامخة، وحاضرة صامدة في الجبال والكهوف والوديان بوصفها شواهد حضارة وعلامات تفوق دائم، وكأنَّ لسان حالها يقول: "هنا كانت حضارة يمنية عظيمة، وهنا مُلكٌ وبناءٌ ودولٌ متعاقبة وزراعة وإنسان استطاع أن يبني نفسه وأن يخلد حضارته الضاربة في أعماق التاريخ".

حديثنا اليوم عن اللغة اليمنية القديمة من خلال أحد أساتذتها الكبار الذين تعلَّمنا على أيديهم معنى هذه اللغة، وأهميتها، ومكانتها في الحضارات العالمية من خلال مقرر (اللغة اليمنية القديمة) وذلك هو الأستاذ الدكتور إبراهيم محمد الصلوي أستاذ اللغة اليمنية واللغة العربية وتاريخها، والمتخصِّص فيهما في كلية الآداب جامعة صنعاء، وجامعة تعز.

تلقيتُ هذا المقرر مع زملائي من قسم اللغة العربية وآدابها في كلية الآداب في العام الجامعي 1994/1995م حين كنتُ أدرس المقاصَّة في الآداب، وكان أوَّل لقاءٍ لنا معه في إحدى قاعات الكلية مع طلاب الآداب، وكان لقاءً -بالنسبة إلي- يحفُّه الكثير من الدَّهشة لأنِّي لأوَّل مرة أتعرَّف على اللغة اليمنية القديمة بما تكتنفه من صعوبة في الحروف، وفي الشَّواهد المسندية، وفي القواعد المرتبطة بها، وكذلك بما تحتاجه من معرفة بتاريخ اليمن القديم وآثاره. ولهذا كنتُ في أوَّل لقاءٍ مندهشًا صامتًا أقلَّب ما لديَّ من معارف سابقة، فأجدُّها لا تسعفني بشيء، وأقارنُ ما تعلَّمته في أربع سنوات من اللغة العربية وعنِّها، فلا أكاد أجِد فيها ما يسعفني بمعلومة

عن المقرر الذي أتلّقه الآن سوى حديث بسيط عام ربما قرأته في أحد كتب الدكتور شوقي ضيف عن النقوش العربية المبكرة وأصول الخط العربي والتقاءه بالخط النبطي، وبعض النقوش مثل: نقش أم الجمل الأول والثاني، ونقش النمارة، ونقش حران...

ومن هنا كان عليّ أن أقرأ وأن أهرع إلى المكتبة المركزية ومكتبة كلية الآداب مُستنجِداً بما يحفظ عليّ ماء الوجه أمام أستاذي وأمام الزملاء وبخاصة بأني قادم من كلية التربية وبمفردات مقرراتها المختلفة، وسعيثُ لمعرفة المراجع التي ستفيدني في أبجديات هذه اللغة وتاريخها، وبخاصة أن أسلوب أستاذنا كان يقوم على شرح بعض النقوش المسندية وتحليلها ومعرفة حروفها ومحاوله قراءتها، وكيف لأُمّي -مثلي- بهذه اللغة وفي بدايات تهجّي حروفها أن يقرأ نقشاً حميراً يراه لأوّل مرة، ولا يعرف حروفه أصلاً، ولا يفهم دلالاتها؟ كيف له أن يحل ويناقش ويستخرج المعنى؟ ومن هنا كانت المهمة صعبة والتّحدّي كبيراً والمنافسة بين الزملاء قد تفضح من لا يرى سوى التفوق، ولا يعرف سوى الامتياز في دراسته الجامعية، ولهذا كانت مقررات المقاصّة جميعها في كَفّةٍ، وهذا المقرر وحده في كَفّةٍ راجحةٍ؛ بلا نقاش.

لم أجد من يدلّني على أهمّ الكتب أو على أجرومية اللغة اليمنية القديمة سوى أنني وجدتُ في مكتبة الآداب كتاباً للمؤرخ، والسياسي، والدبلوماسي الدكتور محمد عبد القادر بافقيه، وألفيته كتاباً مهماً ومفيداً

لطالبٍ مثلي في خطواته الأولى؛ وهو (مختارات من النقوش اليمنية القديمة) كتاب شاركه في تأليفه بأبحاث أخرى كُلٌّ من: د.الفريد بيستون، ود.كريستيان روبان، ود.محمد الغول، وقَدَّمه د.محي الدين صابر المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، والكتاب صادر عن المنظمة في تونس عام 1985م.

ومما احتوى عليه هذا الكتاب المفيد فصلاً بعنوان (موجز تاريخ اليمن قبل الإسلام) بقلم د. بافقيه، وهو المتخصص في هذا الميدان، فكان هذا الفصل بمثابة المدخل المهم لي لقراءة تاريخ اليمن والتعرُّف على بداية التَّمدن، وعلى علاقة الفراعنة بالبحر الأحمر وعلاقة اليمنيين بقدماء المصريين، وآثار الهضبة الإريتريّة، وملكة سبأ وسليمان، والإشارات الآشورية وغيرها من المعارف والمعلومات الثرية. والأهم فيه هو بيان جهود الدكتورة (بيرن) ودراساتها حول تطور الخط المسند، وهي صاحبة أول دراسة منهجية واسعة في تطور أشكال حروف المسند (الباليوجرافيا) وقد تناولته من أقدم نقوشه المعروفة حتى نهاية عصر ما قبل الميلاد. ويعدُّ عملها هذا -مع ما أضيف إليه من اقتراحات الباحثين اللاحقين- أساساً مهماً للكترونولوجيا (أي الميقاتية أو علم التسلسل الزمني) النسبية المعتمدة لذلك العصر. ثم يذكر هذا الفصل عوامل قيام الحضارة اليمنية وتطورها، ومن أهم تلك العوامل: الموقع الجغرافي وقربه من أفريقيا، وتوفر السلع المرغوبة لدى أهل البلاد المتحضّرة، ووقوع اليمن على الطريق

البحري بين دول البحر المتوسط والهند، والمناخ المطر، ووفرة المياه النسبية في الأودية المنبثة هنا وهناك، وفي طبيعتها وادي حضرموت، وكذلك إنتاج مواد معينة كانت محل رواج كبير في مقدمتها اللبان والمر.

وفيه أيضاً توضيح عن تمرکز الحواضر حول مفازة (صيهده) المعروفة الآن بـ(رملة السبعين)، وهي ما أطلق عليها "بيستون" وصف (ثقافة صيهده) على الحضارة اليمنية في أدوارها الأولى نتيجة قيام الحواضر الرئيسة القديمة حول تلك الرملة: مأرب (حاضرة سبأ)، وتمنع (حاضرة قتبان)، وشبوة (حاضرة حضرموت)، ورق ر ن و [قرناو] (حاضرة معين). وتلك الحواضر عادةً قامت على مخارج الأودية القادمة من المرتفعات المحيطة بالرملة، ففي أطراف الجوف قامت (قرناو)، وعلى أذنة قامت (مأرب)، وفي بيحان قامت (تمنع)، وعند نهاية سلسلة أودية عرمة - العطف - المعشار قامت (شبوة).

ثم يعرض هذا الفصل المهم للحديث عن حملات (كرب ال وتر بن ذمار علي) ومن هنا نبدأ في التعرف على النقوش وطبيعتها، وذلك من خلال نقش يُعدُّ أطول النقوش وأهمها ويعود إلى عصر ما قبل الميلاد (ربرتوار رقم 3945)، وفيه بيان على حرص الملك على تعدد حملاته ونتائجها، فكان أقدم مرجع يعرفنا بالجغرافية السياسية لليمن. ويبدو من هذا النقش أن (كرب ال) -الذي يصفه البعض بنابليون اليمن لسعة حروبه وتعددها- كان قد استفزّه (م ر ت و م) ملك (أوسان) الذي كان -على ما يظهر-

يسيطرُ على المناطق الجنوبية حتى البحر بعد أن استحوذ على بعض أراضي جاريته حضرموت وقتبان اللتين تحالفتا عندئذٍ مع (كرب ال) كما جاء في النقش (راجع الكتاب ص22).

بعد الانتهاء من ذلك الفصل المفيد، وجدتُ بُغيتي في الفصل الثاني (لغات النقوش اليمنية القديمة نحوها وتصريفها) للأستاذ "الفريد بيستون" حول معرفة ما كان أستاذنا الدكتور الصُّلوي قد طرحه علينا في المحاضرات الأولى عن الضمائر في اللغة اليمنية القديمة، والأعداد، وأسماء الإشارة، وبالمناسبة فقد كانت طريقة أستاذنا هي أن يأتي بهذه الضمائر أو الأعداد مكتوبةً في ورقة ويشرحها، وعلينا أن نفهم ذلك، وأن نسعى لمعرفة والاطلاع على تفاصيلها في مظانها من المراجع والمكتبات، فلم يكنْ له كتابٌ خاصٌ في هذا المقرر، لكنَّه مؤخرًا طبعَ كتابًا صدرَ عن دار جامعة صنعاء، حصلتُ على صورة من غلافه وفهرسه من الزميل د. محمد ضيف الله.

ويحتوي الكتاب على: تمهيد يتناول جزيرة العرب في التاريخ القديم: الإطار الجغرافي (المكان)، والإطار التاريخي (الزمان)، ولغات جزيرة العرب في التاريخ القديم. ويتبعه ستة مباحث هي: اللغة العربية الشمالية، واللغة العربية الباقية (الفصحى)، وتكوّن اللغة العربية الفصحى قبل الإسلام وتوسعها بعد الإسلام، ونشأة الكتابة وتطورها، وتطور الكتابة العربية بعد الإسلام، وتطور الكتابة العربية وتنوعها بعد عصر الكوفة.

وقد حرصتُ بالتواصل مع ولده وبعض أصدقائه للحصول على سيرة أستاذنا الذاتية؛ ولكن للأسف لم نحصل عليها حتى كتابة هذا المقال ونشره، ولم يساعدني في الحصول على صورة له سوى الدكتور غيلان حمود غيلان الذي أمدني مشكوراً بصورة للدكتور الصلوي، والغريب أني لم أجد له أي صورة على محركات البحث مثل قوقل، ولا وجود لسيرة ذاتية له على أي موقع!

في هذا الفصل تعرّفْتُ على خط النقوش الصّيهدية، وهو فرع من الخطوط السّامية الجنوبيّة، له بعض العلاقة من جهة بالخط الحبشي، ومن جهة أخرى بالخطوط المتداولة في أواسط الجزيرة العربية وشمالها قبل الإسلام، وهو ما سماه علماء المسلمين بخط المسند و(المسند: كلمة منقولة من اللغات الصيهدية؛ حيث إن معناها "مسند مكتوب")، وفيه (29) حرفاً أبجدياً. ثم نقرأ في ذلك الفصل الكثير من تفاصيل الرموز لتلك الحروف ومقارناتها بالحروف العربية، وتأتي بعض القواعد والتصريفات عن (لغة سبأ) -تحديدًا- كالحديث عن الفعل وأوزانه وتصريفاته وأزمانه وطريقة كتابته وغيرها من متعلقاته، ثم الاسم من الفاعل، والمصدر، واسم الجنس، وعلامة التعريف؛ و(هي نون ملحقة بآخر الكلمة)، وأما علامة عدم التعريف، فهي إما بالتمييم أو بدونه و(التّمييم: مصطلح أطلقه الباحثون على إلحاق ميم بآخر الاسم)، ثم هناك حديث عن الإضافة، والجموع، والبدل، والنعت، والأعداد، والضمائر... وفي هذا الفصل وجدتُ بغيتي، وما كان قد أعطانا إياه أستاذنا إجمالاً في المحاضرات الأولى. ولم يقف هذا

الفصل عند الحديث عن لغة سبأ، وهي لغة أساس، ولكنه مضى يقارنها ببعض الفوارق والاختلافات في لغة معين، ولغة قَتَبَانَ، ولغة حضرموت. استفدتُ كثيرًا من هذه المعلومات كما يمكن -حتى الآن- أن يستفيد منها الطلاب والباحثون الراغبون في معرفة اللغة اليمنية كما أن في الفصول التالية من ذلك الكتاب المؤسس رصدًا مهمًا للجهود العلمية من خلال فصل (آثار اليمن وتطور دراستها) بقلم "د. كرستيان روبان"، وهو ما يضع القارئ على خارطة علمية دقيقة حتى تاريخ الكتاب (1985م) عن مسيرة الدراسات والبحوث عن آثار اليمن التي بدأت بمراحل الاكتشافات الأثرية في اليمن وأهمها دراسات الهمداني (280-360هـ/ 892-970م)، لسان اليمن أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني صاحب المؤلفات الشهيرة: الإكليل بأجزائه المعلومة والمفقودة، وصفة جزيرة العرب، وغيرها. ثم الجهود الأوروبية من خلال البحث عن النقوش، واستكشاف الآثار. ثم الجهود العربية التي بدأت بشكل رحلات كشفية، ومن ذلك مثلاً رحلة "أمين الريحاني" المسجلة في كتابه (ملوك العرب أو رحلة في البلاد العربية) 1925م، في ثلاثة أجزاء.

أما في المجال العلمي فقد جاءت المبادرة من مصر بصورة بعثة متعدّدة الاهتمامات العلمية قامت في عام 1936م بقيادة الجغرافي "سليمان أحمد حزين" وكانت حصيلة عملها (91) نقشًا معظمها من نَاعِط، ونشرت بقلم د. خليل يحيى نامي عام 1943م بعنوان (نشر نقوش سامية قديمة من

جنوب بلاد العرب وشرحها)، وهو أول عمل توثيقي عن اليمن في الوطن العربي. وهناك رحلة الصحافي "نزيه مؤيد العظم" إلى مأرب في 1932م في كتابه (رحلة في بلاد العربية السعيدة) نشرها عام 1938م في جزئين. ثم يأتي أول عمل يجمع المعارف المتعلقة ببلاد العرب قبل الإسلام وبخاصة اليمن في عمل واحد للدكتور "جواد علي" في كتابه (تاريخ العرب قبل الإسلام) ونسخته المنقّحة (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام) 1950-1960 في عشرة أجزاء، وهو سفر جليل، وعمل كبير مزود بفهارس قيّمة.

ثم تأتي دراسة المرحوم "محمود علي الغول" (1923-1983م) التي كانت رسالته للدكتوراه عام 1962م وعنوانها (اللغات اليمنية القديمة والعربية الفصحى) ولم تُنشر بعد للأسف.

أما في اليمن فلم تظهر المشاركة في الدراسات اليمنية القديمة إلا بعد ثورة عام 1962م على أيدي عدد من المثقفين اليمنيين غير المتخصصين أمثال: أحمد شرف الدين، وزيد عنان وغيرهما من الذين نشروا مؤلفات ترمي إلى إعطاء صورة شاملة للحضارة اليمنية القديمة.

ويأتي أول عمل علمي جاد في هذه الدراسات المتخصصة لـ"محمد عبد القادر بافقيه" الذي نشر عام 1967م دراسة لموقع العقلة ونقوشه (وهو جبل يقع على بعد 15 كم إلى الغرب من شبوة)، وكان عنوان الدراسة (آثار ونقوش العقلة، دراسة ميدانية لأحد المواقع الأثرية بالقرب من شبوة)

في منطقة حضرموت). ويأتي بعد هذه الدراسة كتاب "مطهر بن علي الإرياني" (في تاريخ اليمن شرح وتعليق على نقوش لم تنشر) 1973م، يحتوي على (37) نقشًا معظمها من نتائج الحفريات الأمريكية لمأرب، وبهذا العمل الحافل بالشروح المفيدة، والمعطيات الجديدة، والنصوص المهمة أخذت الدراسات اليمنية القديمة تترسّخ في اليمن. ففي عام 1975 قدّم "د. يوسف محمد عبد الله" رسالة دكتوراه بجامعة (توبنغن) في ألمانيا الاتحادية حول أسماء الأشخاص في النقوش، وما يقابلها عند الهمداني، وهي أول رسالة جامعية عن اليمن القديم يقدّمها باحثٌ يمنيّ، وبها قام الدكتور يوسف بإدخال هذه الدراسات في جامعة صنعاء لأول مرة. ويدين له البحث العلمي إلى جانب هذه الريادة باستطلاعاته واكتشافاته المهمة وتدريبه وإشرافه ومناقشاته، وبالكثير من الجهود والاكتشافات في (المعسال)، ومنطقة (قانية) بالسّودية بمحافظة البيضاء، ومنها أول قصيدة باللغة اليمنية القديمة بأبياتها الـ(27) وقد صاغها شعرًا الأديب العربي الكبير "سليمان العيسى" ونشرت في كتاب بعنوان (ترنيمه الشمس؛ نقش القصيدة الحميرية، صورة من الأدب اليمني القديم)، اكتشفها د. يوسف محمد عبد الله عام 1973م، ولم ينشرها سوى عام 1988م، لما احتاجت إليه من جهد كبير، ويقول مطلعها:

"نشترن/خير/كمهذ/هقحك.. بصيد/خنون/مأت/نسحك" والمعنى (نستجير بك يا خيرُ فكل ما يحدث هو مما صَنَعْتَ = بموسم صيد خنوان مائة أضحية سَفَحَتِ...) الخ.

ثم تدعّمت هذه الدراسات والجهود بالكثير من الباحثين والأساتذة المتخصصين، ومنهم "د. عبد الله الشَّيْبَة" الذي التحق بسلك التدريس في جامعة صنعاء بعد تقديمه رسالة الدكتوراه بعنوان (أسماء الأماكن في النقوش اليمنية) بجامعة (ماربورغ) بألمانيا عام 1982م.

وتعدُّ أول رسالة دكتوراه دولة في حقل التاريخ هي دراسة "د. محمد عبد القادر بافقيه" التي ناقشها في جامعة (السوربون) باريس عام 1983م، وكان موضوعها (اليمن في فترة ملوك سبأ وذي ريدان، من القرن الأول إلى الثالث الميلادي). وفي هذه الدراسة أرسى الدكتور بافقيه قواعد كرونولوجية لتلك الفترة وقَدَّمَ أول محاولة لصياغة تاريخها، وهي رسالة أكاديمية مهمّة ضَمَّت العديد من المعلومات، وفتحت الآفاق الجديدة في سبيل دراسة شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام.

ثم تطوّرت الدراسات اليمنية بشكل مُتَّزِد ومتتابع سواء بالنسبة لمجال الآثار أو الأبيجرافيا (علم النقوش)، وتضاعفت تلك الدراسات بعد افتتاح قسم الآثار في كلية الآداب بجامعة صنعاء -بشقيّه القديم والإسلامي- الذي تخرّج فيه العديد من الكوادر من أصحاب الاختصاص والمعرفة العلمية، وصار فيه الكثير من الأكاديميين اليمنيين، ومنهم على

سبيل المثال لا الحصر: د.إبراهيم المطاع، د.خلدون نعمان، د.عبد الحكيم شايف، د.عبد الرحمن جار الله، د. عبد الغني الشرعي، د.عبد عثمان غالب، د. غيلان حمود غيلان، د. فهمي الأغبري، د. محمد السّلامي، د. محمد العروسي، والأستاذ مهند السياني رئيس هيئة الآثار والمتاحف -رحمه الله- وقبلهم جميعاً أستاذهم أ.د/ يوسف محمد عبد الله، وغيرهم الكثير، ولهم جميعاً الاكتشافات المفيدة والحديثة في مناطق متعدّدة من اليمن، ولولا ظروف اليمن وتعطيلات التّمنية والحياة الحديثة والقديمة فيه لكان لدينا الكثير من الكشوف والمؤلفات والدراسات التي تفوق الموجود بمراحل بعيدة وأعداد كثيرة.

هكذا دَرَسْنَا اللغة اليمنية القديمة بعواملها ومعطياتها التاريخية من خلال ذلك المقرر الدراسي، وكانت الرغبةُ في الاستزادة تدعوني دوماً للاطلاع على ما كُتِبَ حولها فوجدتُ في التطبيق والتمارين على قراءة النقوش وَلَعًا كبيرًا وتعطشًا لم يَرَوْه سوى كتاب (مختارات من النقوش اليمنية القديمة) -سالف الذكر- والذي يحتوي على (122) نقشًا. وفيه يذكر رقم النقش، ومصدره، وصورته، وتاريخه، ومرجعه، والتعليق عليه. وأدركتُ أَنَّهُ بكثرة التمارين وقراءات النقوش تتَمُّ المعرفة وتتَعَزَّزُ العلميَّة، ونُفْهَمُ المادَّة، فكان أَن استعنتُ بكتابٍ مفيدٍ آخر هو كتاب الأستاذ المؤرخ والشاعر الكبير "مظهر علي الإرياني" (نقوش مسندية وتعليقات)، وهو ذاته الذي نُشِرَ من قَبَل في السبعينيات، ولكن في طبعة مزيّدة ومنقَّحة كانت

الطبعة الثانية منه قد صدرت قبل أربع سنوات من دراستنا للمقاصّة أي عام 1990م عن مركز الدراسات والبحوث اليمني، بمقدمة ضافية للدكتور عبد العزيز المقالح تحدث فيها عن الكتاب والنقوش والإرياني: المؤرخ والشاعر. وهذا الكتاب يحتوي على الكثير من النقوش، ومنها مجموعة (ألبرت جام) وأولها نقش عن الملك ذمار علي بعنوان (ذمار علي وتار يهنعم ملك سبأ وذي ريدان بن سمه علي ذريح) المسند رقم/1، وكانت طريقته في عموم الكتاب تسيّر وفق منهجية واضحة بأن يورد نصّ النقش بحروف المسند، ويقسّمه إلى فقرات لتسهيل مقارنة المسند بالحروف العربية. ويورد بعد كل مسند نصّاً حرفياً للمسند كما هو ولكن بحروف عربية وبعديّ مساوٍ لعدد الحروف المسندية بدون أيّة زيادات إلا ما جاء خطأ، وبهذا يستطيع القارئ بالعربية أن يقرأ النصّ المسندي بالأصوات والتُنطق القديم نفسه مع الالتزام بالفواصل. ثم يورد شرحاً للنصّ المسندي من اللهجة العربية اليمنية القديمة إلى اللهجة العربية الحديثة، تحت عنوان (محتوى النصّ أو محتوى النقش) ولم يسمّه كغيره (ترجمة)، وهو بذلك على صواب لأنّ اللغة اليمنية القديمة ليست سوى لغة عربية جنوبية، وليست ترجمة، ثم يتبع ذلك بتعقيبات، ومقارنات، وتحقيقات، وشرح لتلك النقوش تحت عنوان (التعليقات).

كانت تلك الكتب والمراجع من أهم ما أفادني في تعلّم اللغة اليمنية القديمة -على صعوبة ذلك التّخصص- إضافة إلى ما كنتُ أدوّنه من

ملاحظات وتعليقات أثناء محاضرات أستاذنا الدكتور إبراهيم الصلوي التي كانت تتّصف بالإيجاز، وقلة الكلام، والهدوء المصاحب لِسَمَتِ أستاذنا وطبيعة شخصيته، ولأستاذنا من المؤلفات: كتاب (مباحث في تاريخ اللغة العربية؛ اللغة والكتابة) يُدرّس في معظم الجامعات اليمنية، طُبِعَ في مطابع جامعة صنعاء، ط1، 2010م، وله من الأبحاث:

- (1) مساند حِميرية في مصادر التراث العربي، مجلة الإكليل، صنعاء، وزارة الثقافة، عدد (21)، السنة 8، 1990م.
- (2) ألفاظ يمنية خاصّة، دراسة لغوية دلالية مقارنة، مجلة كلية الآداب، جامعة صنعاء، العدد (12)، 1991م.
- (3) مباحث في تاريخ اللغة العربية، مجلة كلية الآداب، جامعة صنعاء، 1996م.
- (4) كتابات المسند وكتابات الزبور في اليمن القديم، مجلة أبجديات، مكتبة الإسكندرية، 2008م.
- (5) نقش سَبئيّ جديدٌ من نقوش إشهار ملكية أرض زراعية من قرية (سوات) بمديرية (خارف)، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة صنعاء، المجلد (32)، العدد (2)، 2009م، وغيرها.

فصلُ الخطاب

"الخط المسند يحوي (29) حرفاً بينما الخط الفينيقي يحوي (22) حرفاً فقط، وهذا هو الفرق الجوهرى الذى يميّز الخط المسند عن الفينيقي؛ حيث إن أقدم نقش للمسند يعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد. وخط المسند يكشف إسهام أهل اليمن فى الحضارة الإنسانية، وإن الإهمال الذى أصاب خطَّ المسند يرجعُ إلى انضمام اليمنيين للإسلام واهتمامهم بلغة القرآن؛ حيثُ بدؤوا يتعلمون اللغة العربية لفهم أمور دينهم بينما بقيت كتابات المسند منحوتة على الصُّخور، ومخابئ المناطق الأثرية القديمة، ولم يُعرف عنها إلا بعض الإشارات فى المصادر العربية؛ وهذا يدلُّ على ضعف الاهتمام بالمخزون التاريخى لليمن القديم. وبالمقارنة بين خطي (المسند والزبور) نجد أن المسند كان يُستخدم فى المعاملات القانونية والتَّخليد، وكذلك الاعترافات، والنذور الدينية للآلهة، ولذلك كان يُنحت على الصخور.

وهناك علاقة بين المسند والإغريق من حيثُ عدد الحروف فهى الأقرب لخط المسند، وتشترك مع الإغريقية، وهما مأخوذتان من اللغة السَّامية الأمِّ التى أخذت من كلِّ اللغات، وأمَّا معاملات النَّاس العادية واليومية، والعقود، والحسابات، فكانت تتمُّ الكتابة فيها بخط الزبور. ونقوش الزبور كانت تُكتب على الخشب والجلد؛ لأن اليمن القديم كان مجتمعاً

اقتصادياً تجارياً، ورأى العلماء والمؤرخون بأنَّ (خط المسند) ما دام مرسومًا على الجدران والأحجار فإنه لن يتطور. وقد مرَّ خطُّ المسندِ بمراحل تميَّز كلُّ مرحلةٍ عن سابقتها؛ حيثُ كان في (المرحلة القديمة) قائمًا على الزاوية والخطوط المستقيمة، وأشكال الحروف تميز عن المرحلة الثانية التي تلي القديمة، وفي (المرحلة الثانية) مالت الحروف للزخرفة مع تمسُّكها باستقامتها، وفي (المرحلة الثالثة) تميزت الحروف بأنها ذات زوايا حادة، وزادت فيها الزخرفة كثيرًا حتى قاربت الرسم، ثم جاءت المرحلة المتأخرة التي تميَّزت بحفر حول الحرف؛ حيث كان سابقًا يمرُّ بحفر الحرف بذاته إلى الداخل لكن المرحلة المتأخرة صارت بارزةً، وبدأت بتشكيل ما حولها، وصار يكتبها شخصٌ محترِّفٌ ومهنيٌّ فيما يبدو...@د.إبراهيم الصلوي: (محاضرة في مؤسسة السَّعيد للعلوم والثقافة- تعز؛ بعنوان كتابات المسند وكتابات الزبور).

تَحِيَّةٌ

(شُكْرًا لِبَاعِثِ عَزَّنَا الْوَضَّاحِ	...	ولرافع الآمالِ في الأرواح
شُكْرًا لِأُسْتَاذٍ يَخْلُدُ مُسْنَدًا	...	وَيُنَاقِشُ التَّارِيخَ لِلإِيضَاحِ
شُكْرًا لِمَنْ حَمَلَ اللِّوَاءَ بَعْلِمِهِ	...	ولمن أَنَارَ مَعَالِمَ الْأَفْرَاحِ
فَحَضَارَةٌ عَظُمَى مَحَالٌ مَوْتُهَا	...	حَتَّى وَإِنْ مُلِئَتْ بِكُلِّ جِرَاحِ

... مَهْمَا تَطَاوَلَ لَيْلُهَا بِظِلَامِهِ
... (نَشَوَانُ) قَالَ عَنِ الْمَلُوكِ وَمَجْدِهَا
... بِقَصِيدَةِ (التَّيْجَانِ) كَانَ بَيَانُهُ
... لَا بَدَّ يُشْرِقُ فَجَرُهَا بِصَبَاحِ
... شَعْرًا وَكَانَ كُبْلُبِلٍ صَدَّاحِ
... "فَالْأَمْرُ جِدٌّ وَهُوَ غَيْرُ مِزَاجٍ".



(24) الأستاذ الدكتور أحمد شمس الدين الحجاجي

(باحثُ الأسطورة، ورائدُ من روادِ تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها)

حديثنا اليوم عن واحدٍ من أعلام قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة القاهرة، الجامعة التي أعتزُّ بالتخرج فيها والاتصال بأعلامها الكبار، وهو أستاذنا الدكتور أحمد شمس الدين مصطفى الحجاجي المولود في (طيبة) عاصمة مصر القديمة، وهي (الأقصر) حاليًا في عام 1934م -أطال الله في عمره- وقد تلقَّى تعليمه الأوَّلي بمدارس بلده حتى أتمَّ دراسته الثانوية، ثم سافر إلى القاهرة، والتحقَّ بقسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب جامعة القاهرة، ولم يكن اختياره للغة العربية ببعيد عنه أو عن أسرته؛ لأن والده (شمس الدين) كان قد اختارها، وكذلك أخوه (كمال الدين)، وقد تخرَّجا كلاهما في كلية اللغة العربية بالأزهر الشريف، إلا أنَّ أستاذنا التحق بجامعة القاهرة ذات الطابع الحديث، عام 1955م، ودرس على يد كبار أساتذتها، أمثال: طه حسين، وسهير القلماوي، وعبد الحميد يونس، وشوقي ضيف، ومحمد كامل حسين، وشكري عياد، وغيرهم. وبذلك اختلف عن أبيه وأخيه، بل تميَّز عنهما وبزَّهما بمواصلته للدراسات العليا، فحصل على الماجستير (في النقد المسرحي في مصر) عام 1965م، ثم حصل على الدكتوراه عن أطروحته (الأسطورة في المسرح المصري المعاصر) عام 1973م بإشراف الأستاذة القديرة الدكتورة سهير القلماوي.

ثم قام بتثقيف نفسه باللغات والعلوم والمعارف الغربية، والمناهج الحديثة، ولأنَّه نشأ في بيئة عالمة ومثقفة، وعاش في الأقصر ذات التاريخ والحكايات والأساطير والتنوع الثقافي والمعرفي، ومن خصائصها التعايش

الديني والحضاري، فقد صار أنموذجاً للمثقف الواسع الاطلاع، الرقيق الطبع، المتدفق الحسّ والخيال، وهذا كله انعكس في تعامله مع الأدب إبداعاً ونقداً، بل أضاف إلى ذلك اهتمامه الواسع بالأدب الشعبي، فكان واحداً من أبرز أساتذته، ومن هنا خرج هذا الأنموذج المتفرد المستخلص من هذه الثقافات، وأضاف إليها أصالة أسرته ومكانتها العلمية في الأقصر، فهو من أسرة (الحجّاجي) ذات التاريخ والمعرفة العلمية في منطقته، ومن هنا ظهر أسلوبه وانعكس في تعامله مع الناس من ناحية، كما استثمر المكان ووعيه بحكاياته وأساطيره وتراثه فوظفه في أعماله الإبداعية من ناحية أخرى، فكان منها أبرز أعماله الإبداعية، وهي رواية (سيرة الشيخ نور الدين).

كنتُ ألتقي به في القسم كثيراً، فأرى فيه التميز، وأمس في حواراته الكثير من الصدق والروح الأصيلة التي لا تكلف فيها ولا ادعاء، إنه مزيج من الإنسان الريفى البسيط في تعامله وكلامه، والأكاديمي القدير في مهابته، وعباراته، وثقافته المتنوعة، ولكنه كان دوماً أقرب إلى المأثورات الشعبية والدراسات الأدبية المتعلقة بها، وهو في حواراته وحديثه يكثرُ التركيزَ على الربط بينها وبين الآداب العربية الفصيحة؛ إذ يرى أنها من مشكاة واحدة، بل إنّ الأدب الشعبي في كثير من قضاياها يفوقها عمقاً ودلالةً، وربما فسّر لنا ذلك ربطه المستمر بينهما في مؤلفاته وأبحاثه.

كانت لي معه الكثير من الجلسات في القسم وفي حضور أساتذة القسم الآخرين، وكم كنتُ أُلْسُ في تلك الجلسات قدرَ الرجل عند زملائه وطلابه -الذين صار بعضهم زملاءً له- كيف كان يعاملهم بأبوةٍ علميةٍ فريدةٍ، وكيف كانوا يجُلُّونه ويقدرونه لخلقهِ العالي، وعلمهِ الغزير، ومكانته البحثية والمعرفية والإنسانية.

تعلمتُ من أستاذنا -وقد ناقشني في رسالتي للدكتوراه مع أستاذي المرحوم -خالد الذَّكر- د.عبد المنعم تليمة الذي وصفَ الدكتورَ الحجاجي يوم المناقشة بـ"الرائد العظيم، والصديق القريب" وأستاذي الدكتور خيرى دومة، وأستاذي الدكتور السيد إبراهيم محمد- تعلمتُ منه كيف يقفُ الأستاذُ الحصيْفُ عند مفاصل البحث الذي يقوم بمناقشته، ويرى ما لا يراه الباحث من الجوانب التي كان عليه استكمالها، وكذلك كيف يعبرُ عن رأيه العلمي، ووجهة نظره -بحكم خبرته وتخصصه- بكلِّ هدوءٍ وعمقٍ دونَ تجريح أو توبيخ أو صراخ، كما قد نراه في أساليب بعض الأساتذة -للأسف الشديد- ممن يشنُّ هجومًا مكثفًا على الطالب يوم المناقشة لأغراض متباينة، وكأنَّه في حربٍ (نكون أو لا نكون)، ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾، ولكن أستاذنا وضعَ النقاط على الحروف، وأفاد وعلم، ووضح وفهم بكلِّ ذوقٍ ورفقٍ وأستاذيةٍ، فجزاه الله خيرًا.

وما وقف لديه أستاذنا في تلك المناقشة، وأشاد به -لقربه من اهتمامه بالأدب الشعبي تحديدًا- هو تحليلي لمجموعة أروى عبده عثمان، بل أذكر

أنه طلب إليّ -يومئذٍ- إبلاغها السلام والتحية على إبداعها وتميزها في مجموعتها (يحدث في تنكا بلاد النامس) وقد تمتّى لو أطلت التحليل لهذه المجموعة التي رأى فيها -بحسب قوله- اليمن بكلّ جوانبها وفنونها وقضاياها، وإنسانها، ومكانها- وهي كذلك بالفعل- وسأقتبس لكم هنا شيئاً من ذلك التحليل الذي أعجب أستاذنا الفاضل في الرسالة (وهي مطبوعة في كتابي: تطوّر الخطاب القصصي؛ من التقليد إلى التجريب القصة اليمنية نموذجاً، دار غيداء، الأردن، ط1، 2017م)، ومن خلال هذا الاقتباس نجدّد التحية والسّلام للأستاذة المبدعة أروى عثمان؛ حيث كتبت: "يمكن أن يمثّل الحدث الخرافي امتداداً للفانتاستيك بمعناه الواسع، ولكنه يقترب من الخرافة أكثر من خلال ميدانها الخصب، وهو الحكاية الشعبية بما تكتنزه من رموز ذات دلالة وإيحاء جديدين، لمعالجة فكرة ما، وهذا هو الذي جعلنا نفرده هنا، ولعلّ توظيف هذا الحدث بطريقة تجريبية في استيحاء روح الحكاية الشعبية، وتفجير رموزها كغطاء محكم وذكي لتمرير الانتقادات الاجتماعية والسياسية هو ما يحقّق التجريب في هذه المرحلة وقد نجحت فيه - إلى حد بعيد- أروى عبده عثمان في مجموعتها"يحدث في تنكا بلاد النامس"(مركز عبادي، صنعاء، 2003)، وبخاصة في أربع قصص في المجموعة هي: قصة"كيف استطاع حمادي الأفلح أن يأتي بالجن مربطين؟"، وقصة"جرجوف مدينتنا"، وقصة"شبيك لبيك"، وقصة"يحدث في تنكا بلاد النامس".

تقوم كل قصة على حدث خرافي لحكاية شعبية، ولكنها تحمل دلالة جديدة ذات بعد سياسي أو اجتماعي، وتمتزج بواقع جديد تذوب فيه معالم الحكاية القديمة حتى تكاد تتماهى مع القصة فيما يمكن أن يطلق عليه بالحكاية الجديدة، فالحدث في قصة "جرجوف مدينتنا" يأتي معتمدًا على بنية الحكاية الشعبية؛ حكاية "الجرجوف"، ولكنها تحمل دلالة عميقة؛ حيث ترمز إلى الظلم، فالجرجوف الذي كان في الحكاية وحشًا خرافيًا هو في القصة شخصية مختلفة "فجرجوف مدينتنا دائم الأرزّة بهندام أطلس أملس، وأهل مدينتي ما زالوا يشكون من ماهية ذلك الشيء الذي يظل يهتّر خلفه عند مشيته وخيلائه أهو ذنب أم شيء آخر"، وإن كان ما يزال يحمل نفس طباع جرجوف الحكاية من مسخٍ وقتلٍ، وأكل للحوم البشر لكنه هنا يتحول إلى رمز لكل مستغل يعيث بالمدينة فسادًا؛ بل إنه قد "شرخها نصفين، وأحال شروخها أشلاء.. وقبلها كان قد استهلك خلاياها الحية والميتة، عاث بكينونتها فسادًا ودمارًا هرق حكايتها الدافئة بين أقدامه.." (ص39).

ولا تخفي الدلالة السياسية من هذه الأفعال لجرجوف المدينة المتمثلة في شرور النفس، وأعمال المستغلين، ثم يؤكد ذلك خطابه كزعيم يلقي على أشلاء الغرفة السابعة -التي يخفي فيها ضحاياه في الحكاية- خطبته "انتصب على منبر الغرفة السابعة ليلقي على الأشلاء رسالته الأخيرة، فتح موسيقى

هادئة، وبصوت هادئ قال: أما بعد: فمن قلب الغرفة السابعة أهدي لك هذه الأمنية، أتمنى لك ولزهرتيك كل خير.. ومع محبتي.. وهي كلمات منمقة تخفي تحتها السم والموت، ثم يأتي الخلاص من عِرْقٍ ما يزال ينبض في تلك الجثة، وهو رمز للحياة التي تدبُّ في المرموز له وهو الوطن، فكما عادت الحياة في الحكاية من خلال الخاتم والإصبع المدفونة تعود هنا أيضا من خلال العِرْق النابض الذي "كان في الليل يتجدّر، وفي الفجر يسقي نفسه بالدموع والندى، ويغني أغنيته الحزينة: وامريم وامريمه/عروقك في بير زمزمه/تصرخ هاك الإصبع والخيطمه..، - ونلاحظ التغيير في كلمات الأغنية بما يناسب المعنى الجديد في القصة - ثم تخرج من صبح مشمس جذورُ العِرْق النابض من شروخ بئر زمزمه أصابع تختال بخواتمها اللامعة لتتحول إلى نخيل مثقلة بالرطب، وتنتهي الحكاية الجديدة بصراع بين الجرجوف، وبين النخلة يسفر عن انتصارها - كرمز للخير - على الجرجوف الشرير الذي يفتضح أمره ويظهر ذيله المشوك القبيح، ويضحك المنتصر في الأخير. هكذا يتم توظيف الحدث الخرافي ليحمل دلالة تجريبية وتجديدية معًا ذات مضمون سياسي وطني، والأمر نفسه يتحقق في القصص الأخرى للكاتبه...الخ"، ذلك كان بعض التحليل لقصص مجموعة (يحدث في تنكا بلاد النامس)، والذي ما يزال يحدث.

لا يمكن لأيِّ باحثٍ في الأدب الشعبي أن يتجاوز كتابات أستاذنا الحجاجي في هذا الميدان التي من أهمها (مولد البطل في السيرة الشعبية)، وقد درس فيه السير الشعبية جميعها، واستخلص منها ملامح مولد البطل، وكأنه -بأتباعه طريقة البنيويين في معرفة الوظائف في الحكاية الشعبية- قد وصل إلى معرفة جامعة لما يربط السيرة الشعبية بأهم روابطها المشتركة في الخيال الشعبي، وفي طريقة بناء السيرة ذاتها؛ حيث يكون مولد البطل علامة مهمة في بناء السيرة وأحداثها وشخصياتها، ثم كان له الجهد العلمي المتتابع في هذا الميدان؛ فتناول معلماً آخر في السيرة الشعبية، وهي (النبوءة، أو، قدر البطل في السير الشعبية العربية) فالنبوءة ليست مجرد حدث عابر في بناء السيرة، بل عدّها بنيةً ركيزةً في السير الشعبية لا تخلو منها أي سيرة، ومن هنا كان كتابه مؤكّداً على تأملاته العميقة في معايشة السيرة الشعبية والخوض فيها، وهو بذلك يتلمّس جوانب ذكية ودقيقة في تلك السير تدلُّ على حِسٍّ معرفي ومنهج نقدي.

ومن سيرته وأعماله الكثيرة نرصد بعضها؛ حيثُ عمل الدكتور أحمد الحجاجي في تدريس اللغة العربية والأدب العربي في بلده مصر بعد عودته من أمريكا في الثمانينيات. ولم يقتصر تدريسه للغة العربية وآدابها على مصر وحدها، بل امتد نشاطه التعليمي إلى أمريكا، وسلطنة بروناي، والسعودية، والإمارات، وكوريا التي عمل فيها أستاذاً زائراً في جامعة (هانكوك) للدراسات الأجنبية في (سيول)، وبقي فيها عامًا، ثم

سافر من هناك إلى أمريكا، وعمل في تعليم اللغة العربية والأدب العربي والأديان المقارنة في جامعات عديدة كجامعة (نورث كارولينا)، وجامعة (أبليكانت)، وجامعة (ويسكونسن بماديسون)، وظلّ يدرّس في جامعات أمريكا أكثر من عشرين عامًا، ثم عاد إلى وطنه ليدرّس اللغة العربية و النقد والأدب الشعبي والمسرح في المعهد العالي للفنون المسرحية، والجامعة الأمريكية، وجامعة القاهرة. وفي عامي 1993 و1994م عمل أستاذًا زائرًا في المعهد العالي للدراسات الإسلامية بوزارة الشؤون الدينية ببروناي دار السلام. وخلال عمله في تلك الجامعات أشرف على عددٍ كبيرٍ من رسائل الماجستير والدكتوراه، وتخرّج على يديه مئات من الباحثين. وقد أشرف على تنظيم الدورات اللغوية المكثفة للطلاب البروناويين الذين التحقوا بجامعة الأزهر، كما ظهرت جهوده عمومًا في تعليم اللغة العربية لطلاب شرق آسيا.

ومن اهتماماته أيضًا تقديم الفن الشعبي للجمهور الواسع، فكان له برنامج بعنوان (الفن الشعبي) يجلّي فيه هذه الفنون، ويعرض للسيرة الهلالية بالحوار مع أحد رواتها الحافظين لها، ومنهم: (محمد اليميني)، وقد أذيع في التلفزيون المصري، ويمكن البحث عنه ضمن ذاكرة (ماسبيرو). وأما عن كتبه ومؤلفاته فلأستاذنا العديد من الأعمال المتميزة، وفيما يأتي سنقف عند تفصيلها: مع الاستعانة بما كتبه صديقه وزميله د. عارف كرخي أبو خضير في رصده لجهود الحجاجي الأدبية التي تمثّلت في

أحد عشر مؤلفاً، تركز على ركيزتين كبريين هما: (الأسطورة، والسيرة)،
ونفصلها على النحو الآتي:
أولاً: الأعمال الإبداعية:

1- رواية (سيرة الشيخ نور الدين) طبعتها الهيئة المصرية العامة للكتاب،
عام 1987م، (وأعاد المجلس الأعلى للثقافة طباعتها عام 2002م). هذه
الرواية نُشرت في عام 1985م في حلقات في مجلة القاهرة، ثم نُشرت
مجموعةً في كتاب في العام التالي 1986م، وتضمُّ الرواية (22 فصلاً)،
تتضمن حوادث من حياة مؤلفها التي مرّت به في مدينتي الأقصر والقاهرة،
وتمثله شخصية "محمود" الراوي، وحياة أسرته، وعائلته (الحجّاجيّة)، فهو
لأب من الأشراف، ومن نسل الشيخ أبي الحجاج الأقصري، وفيها كثير من
الشخصيات الحقيقية كزملائه وزميلاته وأصحابه وجيرانه ومعارفه
وأهالي بلده ورجال الدين فيها. إلا أنها تركّز أساساً على سرد حوادث
حقيقية - في أغلبها - وقعت لوالده الشيخ (شمس الدين) مدرس اللغة
العربية في مدرسة الأقباط بالأقصر، ومأذون المدينة، وقد أطلق عليه
المؤلف اسم الشيخ (نور الدين). بيد أنه أسبغ على روايته خيال كاتب السيرة
الشعبية، وأخرج بطله من حيّز الإنسان الواقعي إلى حيّز الإنسان
الأسطوري حين صوّر الشيخ نور الدين في صورة البطل الشعبي، والولي،
والصوفي، والمغامر، والفارس، والمقاتل، والمجاهد، والرحالة، وأسند إليه
أعمالاً ووقائع خارقة لا تصدر إلا عن شخصيات أسطورية أو عن أبطال

السيرة الشعبية كعنتره، وأبي زيد الهلالي وغيرهما. فالرواية في أساسها سيرة ذاتية لمؤلفها ولوالده معاً، وقد وضعت في قالب السيرة الشعبية، أو هي بعبارة أخرى مزيج بديع متقن من السيرة الذاتية والسيرة الشعبية - كما يرى أبو خضيري.

وقد لاقت هذه الرواية/السيرة استحساناً كبيراً في الأوساط النقدية والأدبية والفنية، ومن مظاهر ذلك الاستحسان أنها حوّلت إلى مسلسل تلفزيوني بعنوان (درب الطيب) من إخراج نادر جلال، وبطولة هشام سليم، وشارك في المسلسل أكثر من (107) ممثلاً وممثلة من نجوم الفن المصري، ومن كبار الفنانين: من أمثال الفنان عمار الشريعي مُلحنًا، وبشير الديك كاتبًا للسيناريو والحوار. وجاء المسلسل في (34) حلقة تلفزيونية، وهو عمل كبير، دارت أحداثه في الأقصر، وبدأ بحادثة التفجير الإرهابي في الأقصر، وكيف أثّر ذلك على السياحة في مصر، وكانت تلك الحادثة نواةً للحكاية أو السيرة ودافعاً لبداية أحداثها، ثم يرجع محمود ابن الشيخ نور الدين الحجاجي لبلده بعد هذه الحادثة، ويعود بتقنية (الFLASH باك) ليروي سيرة الشيخ نور الدين الحجاجي. وهي رواية سيرية للإنسان والمكان، وقد أبدع فيها أستاذنا، وبرهن على قدرته العالية في السرد، وفي تمثيل المتخيّل وربطه بالواقع، هذا بالإضافة إلى المحمولات الشعبية والأسطورية الكثيرة التي تخلّلت الرواية السيرية، وكانت علامةً لتمييزها

واكتنازها بالمعنى والفن، وبالحياة والتاريخ، وبصفات المكان وخصائص إنسانه في الأقصر.

2- مسرحية (الخماسين)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1988م. نُشرت هذه المسرحية ضمن سلسلة المسرح العربي، وهي في ثلاثة فصول، تدور حول جريمة قتل راح ضحيتها الشاب "عليوة" شقيق (عبدربه أبو السعود الحشاش) من أثرياء نجح من النجوع الشهيرة بالأقصر، وموضوعها في ظاهره قضية الثأر التي تنتشر في صعيد مصر، وفي باطنه موضوع العدالة. فرياح الخماسين المحملة بالشر المستطير -في بعدها الرمزي- تقوم المسرحية على محاولة مواجهتها بالعدل، ليتحقق للإنسان حلمه الأزلي في أن يتطابق العدل والقانون من أجل تحقيق العدالة الكاملة. ونلاحظ اعتماد الكاتب في إبداعه على معطيات الواقع وعلى بيئة الأقصر بقضاياها وهمومها وإنسانها وثقافتها، ومن هنا تميز في طرحه وإبداعه.

ثانياً: الأعمال النقدية: توزعت على مجالات ثلاثة، هي: المسرح، والأسطورة، والسيرة الشعبية، وذلك على النحو الآتي: (المسرح) أربعة كتب هي:

3- (النقد المسرحي في مصر، 1876 - 1923م)، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 1993م. وهي دراسة تأسيسية رائدة في مجالها جعلها في تمهيد؛ يكشف فيه عن المؤثرات في النقد المسرحي، وباين كبيرين هما: الأول يتحدث عن فكرة المسرح، وقد تناول فيه نظرية المحاكاة، وأداة المسرح (لغته)، ووظيفته. والثاني تحدّث عن فنية النقد المسرحي، وكشف

فيه عن ثلاثة ألوان من النقد المسرحي، وهي: نقد الدعاية، ونقد التوجيه، والنقد الفني.

4- (العرب وفن المسرح)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975م. وتناول فيه المسرح عبر التاريخ؛ حيث جاءت فصوله الخمسة هكذا: الأول: المسرح والعصر الجاهلي، والثاني: العصور الإسلامية والمسرح، والثالث: عصر السيرة والمسرح، والرابع: الاحتكاك الحضاري والمسرح، والخامس: العصر الحديث والمسرح.

5- (The Origins of Arabic Theatre - أصول المسرح العربي)، كتبه في أمريكا، ثم نشره في الهيئة المصرية العامة للكتاب في القاهرة عام 1981م. وهو في أربعة فصول: الأول: عن دور الإسلام والحضارة الإسلامية في نشأة المسرح العربي، والثاني: عن أثر البعثات التعليمية في التأصيل للمسرح العربي، والثالث: عن الفرق المسرحية الأوروبية وأثرها في الجوانب الاجتماعية والفنية في مصر. والرابع: عن تأثير ترجمة مسرحيات شكسبير في الفن المسرحي العربي.

6- (المسرحية الشعرية في الأدب العربي الحديث)، القاهرة، دار الهلال، 1995م. ينطلق من التأصيل؛ حيث يرى أن "فنون الفرجة الشعبية" كخيال الظل والأراجوز والسيرة الشعبية والتعازي الشعبية هي - بما انطوت عليه من عناصر السرد والحكاية والغناء - المقدمات الأولى للمسرح الشعري العربي، وفي الكتاب استكشاف لرحلة الشعر المسرحي في الأدب

العربي قبل شوقي وبعده ليتعرّف على حقيقة ريادته للمسرحية الشعرية في الأدب العربي، وقد وضع الشعر المسرحي في حلقات هي: حلقة التأصيل، يمثلها شوقي، وحلقة التطور، يمثلها بكثير وعبد الرحمن الشرقاوي، وحلقة النضج أو التجديد، يمثلها صلاح عبد الصبور.

(الأسطورة) ثلاثة كتب، وهي:

7- (الأسطورة في المسرح المصري المعاصر، 1933 - 1970م)، القاهرة، دار المعارف، 1984م. وهو في الأصل أطروحته لدرجة الدكتوراه التي فتحت له عوالم الأساطير والسيرة الشعبية والإبداعات الروائية والمسرحية، وفيها درس مصادر الأساطير الشرقية والغربية، وأوضح أثرها في أربع عشرة مسرحية لسبعة من مؤلفي المسرح المصري، وهي كل ما أُلّف في المسرح المصري المعاصر مما استمد أصوله من ينابيع أسطورية كما يرى الدكتور الحجاجي.

8- (الأسطورة في الأدب العربي)، القاهرة، دار الهلال، 1983م. وفيه درس أسطورة الخلق الفني في الأدب العربي، وقد قسّم الكتاب إلى مدخل، وباين. حاول في المدخل توثيق مادة هؤلاء الشعراء من الأعمال المدوّنة في العصر العباسي محاولاً التعرّف على شكلها الشعبي. وخصّص الباب الأول للأعمال المكتوبة نثرًا، وقد قسّمه إلى فصلين، فصل خاص بالمقامة الأسودية، والمقامة الإبليسية لبديع الزمان الهمذاني. والفصل الثاني دراسة لرسالة التوابع والزوابع لابن شهيد. أما الباب الثاني فدراسة لأسطورة الخلق الفني

في الأعمال الشعرية، وقسّمه إلى فصلين، الفصل الأول دراسة لقصيدة الحكم بن عمرو البهراني، والفصل الثاني دراسة لمسرحية مجنون ليل لأحمد شوقي. وأُعيدت طباعته بعنوان (تجليات أسطورة الخلق الفني في الأدب العربي) صدر عن الهيئة العامة المصرية للكتاب، 2016م.

9- (صانع الأسطورة الطيّب صالح)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م، وهي دراسة لدور الأسطورة في أعمال الطيب صالح: (عرس الزين، ومريود، وبندر شاه (ضوء البيت)، ودومة ود حامد). ويرى الدكتور الحجاجي أن الطيّب صالح قد استخدم الأسطورة المعيشة في الواقع السوداني، وبنى عليها أعماله الروائية، ورسم من خلالها الأسطورة بكل أبعادها، فكان بجمعه لجزيئات الأسطورة الشعبية في وحدة متناسقة صانعاً لها. ويعدُّ هذا الكتاب محاولة جادة لدراسة الأسطورة في الأنواع الأدبية الشفاهية والمكتوبة. وقد صدر في طبعة ثانية عن المجلس الأعلى للثقافة، عام 2019م.

(السيرة الشعبية) كتابان، وهما:

10- (مولد البطل في السيرة الشعبية)، القاهرة، دار الهلال، 1991م، يتناول حلقة من حلقات السيرة، وهي مولد البطل كما قدّمته السيرة الشعبية، للوصول إلى العناصر المكوّنة لنصوصها. وقد قسّم المؤلف الكتاب إلى سبع وحدات، وهي: مصادر البحث (دراسة للراوي والرواية)، والنبوءة، والبطل المصاحب، والنسب، والميلاد، والغربة والاعتراب، والاعتراف والتعرّف.

ويعُدُّ كتاب (مولد البطل في السيرة الشعبية) تنويجًا للجهد الضخم الذي بذله الدكتور الحجاجي في دراسة علاقة الأدب الشفوي بالأدب المكتوب أيضا.

11- (النبوءة أو قدر البطل في السيرة الشعبية)، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 1994م، يصوِّر النبوءة بوصفها عنصراً مهماً من عناصر السيرة تربط البطل في جميع مراحل حياته بالأسطورة برباط وثيق. وقد أخذ في هذا الكتاب النبوءة الخاصة بالميلاد المحددة لسيرة حياة البطل، وتناولها في علاقتها بالمكان والزمان، وحدد الكيفية التي يمكن أن تبلِّغ النبوءة عن طريقها، فتناول بالدراسة الرواية، والإلهام، والتنجيم، وقراءة الرَّمَل، والكتب القديمة.

ثالثاً: المساقات التعليمية والأبحاث: منها كتاب (في قواعد اللغة العربية)، دار الإصلاح، الدَّمام، السعودية، 1980م. وأما أبحاثه فهي كثيرة، نذكر منها مثلاً: الأسطورة والشعر، دراسة في الأوليات (1984)، وقصة المثل في القرآن الكريم (1986)، والأسطورة والعلم، دراسة في قصة قنديل أم هاشم (1988)، والفيض والنضوب والإبحار في ذاكرة الشعر (1991)، وأحلام الطائر الجوال، وانسلاخ الشعر من الأسطورة (1994)، وثمة بحث قيِّم عن الكتاب المدرسي في المدارس العربية في بروناي/دار السَّلام، ألقاه في المؤتمر الدولي لتعليم اللغة العربية الذي عقده قسم اللغة العربية بالمعهد العالي

للدراستات الإسلامية سنة 1994م. وغيرها. كما كتب العديد من المقالات في الصحف والمجلات، والدوريات، وكتب مقدّمات لأعمال كثيرة. وقد كُلت جهوده بجائزة الدولة التقديرية عام 2011م، ولا شك أنها تمثّل قيمةً مهمةً في حياة أستاذنا واعترافاً بفضلها، ولكن جائزته الأكبر هي محبة الناس له، وخلوده في وجدان طلابه وذاكرتهم، ودعواتهم الدائمة له بالخير والجزاء الحسن.

فصلُ الخطاب

"استخدم عرب الجاهلية لفظة الأساطير بمعنى الأباطيل، وهم يقصدون بها القصص التي لا يوثق في صحتها. وقد أكّد القرآن الكريم المفهومَ الجاهلي للفظّة (أساطير) فذكرها تسع مرات حاملة لنفس هذا المعنى. وليس مفهوم اللفظة بهذه الصورة فريدا في اللغة العربية، ففي جميع اللغات ارتبطت لفظة أسطورة بما لا يصدق أو بما هو محض خيال. وهذا البحث لا يعنى بالأسطورة هذا المعنى وإنما يعنى بالأسطورة "قصة سردية مرتبطة بالشّعيرة" وأن هذه القصة لا ينفصل وجودها عن هذه الشعيرة؛ إذ الشعيرة هي التي تفرق بين الأسطورة وغيرها من ألوان القصص، وارتباطها بالشعيرة لا يجعلها -بالنسبة لمعتنقيها- مجرد قصة تقصّ، وإنما هي حقيقة

معاشة...@د.أحمد شمس الدين الحجاجي (كتاب الأسطورة في المسرح
المصري المعاصر 1933-1970).

تَحِيَّة

... وفيه من عالم الأرواح أسرارُ	(في سيرة الشيخ أخبار وأقدارُ
... مَيدانُها (طِيبَةٌ) والأقصرُ الدَّارُ	أسطورةٌ تَبَعُ التاريخَ أغنيَّةٌ
... لَهُ على شَفَةِ الأشعارِ تَكَرَّارُ	هُنَاكَ يَخْرُجُ (نورُ الدين) فارسُها
... نَشِيدُها في طُمُوحِ الشَّعْبِ إعصارُ	كانت بَطولاتُهُ زادًا وأمنيَّةٌ
... كالنُّورِ وهو على الأيامِ يَخْتارُ).	وهِمَّةُ المجدِ تُهْدِي لِلْفَتَى سُبُلًا

**مقتطفات من أصداء القُرَّاءِ للمقالات من اليمن ومن الوطن العربي؛
عبر وسائل التواصل الاجتماعي المختلفة.**

الحلقة 1: د. عبد العزيز المقالح:

- أ.د/ عبد الكريم العوفي (الجزائر): وفقك الله أخي الدكتور أبو طالب. لقد عهدتُك وفيّاً لأساتذتك وزملائك وطلابك، وكل من يعمل في المحيط الذي تتواجد فيه، وليس غريباً أن يكون هذا الوفاء والبر لمن أحاطوك بالرعاية العلمية أو أكلت معهم العيش والملح، كما يقول عوامنا. فهنئاً لك، وبارك الله في علمك وعملك! محبتي وتقديري.

- د. محمد الأكسر (اليمن): د إبراهيم، لو على التعلم -للأمانة- منك تعلم كثير، وأنا منهم سماحةً ونبلَ الخلق، وطيب المعشر، وكل ما هو جميل!
- عبد الرحيم السّعيد (اليمن): حفظك الله دكتورنا الغالي، ووفقك لكل خير، نجاحاتك غزيرة وتشرفنا، وبك نتشرف، وبقلبك الطيّب تحتفي أرواحنا، خالص الحب.

- علي القادري (اليمن): مشروع رائع! وجهد طيب يستحق الإعجاب والإشادة، وليس ذلك بغريب على الدكتور إبراهيم الذي عرفناه زميلاً طموحاً، مبدعاً، ومنه نتعلم اليوم الوفاء والتواضع والعطاء والإبداع المتجدد. دُمتَ بألف خير وسعادة.

الحلقة 2: د. كمال أبو ديب:

- أ.د/ كمال أبو ديب (سوريا): فكرةٌ فريدةٌ تُفصِّحُ عن نُبلٍ في النَّفس والفكر، وَوَلَعَ بالبناء المعرفي جيلاً بعد جيل، وباحثًا في إثر باحث. مع أنني أعتزُّ بخطوتك هذه؛ فإنني أشعرُ بالحرصِ لِإغداقك عليَّ ما لا أستحقه من مكانة.. مع مودتي وتقديري.

- أ.د/ علي الحداد (العراق): بوركت د. أبو طالب! ليست هذه مقالة عالية الوعي ونبيلة الاستعادة فحسب، إنها درس معرفي حصيف، وتناول قيّم، ومثال وفاء لواحد من مفكرينا ممن ألقى حجرًا في مياه الوعي السائد فأقلق ثوابته.

- عبد الكريم السُّقْطري (اليمن): إنك عملاق نهلت العلم والمعرفة من أناس عمالقة في الأدب واللغة.. فأنت حقًا تستحق المتابعة.

- عبد الله جحاف (اليمن): قلمك دائمًا متألق، وحرفك شيق، يشد الأذهان، ويغذيها بأفكار لا نجدُها إلا في كتابات أديب مبدع، وناقد ماهر، تمرّس الإبداع، وامتلك نواصي اللغة والأدب في يمينه، عرفنا شخصك من خلال كتاباتك، وأدعو الله أن يمنَّ عليَّ بقاء شخصك الكريم، دكتورنا العزيز إبراهيم أبو طالب.

- أ.د/ خيرى دومة (مصر): رائع يا صديقي، عرضك لأفكار أبي ديب ومنهجه وطريقته. شكرًا لك!
- عبد الرحمن موكل (السعودية): جلستُ معه أكثر من مقيّل في منزل الشاعر الكبير المقالح، ووجدت عند أبو ديب عمقًا معرفيًا، وثقة العالم، ويحسب لجامعة صنعاء استقطاب العالم والناقد الدكتور كمال أبو ديب.
- زياد عوض (اليمن): أستاذي ومعلمي القدير الدكتور إبراهيم أبو طالب، تعلمتُ منكم الكثير، واليوم تكشفون لنا -بهذا الدرس في الوفاء- كم نحن مقصّرون في حقكم. لكم مني فائق المودة، وأتمُّ التبجيل.
- سمير مجيد البياتي (العراق): روعة دكتور! سرد شيق، تصحبنا معك كي نرى ونسمع.. هذه هي طريقتك السلسة والشيقة في الطرح والاستعراض الممتع.. ألف تحية لك، ولكمال أبو ديب.
- ربا مماني Raba' Momani (الشام): نعم كله صحيح وحقيقي ما قلته في حق الدكتور كمال أبو ديب صاحب نظريه الخفاء والتجلي الذي جعل من عقولنا تتحرك، وتحاكي، وتناقشه في جامعه اليرموك والذي كان القمر الذي ينير المعرفة فيها أسلوبه الذي يحرك عقولنا، تتفكر في كل شيء حولنا، كل الكلمات والمحبة والتقدير لا تكفيك يا دكتور، فقد كانت لك بصمات واضحة في تفكيرنا وحياتنا. أطل الله بعمرِكَ ويوفّقك أينما حللت فأنا من طالباته التي تعترّ به.

- إبتسام أبو شرار (سوريا): مقالة مثيرة لجوانب كثيرة في ذات الكاتب والمخصوص بالكتابة، والمتلقي بصورة عامة، مقالةً تحرّك في النفس فضول المعرفة والاستطلاع، تتضمّن جانباً من سيرة غيرية لا تخلو من انطباعات، وتثير التوق للتحصيل العلمي المتميز. بالتأكيد إنها تعكس وفاء الأستاذ، والطالب الذي لا ينكر الفضل. حقاً هو التميز في العطاء والأخذ.
- نبيل محمد صغير (الجزائر): قراءة مشروع كمال أي ديب ممتع، وتجعل الباحث يراجع الكثير من مسلماته النقدية.

الحلقة 3: د. أحمد الجرُموزي:

- أ. عبد الله يحيى السريحي (اليمن): أحسنت الإشادة بمثل هذا العلم الفذ، رحمه الله!
- خالد محمد عكروت (اليمن): رحم الله أستاذنا أ.د أحمد الجرُموزي. فعلاً كان من أفضل من استمعت إليه في تدريسه وأسلوبه. وكانت محاضراته لها نكهة لا نملُ منها. جزاك الله خيراً دكتور إبراهيم.
- أ. عبد الجبار سعد - رحمه الله - (اليمن): سلمت دكتور إبراهيم! وشفيت بالتعريف بهذه القامة الأكاديمية السامقة، رحمة الله تغشاه.
- عبد الله العمري (اليمن): رحم الله أستاذاي الدكتور أحمد الجرُموزي ما علمتُ بوفاته إلا الآن. فهو كما قدّمت دكتور إبراهيم، وقد علمتُ منه في إحدى زيارته لوزارة التربية أثناء عملي بها، وكان يزورنا بين فترة وأخرى. إنه خريج الكلية العسكرية، وكان ضابطاً بالجيش اليمني، ثم أكمل دراسته في الإعلام في مصر، ثم تخصص في الصحة والإرشاد التربوي.. وربما أن انضباطه قد اكتسبها من حياته العسكرية.
- إبراهيم شرف الفضيل (اليمن): رحم الله الدكتور أحمد الجرُموزي، أستاذك عندما كنت طالباً، كان وفيّاً في إيصال سلامه من خلالك إلى أستاذه في مصر، ولكن الأقدار شاءت عدم وصول رسالته، ولكن الوفاء

حَظَمَ لديك أي نسيان لمعلمك الجرموزي. وها أنت تعطينا درسا نحتفظ به في سويداء قلوبنا، ونتخيل رسم ملامح معلمك، صوته، خطواته، إخلاصه، تفانيه، انضباطه. د. إبراهيم أبو طالب لم أقابل معلمك في الواقع، لكني صافحت إنسانه من كلماتك. يا لوفائك كم هويانع خَضر، تنيح به سويداء القلوب!

- د. عبد الكريم رعدان (اليمن): رحمة الله عليه.. بورك دكتورنا الفاضل، وبورك قلمك.. ذكرتنا برجل يشبه نصف جامعة. تعلمنا منه حب التميز والإبداع.

الحلقة 4: د. علي جعفر العلاق:

- أ.د/ علي جعفر العلاق (العراق): د. إبراهيم أبو طالب.. أيها الشاعر العذب النابه الجميل.. ما زلت أذكر حيويتك وجمال روحك. وما زلت أحن بعمق إلى فترة هي من أجمل فترات حياتي وأغناها.. شكرًا لوفائك، وشكرًا لذاكرتك النقية.. مع تمنياتي لك بالتألق على الدوام.

- أ. فاضل الكعبي (العراق): أحسنت وأجدت وبوركك صديقي المبدع دكتور إبراهيم! بهذا الاستذكار الرائع والوفاء الأكيد لقامة علمية وإبداعية وثقافية عربية شامخة بالعطاء والتميز صديقنا وأستاذنا الشاعر المبدع الكبير الأستاذ الدكتور علي جعفر العلاق الذي لا يملئه الدارس والمتعلم، وأمامه يودُّ لو يطول وقت الدرس والمحاضرة أكثر مما كان، ذلك لفيض التشويق والفائدة والألق والعلم والشعر والرونق والموسيقى والجمال المتهادي من فيض كلمات المعلق من معلقات القول المنساب ضوعًا وعطرًا وإبداعًا من حديث العلاق أينما التقيته في قاعة الدرس أو خارجها، ولا يمكن أن ينسى ذلك كل من التقاه، وتطلع إلى دروسه وحديثه، لذلك يا صديقي وأخي العزيز المبدع دكتور إبراهيم أقول لك: أحسنت، وأجدت، وبوركك بهذا الاستذكار، والوفاء للأستاذ الدكتور المبدع الكبير علي جعفر العلاق، ربي يمدّه صحةً وعافيةً وألفًا وإبداعًا لا ينضب.

- عبد الله المخيط (اليمن): أحيانا تقف الكلمات عاجزةً عن وصف ما يُسمَّى بالإبداع، وكلماتك دكتور إبراهيم قد فاقت الإبداع والتميز بوصفك لدكتورنا المتميز أ.د علي جعفر العلاق.. وأضيف هذه الكلمات التي ما زلتُ أحفظها عن ظهر قلب، والتي ألقاها علينا في إحدى المحاضرات بصوته الجهوري المتميز:

عشيةً مالي حيلةً غير أني.. بلقط الحصى والخَطَّ في الثُّرب مولعُ
أخُطُّ وأمحو الخَطَّ ثم أعيدُهُ.. بكفِّي والغربانُ في الدار وَقَّعُ.
محمد شحاتة العمدة (مصر): د. علي رائع رائع! سعدتُ بصحبته لأيام
بالشارقة، كان من أعضاء لجنة التحكيم لجائزة الشارقة، ولنا ذكرى طيبة
في أمسية شعرية كنت أديرها، وكان يحضرها، وشارك بها.
- عبد الله عباس الإرياني (اليمن): وتعلمتُ من مقالِكَ المدهش، حتى
تمنيتُ ألاَّ ينتهي أبداً، كيف يترجم الوفاء لكلمات لا تقدَّر بثمن... لك
خالص الاحترام.

الحلقة 5: د. كمال بشر

- د. عبد الحكيم باقيس (اليمن): أسأدتنا الكرام الفضلاء نخبةً منتخبةً من أفضل الأساتذة في الجامعات المصرية، خلقًا وعلماً، رحم الله من قضى نحبه منهم! وحفظ الأحياء في كمال من الصحة والعافية. أعدتني معك أخي الكريم وزميلي العزيز دكتور إبراهيم أبو طالب إلى تلك الأيام الجميلة في القاهرة، وقت أن كنّا نلتمس من قبس هؤلاء الأعلام. استمر في هذه الاستعادة لزم من جميل نُطِلُّ فيه الآن من على كنف ذكرياتك إلى بعض من ملاحظنا التي توشك أن تُمَحَى أو تغيب، وسط ركام هذه المحنة التي تعيشها اليمن الحبيبة.

- عبد الله المخيط (اليمن): يا سلام عليك يا دكتور إبراهيم! وما أروع كتابتك وسردك لقصص ممن تعلمت منهم، جعلتني - وأنا أقرأ مقالتك - أعيش مع ما كتبت، وكأني أشاهد الأحداث بعيني. دمت دكتورنا بصحة وعافية ودامت كتاباتك وإبداعاتك!!

- عبد الكريم الكحلاني (اليمن): ومنك نتعلم، يا علمنا، وقدوتنا، وفخرنا أنت يا دكتور إبراهيم أبو طالب التحية لك يا غالي، وزادك الله من العلم ما ينور به الأجيال جيلاً تلو جيل.

- د. أحمد النهمي (اليمن): مقال يجمع بين المعرفة، والمتعة، والسلوك، والقيم. رحم الله العلامة الكبير د. كمال بشر! وحفظ الله أستاذنا الدكتور عباس السُّوسة. وتحية لك د. إبراهيم.
- محمد الشُّويح (اليمن): وهج وألق.. محظوظ كل صرح تمر به يا دكتور، مبارك لأقلام عربية هذا السبق!
- أ. محمد الغربي عمران (اليمن): شكرًا لتسليط الضوء على هامة عظيمة.. لك شذى الورد.

الحلقة 6: أ. د عبد المنعم تليمة

- صدام فاضل (اليمن): الله؛ ما أروعك يا دكتور! هنيئاً لكّل مشايخك، وهم يحظون بهذه الاحتفالات الباهرة والمطرزة ببوادر الوفاء. ورحمة الله على العظيم تليمة!

- د. عبد الرحمن المحسني (السعودية): كم أنت رائع دكتور إبراهيم.. دمت جميلاً وفيّاً!

- د. أحمد علي الهمداني (اليمن): الله يرحمه كنتُ قد قررتُ كتابهُ (مقدمه في نظرية الأدب) على طلاب الدراسات العليا إلى جانب كتب أخرى.

- د. فوزي صويلح (اليمن): جميل أن تستجمع في ذاكرتك هذا الفن؛ مرايا السرد بين الذات والآخر.

- د. حسن حيدر (اليمن): جميل أن تجمع بين الوفاء والتخليد لهؤلاء العمالقة!

الحلقة 7: د. طه أبو زيد

- سمر عبد القوي الرَّمِيمة (اليمن): حلقات قيمة بأسلوب مشوق.. نتابعها ونقرأها بشغف.. دمت بكل هذا الألق والعطاء أستاذنا الفاضل د. إبراهيم أبو طالب، وزادك الله من فضله وعلمه!
- د. حميد اللّهي (اليمن): رحمة الله تغشى الدكتور طه أبو زيد! كان لنا أبًا وأخًا وصديقًا... وكان عالما وأديبا وفيلسوفًا... ولك الشكر أخي د إبراهيم على اللفتة الطيبة لإحياء ذكراه ومآثره.
- توفيق سعد القُدَمي (اليمن): كان أحد أساتذتي -رحمه الله وغفر له- كان بسيطًا متواضعًا، تحية إليك دكتور إبراهيم!
- د. سالم الشّوافي (اليمن): رحمة الله تغشى روح طيب الذكر صاحب الخلق الرفيع الدكتور طه أبو زيد.

الحلقة 8: د. خيرى دومة

- أ.د. خيرى دومة (مصر): لا أعرف كيف أشكر يا صديقي. لعلها مصادفة جميلة أن أنشر أنا بالأمس لمحّة من رحلتنا القصيرة في ضواحي صنعاء الجميلة، ثم تأتى اليوم لتنشر من جديد هذه الكلمات الجميلة، وهي أكبر مما أستحق، كلمات ممن هو في مقام الصديق أكثر من التلميذ. تحياتي لك ولروحك الطيبة أينما كنت، وسقا الله صنعاء وأيامها الجميلة!

- زياد القحّم (اليمن): رائع هذا الوفاء، ونموذج مشرف وراق لعلاقة التلميذ بأساتذته حتى حين يصل إلى مكانتهم، نعتزُّ بهذه الكتابات ونحبُّها، ونحبُّ صاحبها.

- إبراهيم شرف (اليمن): ما شاء الله، تبارك الله. تكتب في زمن لحظة الماضي الآن، فكأنك تكتب في نهاية يومك في تلك السنة والسنوات الخالية. وأنت تؤرخ لمن تعلمت منهم، فأنت تؤرخ لقلمك أيضاً. مبدع مغوار في العلم. د. إبراهيم أبو طالب! تكتب في سويداء قراطيس الأدب، فتصطك عناقيد الحروف، وتساقط رطباً من نبض يروي شرايين الشوق لسوقك. وها أنت تروي عتبات العلم بحروف أقاح، فولجت منها متعلماً، ثم تخرج معلماً ومؤسساً لقصرك الأدبي الذي بنيته من عشرات كتب تتوالى، ودراسات أدبية ونقدية نفخر بها وبقصرك. وإن استطال تعليقي عنقه، فلن

يصل إلى أكمام علمك، اعتزازي بك وعلمك تجعلني أحمّد الله أنّ كلماتك، همسك، ولطيف عباراتك تعيش خلف ضلوعي أيها السّحر الحلال. الحب فقط هو ما يسري، ويسري على بنيات شوقي أيها العزيز.

- سمر عبد القوي الرّميمة (اليمن): شكراً لك دكتور على هذه الدروس القيمة التي نستفيد منها، وعلى أسلوبك المشوق في سرد التجارب الرائعة من واقع حياتك المكللة بالنجاح. زادك الله من فضله وعلمه!

الحلقة 9: د. عبد الله المقالح

- د. عبد الله المقالح (اليمن): [ثلاث رسائل من أستاذي]:

1- حياك الله أيها الحبيب إبراهيم. كنت قد عدت للفيسبوك لفترة، غير أنني غادرته لا ناوياً عودة. معظم ما فيه مصدر للألم، ووجع الرأس. حفظك الله، سأزور صفحتك، وأقدم شهادتي هنا على الماسنجر -الذي هو الآخر دخولي إليه نادر- ولا بأس أن يكون وسيلتنا معاً للتواصل إن تطلب الأمر ذلك. يسعدني كثيراً ما وصلت إليه من مكانة، فبك يفخر كل من كان له علاقة بك في الجامعة أو خارجها. تحية من القلب لشخصك الكريم، أيها النبيل دائماً.

2- حفظك الله يا إبراهيم! ماذا عساي أن أقول!!! التميز عنوان لازمك عندما كنت طالبا، وما زال لصيقاً بك، وأنت الأستاذ، والكاتب، والشاعر، والباحث الكبير. إنها سمات الكبار أيها الحبيب. لم أتلق مثل هذا الكرم والاعتراف بما أشعر أنه حق متواضع لي كما تلقيتته منك. أنت يا إبراهيم مخلوق آخر جميل أتى من عالم إضافي، أعدت لي، ولمن تعلمت منهم كما جاء في عنوان مبادرتك "الدراسة" صياغة حياتنا بطريقة لا يجيد سردها إلا أنت. يكفي أن تأتي منك هذه الالتفاتة، وهي نادرة ممن يزعم فضلاً في علم

لمن لا فضل لهم عليه - فليس لنا فضل عليك، بل الفضل لك - بوركت، وكتب الله لك الخير كله.

3- إنَّها بادرة طيبة من الأستاذ الدكتور إبراهيم أبو طالب في تكريم الأحياء. شكرًا لك يا إبراهيم، ولمن قرأ وعلّق. حفظكم الله جميعًا.

- د. عبد الرحمن الصعفاني (اليمن): أتفق معك دكتور إبراهيم، صديقي الأعز، وزميلي المبدع في كلِّ ما دبَّجته في حبيبنا الكبير الدكتور عبد الله المقالح. وما أحزنني فعلاً على المستوى الشخصي والعملي أنني افتقدت وجود الدكتور عبد الله وحضوره الإنساني والأكاديمي في قسمنا العريق قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب، لذهابه للتقاعد المبكر جدًّا برغم محاولاتي الحادة والصّادقة لثنيه عن ذلك القرار، لكنّه كان مُصرًّا للغاية، ولم نملك - مع كل محاولات مراجعته في ذلك - غير التسليم، وقد بدا لي قراره نهائيًّا ضمن اعتزال الشَّأن العام استشعارًا منه بغياب الجدوى، وعبثية كل ما جرى ويجري!

تحية كبيرة متجددة استحقاقًا ومحبة لعزينا الفاضل الدكتور عبد الله، ولكم دكتور إبراهيم، وللعزيزة سمر الرميمة وجهدها المتميز في أقلام عربية. وشهر مبارك وخواتم مرضية، وكل عام والجميع بخير!

- د. عبد الرحمن المحسني (السعودية): طابت لكم الأيام دكتور؛ لقد عرفتُ من يستحق أن أعرف.. وقرأتُ ما كتبت كله على المدونة. ما أروع ما

- تكتب دكتور! وما أنبل هذا الخط الذي يجلّد من يستحق الذكر الحسن! لا حرمك الله تلك الإشراقات، ورزقك برّ طلابك.. كل المحبة.
- زياد القحم (اليمن): تكريم عظيم لشخصية علمية بارزة، هذه المساحة من أجمل ما نقرؤه على الإطلاق.. حفظك الله وركاك د. إبراهيم!
- سمر عبد القوي الرّميمة (اليمن): شخصية رائعة جسّدت كل المعاني النبيلة والراقية ومسيرة حافلة بالدهشة.. شكرًا لكم د. إبراهيم أبو طالب على كل هذا الجمال الذي ننتظره بشغف مع حلقاتك المميزة والمنصفة لهامات أكاديمية نتعلم منها جميعا، بأسلوبك المنصف والمشوق.
- أ.د/ مجاش سرحان المخلافي (اليمن): حفظك الله وركاك! وبورك فيك دكتور إبراهيم أبو طالب! رجل وفي في زمن عزّ فيه الوفاء.. الدكتور عبد الله المقالح هو ذاك... القريب من الجميع. حفظكما الله تعالى وركاكما!
- د. حسين جميع (اليمن): أنصفت الدكتور عبد الله المقالح، فهذا الرجل لمن يعرفه من القلّة ممن يتمتعون بالكاريزما الجامعة، فهو قيادي بفطرته، كما يتميز بحبه اللامحدود لوطنه، هذا الرجل واسع الأفق غزير العلم، رضي الله عنه وأرضاه!
- علي القادري (اليمن): الله عليك يا دكتور! لقد نبشت في (مخازن الذاكرة) وانتقيت أجمل ما فيها من مواقف وذكريات الدراسة الجامعية، وأضفت إليها وكشفت فيها جوانب من شخصية الدكتور الجليل عبد الله

المقالح وصفاته، وأضفيت عليها من جمال أسلوبك وجواهر ألفاظك، فأفدت، وأمتعت. دُمت مبدعًا.. منك نتعلم.

- مليحة الأسعدي (اليمن): هو كذلك حقًا، وفعلًا. قبل اندلاع الحرب سعى بحسّه المسؤول للخلاص الوطني حبًا وكرامة لكن المشروع تعثّر للأسف.. ما أحوجنا له ولمن هم مثله في هذا الظرف العصيب الذي تمر به البلاد.

- د. جميلة الرجوي (اليمن): بورك حروفك د. إبراهيم التي عرّجت على هامة علمية وأكاديمية فريدة في عطائها وتميزها. دكتور عبد الله المقالح أستاذ الجميع والذي من فيض عطائه ومحبته اغترفنا وتعلمنا.. ولولا أحداث الحرب المؤسفة التي غيّبت الدكتور عنا، كان سيكون لنا معه محطة وطنية في (مبادرة الخلاص الوطني) يصل خيرها للجميع.. ولكن قدّر الله وما شاء فعل.. نسأل الله في هذه الأيام المباركة العافية، وطول العمر للدكتور عبد الله.. ولك مزيدًا من التألق والإبداع!

- د. محمد فراحي (اليمن): فعلاً صدّق: "في رجال وفي ناس" في رجال روح المبادرة وخدمة الآخرين تسمو بهم، في رجال إن قالوا صدقوا، وإن استغيثوا أغاثوا، رجال تربّوا على الكرم والوفاء، ولو بيدهم شيء يخدمون الآخرين به، رجال عاشت للناس ومع الناس، رجال صدقوا في أفعالهم قبل أقوالهم، رجال الرحمة والحب زيّنت قلوبهم، طرقت موضوعًا جميلًا يا دكتور لعلنا نستفيد

منه جميعاً، ونترك الأنانية وحب الذات، وننظر للآخرين من الزملاء أو الناس أيها الزميل الفاضل.

- د. محمد الشعبي (اليمن): تحية لك دكتور إبراهيم على وفائك، وتحية لأستاذنا الدكتور عبد الله المقالح الذي يستحق الكتابة عنه، فهو مشعلٌ من مشاعل العلم والمعرفة في اليمن.

- القاضي حمود الهتار (اليمن): شكراً للأخ الدكتور إبراهيم أبو طالب على هذه اللفتة الكريمة، فالدكتور عبد الله رجل بحجم الوطن.

- عبد الرحمن سهيل (اليمن): رجل نادر من رجال الحق.

- د. حسين الزراعي (اليمن): الدكتور عبد الله عالم وأكاديمي كبير، ظل يرسخ الأعراف الأكاديمية، ويدافع عنها. ولا أتذكر من يعلو قامته في تمثّل هذه القيم والدفاع عنها. كنا ندرك أننا ننتمي إلى جامعة حينما كان يمثلنا.

- د. ثامر نجم عبد الله (العراق): تسليط الضوء على المتميزين من الأساتذة والمفكرين نحتاجه كثيراً تحفيزاً للعطاء والعمل، وتنويراً للحياة عندما يشتد الليل ظلاماً ويضعف الأمل، أحسنتم د إبراهيم!

- د. خالد المطري (اليمن): نعم وألف نعم لكل حرف دوّنته عن الدكتور عبد الله.. يستحق التقدير والاحترام من الجميع.

- محمد السقاف (اليمن): ما أجمل أن تسلط الأضواء على شخص ما، وما بالك إذا كان هذا الشخص رجل بحجم د.عبد الله المقالح، شخصية

أكاديمية بارزة، ترتقي إلى مصاف الاستثنائيين. قمت بعمل عظيم أستاذنا إبراهيم أبو طالب تجاه من لازمك ورافقك فترة طويلة، وعبر محطات متميزة، كنتم ثنائياً إنسانياً جميلاً.. سيسجل لك التاريخ ما قمت به في أنصع صفحاته، وستذكر الأجيال كثيراً.

- أبو محمد محسن خلوفي (السعودية): أبدع الكاتب، وطابت السيرة.
- د. فوزي صويلح (اليمن): نعم الاختيار.. رجل مدهش بكل ما تعنيه الكلمة من معنى علماً وأخلاقاً. متَّعه الله بالصحة والعافية! ولك الشكر على هذه السيرة، واللذة في السرد.

- أ. عبد الله يحيى السريحي (اليمن): شكراً جزيلاً دكتور إبراهيم على هذه المساهمات العلمية في انصاف وتقدير شيوخك وأساتذتك. صحبت الأستاذ الدكتور د. عبد الله المقالح منذ بداية التحاقه بهيئة التدريس بجامعة صنعاء، وكان من تمام الحظ أن أصبحه ثانية في (أبو ظبي) عندما عُين مستشاراً ثقافياً. وأكبرت فيه صدقه، ووفاءه، وصراحته، ورقى أخلاقه، وترفعه عن مزلق الأحزاب والشَّلَل، فقد كان نصيراً للحق مدافعاً عنه، ولو اختلف مع صاحبه في الفكر أو التوجه السياسي، لا تأخذه في الله لومة لائم، وكنت أتمنى أن تسود مثل هذه الأخلاق والقيم في النخبة الفكرية والسياسية في اليمن، ولو حصل لكانت اليمن بخير.

- د. صادق الحزيمي (اليمن): أحسنت دكتورنا العزيز! فالدكتور عبد الله بطلٌ مراحل عديدة.

- وديع الجوفي (اليمن): الدكتور عبد الله المقالح رجل المواقف المشرفة، وصاحب المبادئ الوطنية والذي قلَّ أمثاله في هذا الزمان. تحية لك د إبراهيم، وأسمى الأماني لدكتورنا الغالي عبد الله المقالح، أطال الله في عمره!
- د. أشرف الجوفي (اليمن): أنصفته حقيقةً، لكما كل الشكر والتقدير، والشكر لكليكما تبعثان الأمل في أرواحنا، ولا يشكر الله من لا يشكر الناس!

ما زلت أبحث في وجوه الناس عن بعض الرجال
عن عَصَبَة يقفون في الأزمان كالشُّمَّ الجبال
فإذا تحركت الرجال رأيت أفعال الرجال
أما إذا سكتوا فأنظار لها وقع النبال

- د. صلاح الجوفي (اليمن): وصف جميل لرجل أجمل، أ.د/عبد الله المقالح مدرسة بما تحمله الكلمة من معنى. نسخه لا تتكرر. نسأل من الله أن يعطيه العافية وطول العمر، وأن يوفقه فهو قدوتنا ومثلنا في كل زمان ومكان.

- أ.د/ أحمد الدغشي (اليمن): هذا الوفاء منك عزيزنا الدكتور إبراهيم منقبة لك ولأستاذنا المقالح معاً، خاصة في هذه الحقبة السوداء التي طابعها الإقصاء التام والتجاهل المطبق، لكل من خرج عن مسار تقديس أصنام المرحلة وسياساتهم. لك كل التقدير والمحبة ولأستاذنا المقالح كل الإجلال والوفاء، وقد عبّرت بلسان كل حر مخلص وفي.

الحلقة 10: د. عبد الملك مرتاض

- د. ساعد ساعد (الجزائر): البروفيسور عبد الملك مرتاض قامة علمية. رائعٌ أن تحدّثنا عنه من أرض اليمن، وجميل ذكرك لقصيدة الكاتب والشاعر الكبير محمد العيد خليفة، والأجمل في كل هذا أن تضيف تعليق الإمام العلامة والمجدّد رائد النهضة الجزائرية الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمهما الله... شكرًا على هذه الالتفاتة دكتورنا الفاضل!
- د. فوزي صويلح (اليمن): فكرةٌ رائعةٌ، توثّق سيرة الأنا والآخر، ومشروع جميل يثبت الاستحقاق الإنساني والمعرفي، ويعكس حياة الذاكرة، ومقصودك النبيل... بوركت يا صديقي.
- إبراهيم طالع الأملعي (السعودية): درّس تعلمته هنا.. يا أجمل الشعراء شعراء، والأكاديميين أكدمّة.

الحلقة 11: د. إبراهيم السامرائي

- د. عبد الله المقالح (اليمن): حياك الله دكتور إبراهيم. لقد أنصفت المرحوم -ياذن الله- الأستاذ الدكتور إبراهيم السامرائي، وكنت قد علّقت على منشور للأستاذ عبد الله السريحي حول المرحوم، وحتى لا أكرر ما قلته، فسأنقل لك تعليقي، وهي شهادة عن المرحوم. خالص تقديري لجهودك الطيبة مع بالغ تحياتي.. (أخي عبد الله، أنت تعلم كم كنت أعزُّ الأستاذ الدكتور إبراهيم السامرائي -رحمه الله- وربما تتذكّر كيف حاولت أن أثنيه عن قرار الاستقالة وترك اليمن، لكنه كان كما عهدناه عزيزاً أثر المغادرة. وأكد تابعت ظروفه الصعبة في عمّان، وهو الأستاذ الكبير لم يلقَ وظيفة، ولم تقبله جامعة من جامعات الأردن، إلا بمجهود شخصي من الدكتور الأسد، وهو عقْدُ ربع عمل في جامعة أهل البيت لا يؤهله للحصول على إقامة. كنتُ على تواصل مع زوجته لتقنعه في التعاقد مع جامعة حضرموت، فوافق. واتصلت بالدكتور علي هود بآعباد -رحمه الله- فرحّب به كثيراً، وقال سيكون للجامعة الشرف أن يكون الأستاذ إبراهيم السامرائي أستاذاً فيها. لكن لم يمض سوى أسبوع واحد لتتصل بي زوجته، مخبرة أنه انتقل إلى رحمة الله. أنا أعرف علاقتك بالمرحوم، وهذا الكتاب عنوان لوفائك له أخي عبد الله. أنتظر نسختي من الكتاب ولك أجمع تحية).

أ. عبد الله يحيى السريحي (اليمن): أحسنت وأجدت وأنصفت، بارك الله فيك، وقد تيسر لي بحمد الله نشر طبعة ثانية من كتابي عنه (إبراهيم السامرائي الإنسان والكتاب)، العام المنصرم 2018م، ذكرتُ فيها ما أستجدُّ في حياته بعد صدور الطبعة الأولى من الكتاب، وزودتها بقائمة بيلوجرافية بما نُشر عنه، وعن جوانب من فكره، وعلمه، من كتب، ومؤلفات، ورسائل جامعية، وختمته بملحقٍ عن مرارة الغربة والاغتراب في حياته وشعره.

الحلقة 12: السيد إبراهيم محمد

- د. عبد الله المقالح (اليمن): اجتمعتُ قيمُ الوفاءِ فيك، وصرتَ القيمةَ أنت والعنوان. محظوظ من كان لك أستاذًا، أيها الأستاذ الجميل.
- علي القادري (اليمن): ما أروع ما تفاجئنا به - بين الفينة والأخرى - من ذكريات الدراسة الجامعية بدقيق تفاصيلها، ومواقفها التعليمية! وما أبدع وأروع سردك! وأنت تعرض تفاصيلها بأسلوبك الشائق الذي لا يُملُّ.. دُمت بخير وعافية!
- عبد الحميد إبراهيم (اليمن): أنت رائع دكتور ووفي! وذكرك لهم، وتخصيص جزء من وقتك وحياتك لشكرهم، ومشاركتنا سيرتكم العطرة ما هو إلا دليل على طيب أصلك، وإبداعك. وفقك الله وسدّد خطاك، ومزيّدًا من العطاء.
- أ.د. جمال محمود (مصر): ما أجملها من ذكريات خُطّت بمداد الوفاء والحب والإخلاص، بارك الله في هذه الأسماء عُمرًا وعلمًا، وإن شاء الله نحن على وعد بمواصلة هذه الذكريات الجميلة. وأ.د. السيد إبراهيم له منا تحية وتقديرًا.

الحلقة 13: عبد الله البار.

- د. عبد الحكيم باقيس (اليمن): الدكتور عبد الله البار-يحفظه الله- طوبى لمن جلس إليه مستمعاً أو متعلماً.. رجل بألف ألف من الرجال.. بحر علم وعطاء لا ينفد.. وملك مكارم الأخلاق العالية.. إنسان بكل معنى جميل وأصيل.. وشكراً لك أبا أصيل على مقالك الجميل.
- د. إبراهيم طلحة (اليمن): الأستاذ الدكتور عبد الله البار عالم جليل، وأفتخر بأنه كان مشرفي في أطروحتي للدكتوراه.
- د. مختار محرم (اليمن): عظيمٌ يكتبُ عن عظيم.. أ.د. عبد الله البار علامة ثقافية مضيئة في مسيرة الأدب اليمني والعربي، فشكراً لك أستاذنا على تسليط الضوء على هؤلاء الكبار.. وشكراً لأنك جعلت من (أقلام عربية) نافذة لنشر هذا الضوء!
- شعبان التجادي (السعودية): سطورك سَطَّرت أكاديمياً، وأسلوبك تسَلَّل للأعماق ليصف عملاقاً. دام تميزك في الطرح!
- د. فؤاد الصلاحي (اليمن): د. عبد الله البار.. أكاديمي متميز في تخصص الأدب العربي، وعلاقاته الإنسانية مع زملائه وأصدقائه.

الحلقة 15: د. عز الدين إسماعيل

- د. محمد فراجي (اليمن): رحمةُ الله عليه! كان عالماً وأديباً، تعلمنا الكثير منه، عُيِّن رئيساً للجنة مناقشة رسالتي للماجستير، وتحوّلت المناقشة إلى ندوة علمية.. ذكريات جميلة جمعتنا بالدكتور عز الدين إسماعيل. أشكرك دكتور إبراهيم على هذه اللفتات الجميلة.

- د. عبد الحميد العواضي (اليمن): رحمه الله رحمة الأبرار! إنه علّم من أعلام النقد الأدبي في العالم العربي. إنه عالم كبير لقد تعلّمتُ على يده، وأشرف على بحثي في الماجستير، كان يحبُّ اليمن وأبناء اليمن.

الحلقة 16 د. نبيلة إبراهيم

- أ. شوقي بدر يوسف (مصر): الأخ العزيز الدكتور إبراهيم موضوع غاية في الثراء والموضوعية جزاك الله كل خير، ودائماً متألق.
- د. محمد السويدي (اليمن): كم أنت رائع في طرحك، وفي أسلوبك البلاغي الذي يأسر القلوب، ربنا يوفقك دكتور!
- أ.د/ سامي سليمان (مصر): شكراً لك عزيزي إبراهيم على هذا الوفاء لذكرى أستاذتنا الجليلة د. نبيلة إبراهيم.
- أ. محمد جمال عمرو: (الأردن): مدونة قيمة.. لمثقف نبيل.. دام عطاؤك عزيزنا د. إبراهيم أبو طالب.
- أ.د/ السيد إبراهيم محمد (مصر): إبراهيم أبو طالب تحياقي لكم، ولكتاباتكم الأثيرة، وبالتوفيق دائماً.

الحلقة: 17 عاطف جودة نصر

- أ. هشام شمسان (اليمن): مقالٌ يستحقُّ القراءة؛ لإضاءته ما لم نكن نعرفه عن هذه الشَّخصية.
- د. عبد الحكيم باقيس (اليمن): روعة! تصف الأستاذ الجليل كما كنّا نجلس إليه في حالة من الدهشة والانبهار.
- د. زين العواودة (الأردن): أحسنت التَّعريف والوصف صديقي المحترم الوفيّ دكتور إبراهيم أبو طالب لأستاذنا القدير الدكتور عاطف جودة نصر، لقد درَّسني في جامعة قطر - رحمه الله وغفر له - في مطلع الثَّمانينيات، ولي معه صداقةٌ وودٌّ. وأشاركك الوصف ذاته. دام عطاؤك.
- د. عادل معتمد (مصر): الأصيل لا يأتي منه إلَّا كل طيب. دمت وفيًا كريما صديقي العزيز دكتور إبراهيم.
- أ. فاضل الكعبي (العراق): بدوام التوفيق والتألق صديقي المبدع دكتور إبراهيم. ربي يديمك بصحة وعطاء دائمين.
- أ.د. عبد الكريم رعدان (اليمن): كتاباتٌ شائقة.. نتابعها باستمرار.. حفظكم الله دكتور إبراهيم حيثما كنت.
- د. سعيد فرج (اليمن): "مشروع رائع (من هؤلاء تعلمت) لعلَّنا في صدّد تخليد عبارة: "بروا أساتذتكم تبركم طلابكم".

الحلقة 18 د. عبد الوهاب راوح.

- أ.د. عبد الواسع الحميري (اليمن): من أروع ما قرأت لك في مثل هذا السياق، فبوركَ فيك، ودام عطاؤك!
- عبد الله المخيط (اليمن): دمتَ ودامت كتاباتك وإبداعاتك، ورسالتك الخالدة زميلنا الغالي!
- أ.د. دريد رزق (سوريا): توسعَ لغويٌّ عظيم الفائدة، يُحسَب له. بوركتما!
- د. صادق الحزمي (اليمن): أحسنت! الدكتور عبد الوهاب أكاديمي كلُّه وقار، وكنز متحرك في تخصُّصه.
- أ.د. ذكرى القَبيلي (اليمن): أحَيَّ فيك وفاءك وإصرارك على الاستمرار في الكتابة في فكرة بدأتها هي بحقَّ نبيلة، وعلمية، أكاديمية مهمة، وتوثَّق سيرًا ذاتية لعلماء كبار عاصرناهم قَلَّ من يذكرهم. وقلْمُك اليوم منصفٌ، وأنيق كعادته لكنَّه -أيضا- شجاع أو دعني أقل لك: جريء أو ربما قاسٍ على أستاذنا راوح مع أنك لم تقل إلا الصدق. وهذا رأيي، وكنتُ أتساءل في نفسي، ماذا كان سيقدم عالم بعقلية أستاذنا راوح للدرس اللساني إن لم تسحبه بعيدًا الوزاراتُ والعملُ السياسي، وأوجاع اليمن المتلاحقة؟ دكتور إبراهيم لقد نكأتَ حسرةً كانت كامنة في عقلي لم أتجرأ وأصارع بها أحدًا -فضلاً عن أستاذي الذي أجلُّه دكتور راوح-... أطلتُ لكنَّها كلمات كانت

في النفس أخرجها مقالكَ، وأرجو معكَ أن يتحفنا أستاذنا بدراسات لسانية عميقة كعهده تواكبُ الدرس الحديث الذي لا يفتأ يدهش من يبحر فيه. تحياتي ودمتَ وقلَمك.

- د. عبد الرحمن الصَّعفاني (اليمن): مقالة رائعة ووافية شافية فعلاً، جمعت فأوعت. أرجو أن تجمعها مع ما سبقها، وما سيتلوها في كتابٍ سيكون فريداً في بابه.. كل التوفيق أخي الحبيب.

الحلقة 19: د. فهد عكام

- أ. عبد القادر الحصني (سوريا): شكرًا لهذا الجهد الطيب الذي أضاء الكثير من جوانب هذه الشخصية المرموقة، وشكرًا لوفائك، فقد أسعدني. الدكتور فهد من أجمل من عرفت، وصحبت، وعملتُ معه، فقد كان -رحمه الله- عضوًا في هيئة تحرير صحيفة الأسبوع الأدبي التي كنتُ أُرأس تحريرها في اتحاد الكتاب العرب بدمشق، وكان مثالًا في النزاهة والموضوعية واللفظ والتواضع. أكرّر الشكر لوفائك لأنّ ما قدّمته إضافة حقيقية تسدُّ فراغًا من الفراغات التي ما أكثرها في ذاكرتنا الأدبية.

- أ.د/ أحمد شرف الدين (سوريا): بوركّت جهودكم الطيبة! ورحمَ الله الدكتورَ فهدَ عكام، فقد كان من خيرة من علمونا في الثمانينات في جامعة دمشق.

- أ.د/ عبد الواسع الحميري (اليمن): يومًا بعد آخر، تتألق أستاذًا بعد أن تألقت طالبًا، فلك خالص الود، ولروح أستاذنا الناقد الفذ فهد عكام الذي ترك فيّ شخصيًا عميقَ الأثر، فله الرحمة والسلام! فهو حقًا كما وصفتَ وفوقَ ما وصفتَ.

- زيد الفقيه (اليمن): سلامُ الله عليك دكتور إبراهيم، تذكّرنا بأساتذتنا
دومًا، شكرًا لك، جزاك الله عنا خيرًا.
- هيال الطالب (سوريا): رحمَ الله أستاذنا الدكتور فهد عكام، وشكرا لك
دكتور على وفائك في زمن عزّ فيه الوفاء.

الحلقة 20: د. أحمد علي مرسي

- أ.د/ خالد أبو الليل (مصر): أحسنتَ صديقي العزيز د. إبراهيم فيما كتبتَ وقلت، فأستاذنا الغالي يستحقُّ المزيد.. تحياتي وتقديري لك، ودعاؤنا أن يمتّعه الله بالصحة والعافية.

- أ.د/ خيري دومة (مصر): جميلٌ يا صديقي، تلميذٌ نابغٌ لأساتذة كبار.
- محمد ناجي الشرعي (اليمن): سيرةٌ رائعةٌ، ومسيرةٌ حافلةٌ بالعطاء والمجد المعرفي.. والاقتراب من أمثال هؤلاء غنيمة لا تقدّر بثمن.. ورسالتكم التي أشرفَ عليها ضمنَ الكتب القريبة مني، قرأتها قبل سنوات، وطلعتها خلال الأيام الماضية بالتزامن مع قراءتي لكتابكم الآخر ببليوجرافيا السرد في اليمن. كل التقدير لكم دكتور.

- أبو محمد محسن الخلوفي (السعودية): قلت يا دكتور: "ومما تعلّمتُ منه في تلك المحاضرة ذلك الحضور الودود مع طلابه في القاعة، وجمال الأسلوب في خطابه لهم، ومقدار الديمقراطية معهم في اختيار الكتاب المقرر، حيث طلب إليهم أن يقرؤوا في أيّ كتاب في الأدب الشعبي يحقق مفردات المقرر وأهدافه، وعلى الرغم من أنّ كتبه القيمة ودراساته الكثيرة تملأ السمع والبصر، وتزخر بها المطابع ودور النشر؛ لكنه لم يطلب منهم أن يقتنوا أيّا منها، بل أحالهم إلى كتاب "فنون الأدب الشعبي" لأحمد رشدي صالح، وإلى

كُتِبَ د. عبد الحميد يونس وغيرهما.. وأقول يا دكتور: أشهد إنك سرتَ بنا هذه السيرة في تدريسه إيانا مقرر موسيقا الشعر في مرحلة الماجستير.

- علي القادري (اليمن): لَهِ دُرُكٌ دكتور إبراهيم ما أجمل أسلوبك!! وكيف تُنزل الناس منازلهم، وتحفظ لهم أقدارهم ومكانتهم! وكيف تُبرز أجمل ما فيهم من سجايا وصفاتٍ وعِلْمٍ ومعرفةٍ! وكيف تتنقّل بقارئك في عوالم الشخصية -موضع مادّتك وتناولك- ورحابة عِلْمها وسجاياها وصفاتها، وأهم أعمالها ومؤلفاتها وإنجازاتها والمناصب التي تبوّأتها، بترتيب وتسلسلٍ عجيب! فتجعل قارئك يعيش معك، ومع ضيف مقالك أجمل لحظات المتعة والفائدة بما تنبض به حروفك من محبّة وعرفانٍ ووفاءٍ وجمال أسلوب ورصانة لغة تليق بك وبضيف مادتك.. بُورِكتْ وبُورِكتْ جهودك وإبداعاتك ودام عطاؤك ووفاءك.

الحلقة 21: د. عناد غزوان

- أ.د/ حاتم الصّكر (العراق): لروحه الرحمة والسلام. كان ناقدًا وأكاديميًا ومثقفًا نوعيًا له منجزه المعروف، وما أرساه من تقاليد في الجامعات التي عمل فيها. وما نقل من كُتبٍ عن الإنجليزية.. شكرًا لك أخي دكتور إبراهيم لاستذكارك، ووفائك.

- أ.د/ صبري مسلم حمادي (العراق): بوركّت عزيزي دكتور هو أستاذي أيضا رحمة الله عليه!

- سمر عبد القوي الرميّة (اليمن): سلسلة للتاريخ، لا نملُّ من تصفحها، والسّفر في فصولها الوارفة بكل جميل وشائق، ونرتقب كل جديد.

- أ. محمد الغربي عمران (اليمن): سِفْرٌ قِيمٌ! أتمنى أن تجمع ما تكتبه ليكون في كتاب.. لروعة ما يطرح حول هامات رائعة.. شكرًا لسمو مسيرتك.

- د. علي المضواحي (اليمن): ما أمثل أن يجتمع الوفاء لمستحقّيه مع استلهام ذاكرة معرفية تركت بصماتها، ويبقى ما ينفع الناس.

- ناجي الدقري (اليمن): رحمه الله وأسكنه فسيح جناته! ولك كل التقدير والاحترام لمواقفك النبيلة تجاه الأساتذة والمبدعين والأدباء والشعراء والمفكرين الذين رحلوا وتركوا بصمات واضحة هي شاهد عيان ودليل

واضح لإسهاماتهم في كل مجالات الإبداع والتميز والعلم والمعرفة والثقافة، فهذا من صفات الكرام أن تذكر من أفنوا حياتهم في خدمة مجتمعاتهم وأوطانهم بكل تفان وإخلاص.

- محمد ناجي الشرعي (اليمن): صفحات مشرقة لشخصيات مدهشة، كان لها البصمة والأثر الجميل في عالم الأدب والنقد.. الخلود والمجد لهم ولك دكتور.

- د. حسن مجّاد (العراق): بوركت صديقي الدكتور إبراهيم أبو طالب، وأنت تستذكر الأنموذج، وتحتفي بالمثال.
- صدام فاضل (اليمن): سلسلة رهيبة لا تملّ.

الحلقة 22: د. سيد البحراوي

- د. عبد الله المقالح (اليمن): امتلكتَ الوفاء كله، ولم تترك منه بقية لأحد، أيها النبيل إبراهيم دائماً.
- أ. إيمان الدواخلي (مصر): دراسة مميزة وشجيرة لمسيرة الغالي العظيم د. سيد البحراوي، شكراً كبيراً للغاية!
- حنين الأمير (مصر): رحمة الله عليك دكتور سيد! كنت بجد أسطورة، في تواضع وبساطة نادر وجودهما الآن.
- إنجي إبراهيم (مصر): ربنا يرحمه ويغفر له! هو أكثر مَنْ أثر في من أساتذتي الأفاضل.

الحلقة 23 د. إبراهيم الصلوي.

- د. عبد الرحمن الصعفاني (اليمن): رحلة ماثعة ومفيدة للغاية! الشُّكر لك زميلي العزيز على كل هذا البهاء الذي تمنحنا إياه بوفائك، وبما تقدّمه من جهد علمي يستحق الثناء والتقدير. التحية لأستاذنا الكبير أ.د. إبراهيم محمد الصلوي على الدوام. والمحبة لك أبا أصيل.. ونسأل من الله تثنين الأعمال والمزيد من التوفيق.

- د. مختار محرم (اليمن): شكراً لك دكتور على كل هذا الضوء، وكل هذا الوفاء.. أنت حقاً وطنٌ لصفحاتنا نعتزُّ به!

- محمد ناجي الشرعبي (اليمن): مادة بحثية باذخة، تؤسّس لدراسة أكبر، وربما لكتاب.. كل الحب للدكتور الصلوي.. وشكراً لكلّ هذا الإشراق، الذي تمنحنا إياه دكتور.

- بدر الحسين (الأردن): تناولٌ رائعٌ لركيزة رئيسة من ركائز الحضارات الإنسانية؛ ولا غرو في أنّ اللغة أداة الفكر ومنطلق التعلّم.

- د. ثامر عبد الله (العراق): شكراً لكم على هذه الرحلة الجميلة بين النقوش، والكتب، والتاريخ للكشف عن المسار الحضاري لليمن السعيد.

- د. فوزي صويلح: هذا إحسان المتعلمين لمعلميهم سيكتبه الله في ميزان حسناتك، وستخلده الأيام ويضاف لمحاسنك.

- منتصر السلامي (اليمن): الدكتور إبراهيم أبو طالب أنت فخرنا أدباً
ورُقياً وثقافةً وعلمًا.. دمت بكلِّ حبٍّ أيها المقيم في شغاف القلب.

الحلقة 24: د. أحمد شمس الدين الحجابي

- زياد القحم (اليمن): أنت صاحب طريقة خاصة في الكتابة عن الأعلام،
يبعد إنساني عظيم يجسد حالة الوفاء لهم، دمت ضوءًا ومعلمًا وعلمًا
د. إبراهيم.

- د. شريف الحيار (مصر): أحسنت صديقي الراقي!

- أ.د/ سامي سليمان (مصر): طابَ قلمك عزيزي إبراهيم!

- ناجي الدقري (اليمن): هكذا عرفناك دائمًا متميزًا وفيًا مخلصًا تجاه من
كان له الفضل بعد الله سبحانه في بلوغك القمة بين الأدباء والشعراء
والمثقفين العرب، ولكن قلّمًا نجد شخصًا في هذا الزمان - وقد أنعدم الوفاء
بين الناس أديبًا ومثقفًا وشاعرًا وأستاذًا قديرًا - يحفظ الود والتقدير
والاحترام لأساتذته أعلام مصر الأجلاء، ويسخر جُلّ اهتمامه وكتاباته
لذكر تلك الشخصيات البارزة بأفضل العبارات والكلمات التي تلامس
شغاف القلوب، وتظهر في ملامحها صدق الكلمة، ونبيل المشاعر الفياضة
النابعة من أعماق قلبك النابض بالحب والعطاء لمن يستحقون كل
مشاركاتك الرائعة والقيمة، فلك كل الشكر والتقدير والاحترام دكتورنا
المتميز، وأديبنا ومثقفنا العربي المخلص لوطنه ولأُمته العربية.. زادك الله
علمًا، ورفعة، وعلوًا وتميزًا.. وبالتوفيق والسداد!

- د. محمد السويدي (اليمن): أحسنت أخي وزميلي، ومصدر فخري واعتزازي بمعرفتكَ وزمالتكَ في المرحلة الأولى من دراستنا في الابتدائية التي كنتَ فيها مبدعاً ومتميزاً، كما هو حالكَ اليوم بإضافات كثيرة زادتك تألُقاً في مجالكَ العلمي، هذا التألُق المصحوب بمسحة الأخلاق الرفيعة، والأدب الجم الذي نجده في توصيتكَ الغالية لنا بالبر والإحسان لأساتذتنا، فشكراً كثيراً، وزادكَ اللهُ علماً وأدباً.. ولا أزيد على ذلك.

- أ. يعقوب الشاروني (مصر): التّأقّد الأستاذ الدكتور إبراهيم أبو طالب، مساء الخير، مقالكَ عن الدكتور أحمد شمس الدين الحجاجي، رائع وحافل بالمعلومات المهمة.. نرجو أن نقرأه قريباً في كتاب مع بقية مقالات "هؤلاء تعلمتُ منهم" مع وافر الود والتقدير. 26 / 9 / 2020م.

صدر للمؤلف

أولاً: الشعر:

1. وطني يا جرحاً يؤلني، (شعر)، ط1، 2020م (طبعة محدودة، ونشر إلكتروني على موقعه).
2. مع الغيم والنغم، (شعر)، ط1، 2020م (طبعة محدودة، ونشر إلكتروني على موقعه).
3. وردة من مقام الصّبا، (شعر)، ط1، 2018م (نشر إلكتروني على موقعه).
4. دموع وأشجان، (شعر)، ط1، 2016م (نشر إلكتروني على موقعه).
5. ديوان إبراهيم أبو طالب (يضم خمسة دواوين)، صنعاء، المتفوق للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2015م.
6. ترانيم (شعر)، ط1، 2014م (نشر إلكتروني على موقعه).
7. من دفتر العمر (شعر)، ط1، 2014م (نشر إلكتروني على موقعه).
8. حين يهب نسيمها (شعر، تأملات من كتاب الثورة)، صنعاء، مركز أوان، 2012م.
9. أنغام الوجدان (مُحِينَات)، صنعاء، مركز عبادي، 2010م.

10. تنويعات مسافرة (شعر)، صنعاء، مركز عبادي، 2010م.
11. أنشودة للبكاء (شعر) القاهرة، مركز الحضارة العربية، 2000م.
12. ملهمتي والحروف الأولى (شعر) صنعاء، الهيئة العامة اليمنية للكتاب، 1999م.

ثانياً: شعر الأطفال:

1. أغاريد وأناشيد للبراءة، نادي أبها الأدبي، ومؤسسة الانتشار العربي، ط1، 2016م.
2. هيا نُغني يا صغار، (مجموعة شعرية للأطفال)، دائرة الثقافة والإعلام بحكومة الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2013م.
3. أنا أحبُّ عملي، (مجموعة شعرية للأطفال)، كتاب مجلة العربي الصغير، بدولة الكويت، العدد (250) شهر يوليو 2013م، الموافق رمضان 1434هـ.
4. أغاريد وأناشيد (مجموعة شعرية للأطفال)، مؤسسة الإبداع (صنعاء)، ومنتدى المثقف العربي (القاهرة)، 2005م، وطبعته مؤسسة السعيد الثقافية (تعز)، عام 2009م.

ثالثاً: الكتب:

1. من هؤلاء تعلمت؛ سيرة ذاتغيرية، بورسعيد، دار ديوان العرب للنشر والتوزيع، ط1، 2021م (هذا الكتاب).
2. الحيمة الخارجية الإنسان والمكان، تأليف: القاضي العلامة عبد الرحمن أبو طالب، تحقيق وتقديم: د.إبراهيم أبو طالب، صنعاء، مكتبة خالد بن الوليد، ط1، 2020م.
3. في الأدب الشعبي؛ فنون.. ونماذج يمنية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الثقافة الشعبية (43)، ط1، 2019م.
4. غيومُ السَّرد؛ قراءات في الخطاب القصصي في منطقة عسير، نادي الباحة الأدبي، ومؤسسة الانتشار العربي، ط1، 2019م.
5. تطور الخطاب القصصي "من التقليد إلى التجريب.. القصة اليمنية نموذجاً"، عمَّان، دار غيداء للنشر والتوزيع، ط1، 1438-2017.
6. التَّصُّ والصَّدَى "قراءات نقدية" كتاب الرافد (107)، دائرة الثقافة والإعلام بحكومة الشارقة، ديسمبر 2015م.
7. بيليجرافيا السرد في اليمن 1939 – 2009م، (القصة القصيرة، الرواية، أدب الطفل)، صنعاء، إصدارات وزارة الثقافة، 2011م.

8. التحفة السنّية في معرفة معاني الحروف النحوية: تأليف القاضي العلامة: عبد الرحمن أبو طالب، تحقيق وتقديم: د. إبراهيم أبو طالب، صنعاء، مكتبة خالد بن الوليد، ط1، 2010م.
9. مركز الإرشاد التربوي والنفسي.. أهدافه وأقسامه ونشاطاته... تحرير وإعداد: إبراهيم أبو طالب، صنعاء، دار جامعة صنعاء للطباعة والنشر، ط1، 2010م.
10. في علم العروض والقافية، وفنون الشعر الفصيحة والشعبية، صنعاء، مركز المتفوق، ط1، 2009م، (وطبع عدة طبعات: الطبعة الرابعة، مطابع جامعة صنعاء، 2013م، والطبعة الخامسة، عمّان، دار غيداء للنشر والتوزيع، 2017م، وطبعة أخرى عن نادي نجران الأدبي، ومؤسسة الانتشار العربي بالقاهرة، 2018م).
11. مختارات من القصة اليمنية القصيرة، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة آفاق عربية (108)، ط1، 2008م.
12. صنعاء في عيون الشعراء (نصوص شعرية مختارة من العصر الجاهلي حتى العصر الحديث)، صنعاء، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، 2004م.
13. الموروثات الشعبية القصصية في الرواية اليمنية، (دراسة في التفاعل النصّي)، صنعاء، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، 2004م.

محتويات الكتاب

إهداء.....5

المقدمة.....7

(1) الأستاذ الدكتور عبد العزيز المقالح (شاعرٌ بامتدادِ الجمال، وأديبٌ بحجم الوطن).....21

(2) البروفيسور كمال أبو ديب (أستاذُ الخفاءِ والتَّجَلِّي).....35

(3) الأستاذ الدكتور أحمد الجرُمُوزي (المتحدثُ حِكْمَةً وشِعْرًا.. أستاذٌ مثاليٌّ في زَمَنِ مُراوِغ).....49

(4) الأستاذ الدكتور علي جعفر العلاق (جُلُجَامِشٌ.. الباحثُ عن وطن لطيفٍ الماء).....63

(5) الأستاذ الدكتور كمال بشر (شيخُ اللغويين العرب، صوتٌ مُعَلِّمٌ لا يُشَبِّهُهُ أَحَدٌ).....83

(6) الأستاذ الدكتور عبد المنعم تَلَيْمَة (الأستاذُ الإنسانُ، وفيلسوفُ النُّقَادِ المعاصرين).....99

(7) الدكتور طه أحمد أبو زيد (تَوَاضَعُ الِيمَنِي، ومَوْسُوعِيَّةُ الأستاذِ الأزْهَرِي).....111

(8) الأستاذ الدكتور خيرى دومة (الأستاذ الصديق... قِمة في التواضع، وهِمة في العلم).....	125
(9) الدكتور عبد الله المقالح (نقيب الأساتذة، ومُسعرٌ حقٌّ لو كان معه رجال).....	137
(10) البروفيسور العلامة عبد الملك مُرتاض (السُّربون بوابته إلى التراث العربي).....	151
(11) الأستاذ الدكتور إبراهيم السَّامرائي (اللَّسانيُّ الحُجَّة، واللُّغويُّ الذي يَكُتبُ وكأنَّه يتحدَّث).....	165
(12) الأستاذ الدكتور السيِّد إبراهيم محمد (مُسافرٌ زَادَهُ الخيالُ والحُلُم.. وناقِدٌ عَدَّتْهُ المنهجُ والحِلُم).....	179
(13) الأستاذ الدكتور عبد الله حسين البَّار (في حديثه بوحٌ من الشَّعر، وفي كتابته رُوحٌ من العلم).....	193
(14) الأستاذ الدكتور صلاح فضل (عينُ النِّقْدِ الذي جَعَلَ لُغةَ النَّاقدِ مُوازيةً لِلُغةِ المبدع).....	207
(15) الأستاذ الدكتور عز الدين إسماعيل (مؤسِّسٌ وناقِدٌ لم يتكرَّر، وشاعرٌ "الإبيجراما" المختلف).....	221

(16) الأستاذة الدكتورة نبيلة إبراهيم (عميدة الفنون الشعبية، وذات الهمّة في القرن العشرين).....	237
(17) الأستاذ الدكتور عاطف جودة نصر (ناقد الصوفيّة الذي لا يحبُّ الأضواء، وقارئ الشعر بنظرية "الهرمنيوطيقا").....	253
(18) الدكتور عبد الوهاب راوح (اللغويّ ذو الوزارات.. والمهتمُّ بالشُّبابِ وتنظيم البعثات).....	265
(19) البروفيسور فهد عكّام (أستاذ منهج التّأويل التّكاملي للنصّ شعراً وسرداً).....	279
(20) الأستاذ الدكتور أحمد علي مرسى (رائد الدراسات الميدانية الشّعبية في الجامعات المصرية، ومستشار الدبلوماسية الشّعبية). 299	
(21) الأستاذ الدكتور عناد غزوان (الأكاديمي الموسوعي، وشيخ النقاد العراقيين).....	319
(22) الأستاذ الدكتور سيد البحراوي (الأكاديمي الشّريف، وصاحبُ نظرية "محتوى الشّكل").....	335
(23) الأستاذ الدكتور إبراهيم الصلوي (أستاذ اللغة اليمينية القديمة)	357

(24) الأستاذ الدكتور أحمد شمس الدين الحجاجي (باحث الأسطورة، ورائد من رواد تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها) 375
مقطعات من أصداء القراء للمقالات من اليمن ومن الوطن العربي؛ عبر وسائل التواصل الاجتماعي المختلفة. 393
الحلقة 1: د. عبد العزيز المقالح 394
الحلقة 2: د. كمال أبو ديب: 394
الحلقة 3: د. أحمد الجرموزي: 398
الحلقة 4: د. علي جعفر العلاق 400
الحلقة 5: د. كمال بشر 402
الحلقة 6: أ. د عبد المنعم تليمة 404
الحلقة 7: د. طه أبو زيد 405
الحلقة 8: د. خيرى دومة 406
الحلقة 9: د. عبد الله المقالح 408
الحلقة 10: د. عبد الملك مرتاض 415
الحلقة 11: د. إبراهيم السامرائي 416
الحلقة 12: السيد إبراهيم محمد 418

الحلقة 13: عبد الله البار.....	419
الحلقة 15: د. عز الدين إسماعيل.....	420
الحلقة 16 د. نبيلة إبراهيم.....	421
الحلقة 17: عاطف جودة نصر.....	422
الحلقة 18 د. عبد الوهاب راوح.....	423
الحلقة 19: د. فهد عكام.....	425
الحلقة 20: د. أحمد علي مرسي.....	427
الحلقة 21: د. عناد غزوان.....	429
الحلقة 22: د. سيد البحراوي.....	431
الحلقة 23 د. إبراهيم الصلوي.....	432
الحلقة 24: د. أحمد شمس الدين الحجاجي.....	434
صدر للمؤلف.....	436
محتويات الكتاب.....	440

للتواصل:

موقع الشاعر إبراهيم أبو طالب

[/http://www.iabotaleb.com](http://www.iabotaleb.com)

البريد الإلكتروني

abotalib70@yahoo.com

من هؤلاء تعلمت

سيرة ذاتية

د. إبراهيم أبو طالب



الطبعة الأولى

1442 هـ - 2021 م

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع

مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com